مهرجان القراءة للجميع



الأعمال الإبداعية

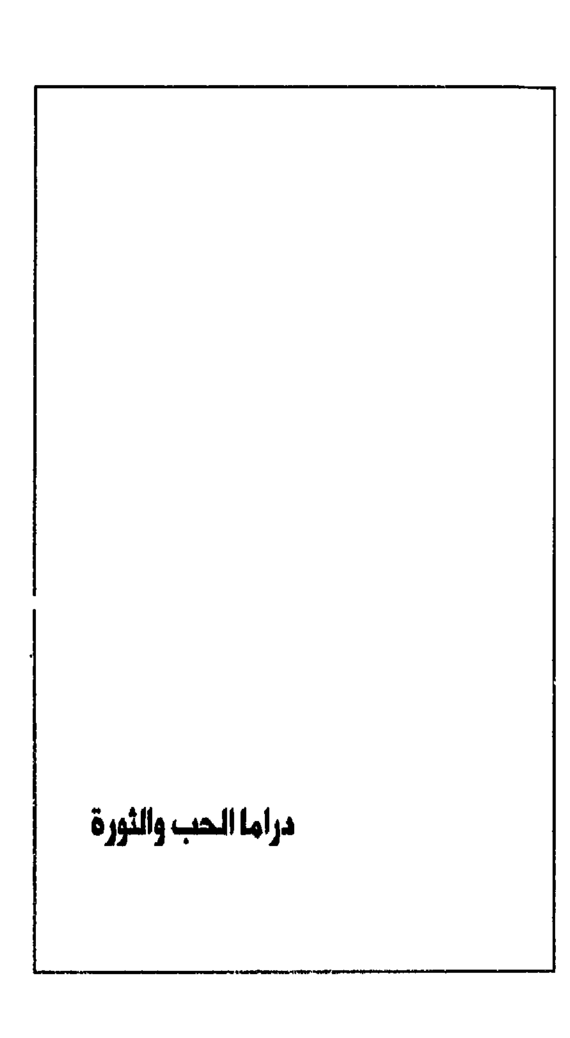
عبد الله الطوخى

دراما الحب والثورة



الهيئة المصرية العامة للكتاب


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب



دراما الحب والثورة


تليجرام
غواص في بحر الكتب

دراما الحب والثورة

قصة حياة وقصة عصر

عبد الله الطوخى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

دراما الحب والثورة

عبد الله الطوخى

لوحة الغلاف :
للفنان : جمال قطب

تصميم الغلاف
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

١

صدمة الحـرية

بخروجى من السجن، بدأت مرحلة جديدة من حياتى، وعرفت معنى الشعور بأن يولد المرء فى حياته مرة ثانية!!.. وقد كانت «الحرية» بالطبع، هى روح هذا الشعور ومحوره.. كما كان «الحب» أيضًا هو جسده.. بغذائه وطعامه وشرابه.. الحب والحرية.. لا أسبقيةلأحدهما على الآخر.. الاثنان خميرة من مزيج واحد صنعه ذلك الارتباط القدرى.. بينى أنا وفتحية!

ولقد ظللت لفترة طويلة أحس بالغرابة أنى حر طليق.. وأن فى إمكانى أن أنهض وأفتح باب شقتى وأخرج إلى الشارع فى أية لحظة دون أن أباغت بيد ثقيلة تجذبنى بعنف وتعيدنى إلى حيث كنت فى زنزانتى بسجن مصر!.. كما أنى كنت وأنا سائر فى شوارع القاهرة، دائم التلفت خلفى، كى أتأكد أن لا أحد من شمامى الأثر يتتبعنى ويرصد خطواتى استعداداً للإنقضاض على، وإعادتى إلى مكانى فى عنبر «ج» بسجن مصر.. أو بسجن الاستئناف.. أو سجن القناطر!!

كما أنى كنت فى عز الليل أستيقظ فجأة وأتحسس ملمس زوجتى وطفلى إيهاب وصلاح، ثم أمضى على أطراف أصابعى إلى البلكونة

وأفتحها بهدوء شديد، وأمتع بصرى بأبراج الحمام المنتشرة فوق أسطح بيوت حى السيدة زينب، وأسرح مبهوراً ومنتشيًا مع امتداد القبة السماوية بنجومها اللامعة التى لا نهاية لأعدادها.. وأحس فجأةأنى وحيد وأن الفرحة لكى تتأكد فى القلب، لابد لها من رفيق.. فأتوجه إليها. فى صمت الليل.. على أطراف أصابعى.. وأوقظها.. بلمسة من طرف إصبع.. تنظر لى.. ترى النداء فى عينى.. تنهض لى على الفور.. دون أن يحس بها الولدان.. وبحركة الحلم نسير سويا.. إلى حجرة الصالون.. طراز الملك لويس السادس عشر.. ونغلق الحجرة علينا: ملكا وملكة!

وقد ظل الأمر لفترة طويلة مختلطًا على.. هل أنا حر حقيقة.. أم هى أحلام يقظة تلك التى أدمنتها على مدى سنتين فى السجن.. وهى التى قوتنى وألهمتنى الصبر واحتمال المحنة!!

وقد تصورت، ذات لحظة، فيما لو لم تكن فتحية قد دخلت حياتى.. لو لم يكن ذلك اللقاء القدرى الذى جمع بينى وبينها ذات ضحى شتوى، فى ذلك الميدان العتيد، ميدان السيدة زينب.. حيث محطة الترام المواجهة مباشرة للباب الرئيسى لمسجد السيدة زينب وبدأت به قصتنا..

تصورت لو لم تكن هى فى انتظارى ليلة الإفراج عنى.. كم كان خروجى من السجن سيكون باردا ومعتما وكئيبا، وعودة إلى حياة الوحدة والتخبط والضياع!

وبدا لى أن أجمل ما كسبته من فترة السجن هو اشتعال الحب بينى وبينها.. وأن هذا الذى كان بيننا قبل السجن لم يكن سوى مشروع حب.. مجرد نوايا وإرهاصات لحلم رومانسى لم يتحدد شكله أو ملامحه بعد.. أما الآن، فقد أصبح بنيانا قائماً ومجسماً.. أصبح قصة تحكى بأحداثها وصراعاتها وتحدياتها.

والأهم.. أن تجربة السجن لم تعد تجربتى وحدى... بل تجربتها هى أيضا.. وأننا نحن الاثنين بتنا شريكين كاملين فى التجربة.. بنارها ونورها!

وقد أدى هذا الامتزاج فى العواطف، والمشاركة الكاملة فى مواجهة الأزمة واجتيازها، أدى إلى امتزاج مجموع حياتى بمجموع حياتها، بحيث لم يعد للواحد منا حياة خاصة به هو وحده.. بل تحولنا إلى حياة واحدة: الفرح الواحد والقلق الواحد، والرؤية الواحدة، والحلم الواحد بالغد.. وبات كل منا من نظرة خاطفة فى عينى الآخر، يدرك على الفور كل ما تموج به أعماقه!!.. وغدا كل منا بمثابة المرآة الصافية التى يرى الآخر نفسه فيها. وإذن فهو لم يعد آخر.. بل الإثنان فى واحد!

وهذا هو التحول الهائل والخطير الذى فوجئت به يفرض نفسه علىّ وأنا أشرع فى كتابة هذا الجزء الرابع من «عينان على الطريق».. إن سيرة حياتى، لم يعد بالإمكان فصلها عن سيرة حياتها.. فلا أكاد أشرع فى كتابة أية تجربة من تجارب حياتى المحورية الكبرى، حتى أجدها ـ

فتحية ـ وقد دخلت فى الصورة كشريك كامل فيها: تجربتى مع الكتابة والفن.. مع السياسة والسلطة.. مع الحب والصداقات.. مع الحرية والانطلاق إلى أبعد الآماد بحثا عن المعنى والمغزى الحقيقى لوجودنا بالحياة.

فى كل مرة.. وأنا أمسك بالقلم لأكتب، أجد وجهها أمامى ملامحها تذكرنى بمواقفها،، تصرفاتها.. كلماتها.. حتى إننى فكرت أن أقول لها: تعالى يا فتحية، وأكتبى أنت ما أريد أن أكتبه أنا عن حياتى التى غدت هى حياتك!!

وهنا بالضبط بدء بذور الدراما التى راحت تتكون وتنمو عناصر الصراع فيها بالتدريج، حتى جاء اليوم الذى هبت فيه العواصف وانقلبت الأشياء إلى ضدها.. وإذا بالرضا ينقلب بيننا إلى تمرد.. والشعور بالامتزاج إلى شعور بالعبودية.. والهدوء الساجى إلى عواصف رعدية أخذت تتجمع حتى تحولت إلى طوفان هائج يهدد سفينة حبنا وحياتنا بالغرق.

إنها قضية القضايا الإنسانية فيما بين الرجل والمرأة.

وبتحديد أكثر.. هى دراما الصراع الأزلى الخطير والحتمى. بين الحب والحرية!!

ولكن دعونا لا نتعجل الطوفان، فلكل شىء أوان وميعاد.. كما أن قصة الحب لاتزال فيها فصول وأناشيد من حقها على شاعر الزمان أن يغنيها على ربابته لسمار الليالى وعشاق الحكايات!

أجل أيها الأحباء.. مثلما لأغنيات المآسي سحر، لأغاني الفرح أيضا سحر وإشعاع وبهجة ستكون هي قاربنا ومؤونتنا أيام الطوفان.. حيث لا يرى ولا يسمع غير هدير الموج الطامي ونعيق الغراب النوحي!

ولنعد إلى اللحظات السعيدة... ونستنشق بقوة وعمق أريج هواء الحرية!

ولقد تجسد حب الحياة المكبوت والمختزن في صدري طوال السجن على شكل رغبة هائلة جياشة في الانطلاق طيراناً إلى البحر.. بحر الإسكندرية.. المسمى بالبحر الأبيض المتوسط.. في منطقة معينة بذاتها.. هي «المندرة».. برمالها، ومياهها.. وصخرتها القريبة من الشاطيء وذلك الكازينو المصمم على شكل سفينة، ياما جلسنا فيه من قبل أنا وفتحية، غالباً وقت الغروب، والقرص الناري يغوص في اللجة على مهل.. ماضياً في رحلته اليومية الأزلية.. وهناك أمامنا في الشرق، غابة المنتزة، بداخلها قصر الملك الذي ركب يخته ذات غروب وغادر مصر، مخلوعاً من عرشه، إلى الأبد!.

هذا الشاطئ.. شاطئ المندرة، بكل أبعاده الجغرافية الجمالية ورموزه التاريخية والإنسانية، أصبح عشقي أنا وفتحية.. جئناه أول مرة وكان عمر زواجنا عامين، وكنت مازلت طالباً في كلية الحقوق، جئناه بدعوة من زوجة عمها الوحيد إبراهيم.. اسمها «زينب شدن».. في حوالي الخامسة والأربعين.. ضحوكة.. بيضاء.. متوردة البشرة على الدوام.. سر ذلك عند ربي!! وإن كنت أظن أن طبيعة بعض البشر وسليقتهم المحبة للضحك والمرح هي السبب في انتعاش دورتهم

الدموية!!.. ولا شك أن منكيتها لهذا البيت الصغير المكون من دورين والمطل على البحر كان أحد مصادر سعادتها ومرحها.. ولأنها كانت تعيش فيه شبه وحيدة فهي لم تنجب.. لا من العم إبراهيم .. ولا من زوجها السابق المتوفى.. فاعتبرتنا بمثابة أولادها.. ومنحتنا الدور الثانى المطل على البحر، وعلى أشجار غابة قصر المنتزة!!.. وهكذا وقعنا فى عشق ذلك المكان من أول صيف قضيناه فيه.. كما كان ولدنا البكرى «إيهاب» عمره عشرة أشهر.. أذكر جيداً هذا التاريخ. ذلك أننا في ذلك الصيف فوجئنا به يسير وحده فوق الرمل دون أن يهتز أو يقع.. وإذا رأيته قابضًا فى يده على كوز أذرة جاف، ويمضى وحده فى اتجاه البحر، بدا فى عينى كمقاتل ذاهب ليلاقى خصمه.. وأحضرت لحظتها روحى بالفرح والنشوة. وأسميته بعفو الخطر: «شمشون الصغير» شمشون راح.. شمشون جاء!

هذا الصيف، لن يكون «إيهاب» الولد الوحيد معنا على البحر. أصبح معنا أخوه صلاح الذى ولد وأنا فى سجن مصر.. لسوف أعوضك يا صلاح عن أنى لم أستقبلك لحظة الميلاد.. وإن كنت قد حظيت بسبب هذا الظرف، بما لم يحظ به أخوك إيهاب.. فلقد غنيت لك قبل أن أراك، ولم أغن لك وحدى.. بل كانت الأغنية جماعية ونحن ساهرون نحيى ذكرى الشهيد السودانى المناضل: صلاح بُشْرى!!

أجل يا فتحية.. ما أجمل الحياة يارفيقة الطريق رغم كل شئ، ولسوف يكون الغد أجمل كما يقول الشاعر ناظم حكمت، وكما يقول قانون التطور المقدس.. فلنؤجل إذن كافة المشاكل والهموم، ولنجدد

عشق البحر.. نقذف بأنفسنا فى الماء.. يغسلنا الغَمر الرطيب العظيم، تهدهدنا أمواجه.. آه وسأعلم الصغيرين السباحة كى ينطلقا بسرعة فى البحر وحدهما.. أتخلص من همّهما. ونجلس أنا وأنت يا فتحية على الكازينو السفينة، نرقبهما ونستمتع بمنظرهما لحظات، ثم ننساهما وننظر فى عيون بعضنا.. نرى قصة حب لم يصنع مثلها أحد من الرفاق الذين كانوا معى، الأمر الذى كان يجعلنى أشعر بأنى - بحبك - متفوق ومتفرد بين الآخرين، وأنى أملك موهبة رائعة اسمها موهبة الحب. فن الحب. وأنت أيضاً كذلك.. لكأنما لم تخلقى إلا للحب.. وكنت تدخرين موهبتك هذه لى.. أنا بالذات.. فما أجملنا.. وما أجمل الأيام التى لم نعشها بعد.. هل تذكرين يا فتحية أول مرة أنشدت لك فيها هذه القصيدة.. ونحن نبحث عن مأوى لحبنا المطارد فى الشوارع: «أجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد، وأجمل الأنهار هى التى لم نرها بعد. وأجمل الأطفال هو الذى لم يولد بعد؟!»

ولحظتها أمسكت بذراعيها وقلت ناظراً فى عمق عينيها: أنا أريد هذا الطفل الذى لم يأت بعد!!.. وهنا قفزت إلى الخلف متنبهة من رومانسيتها، ومحذرة بلطف: بأقول لك إيه يا راجل أنت، كفاية علينا الولدين.. ربنا يخليهم ويقدرنا بس على تربيتهم.. اعقل يا راجل وضحكنا!!

غير إنى كنت رافضاً أى تعقل فى هذ المضمار فى تلك الأيام، وعشت الرغبة بكل جوانحى.. أن يولد لى طفل بعد خروجى من السجن.. كان احتياجاً نفسياً وتأكيداً للوجود وللعودة إلى الحياة.. كما

كان تأكيداً أيضاً لشعوري بالتفاؤل العام.. وأنه كما أن مصر تولد من جديد، فالمستقبل جميل.. والاشتراكية قادمة بالتأكيد.. ولا خوف من فقر أو جوع.. وها هو هواء مصر كلها، في المدن والقرى والكفور، يموج بأغنيات جميلة وبهيجة وجديدة الطعم، وأذكر أول تلك الأغنيات كانت بصوت ذلك الولد اليتيم الذي سمعت عبدالرحمن الخميسي يبشر بصوته ونحن في زنزانة سجن الاستئناف، وكان يومها يغني: على قد الشوق اللي في عيوني. الآن يغني أغنية تسرع معها دقات القلب، وتبدو مصر كلها في كرنفال سعيد.. يغنيها ومعه كورس شعبي بهيج ومهيب: «إحنا الشعب.. إحنا الشعب.. اخترناك من قلب الشعب.. يافاتح باب الحرية.. ياريس يا كبير القلب».

إنه يخاطب عبدالناصر.. بفرح مندى بالدموع.. وما أروع أن تكون الكلمات من تأليف «صلاح جاهين»!!

جميل منك يا صلاح أنك لم تتخبط في إحساسك مع الثورة مثلماتخبطت أنا وتخبط الكثير من الرفاق.. وها هي أغنية فرح أخرى من كلماتك أيضًا تشيع في النفس بهجة وأملاً تغنيها «أحلام» بصوتها المفعم بالشجن المصري الدفين: ياحمام البرساف.. طير ورفرف.. على كتف الحر وقف.. والقط الغلة.

يارفاقه الجو خالي، دي بلدنا خد براحك.. والقط الغلة..

كان فيضًا من أحاسيس ومعان رائعة يموج به الهواء.. أحاسيس ومعان مفتقدة من مئات، بل من آلاف السنين: ها قد خرج الاستعمار وولى، وتحررت الأرض وتطهرت من قوات الاحتلال.. الشعار الذي

طالما صرخت به مظاهراتنا ومعاركنا الدموية فى الأربعينيات، أصبح اليوم واقعاً وحقيقة.. وأى خلاف أو تخبط حدث قبل ذلك بينى وبين الثورة لم يكن إلا من منطلق وطنيتى، وأيضا بسبب عقدنا التاريخية النابعة من استعمار آلاف السنين لنا!

لقد وجدتنى - يرد الفعل - احتضنها (الثورة)، وكأنها مخلوقى الذى وُلد من بين أضلاعى.. والذى تمنيته فى الحلم طويلاً: أجل.. هذه الثورة هى حاصل جميع النضالات والثورات، بل والهبات أيضاً التى حدثت قبل وبعد ثورة ١٩ وتجمعها فى ذروة النضال أيام الأربعينيات.. وأن «عبدالناصر» الذى كان شريكنا فى معارك النضال السرى هو بالقطع رجل وطنى، وإن لم يركب - كما كنا نتوق - سفينة الشيوعية.. فقد ركب سفينة الوطنية والشعبية.. وها هى «أمى» التى أنبأتنى وأنا فى سجن القناطر بخبر صفقة السلاح «الروسى».. هى نفسها التى تخبرنى اليوم - وأنا حر طليق - بنبأ فى غاية الغرابة والروعة: أن الثورة تبنى جامعة جديدة فى أطراف مدينة المنصورة باتجاه قريتنا ميت خميس، ولهذا فقد اضطرت إلى نزع مساحة كبيرة من الأرض الزراعية، من بينها قطعة من أرضنا التى ورثناها - أنا وإخواتى - عن أبى ... و(ها هو «نصيبك» من ثمنها) .. ووضعت المبلغ فى جيبى.

- جامعة فى قريتنا؟! .. ياربنا..

- ويمدون الآن إليها المياه النقية.. وكذلك خطوط الكهرباء.

- وأرى الليل البهيم فى ميت خميس يموج بالنور.. وتختفى أشباح العفاريت التى ياما أرعبتنا وطاردتنا ونحن صغار؟!

ما أعظمها ثورة حقة.. ولو كنت أملك ما يعينني على مواجهة الحياة بعد خروجي من السجن، لتبرعت بثمن الأرض المنزوعة.

آه.. إن القلب تخضر فيه شجيرات الأمل.. وجميل جداً أن يحدث كل هذا، مع حدوث واقعة تاريخية جديدة كنت أتمناها وأنا فى السجن: هى إعلان الوحدة بين معظم المنظمات الشيوعية، وإشهار تكوين الحزب الشيوعى المصرى الموحد...الأمر الذى اعتبرته بعثاً للحلم القديم بالجنة الأرضية الموعودة، وأن أخطاء وجرائم الانقسام والتشرذم القاتلة التى عانينا منها إلى حد التعاسة، سوف تتحول إلى دروس تاريخية تمضى بنا إلى تحقيق ذلك الفردوس الأرضى.. الأمر الذى جعل ارتباطى بهم مستمراً، وإن كنت قد طلبت ـ وبشكل حاسم ـ أن يقتصر ارتباطى العضوى على «تنظيم الكتاب والفنانين» بنشاطه الديموقراطى العلنى، بعيداً عن دهاليز السرية وظلماتها التى تشبعت روحى برفضها والنفور منها.. وحين وافقوا على ذلك، اعتبرته نصراً ونجاحاً لقرارى باستعادة حريتى واستقلاليتى!!

وها نحن الآن فى إجازة من كل شىء إلا من حب الحياة والاستمتاع بها.. أسرة صغيرة حرمت من بعضها لعاملين كاملين، والآن يلتئم الشمل وتستعد للانطلاق إلى البحر.

فجأة.. ونحن فى عز لحظات الفرح هذه.. إذا بشىء غريب يحدث، بل قل يسقط على أم رأسى.. وإذا بى أوشك على الترنح من قوة الضربة وفعل الدوار الذى أصابنى، ومضيت أجاهد لأستجمع نفسى وأنظر فى الخطاب الذى جاءنى على البيت، أول خطاب يصلنى بعد

خروجى من السجن.. أتمعن فى كلماته.. كارهاً ومستنكراً ذلك المعنى البشع الذى ينطق به، يشككنى فى إخلاص فتحية لى وأنا فى السجن.

الأستاذ عبدالله الطوخى...

لا أريد أن أفسد عليك فرحتك بالخروج من السجن.. لكن حبى لك وتقديرى لإخلاصك وطيبتك.. تدفعنى لأن أسرع وأنصحك أن تضع حدوداً صارمة لتحركاتك زوجتك فتحية.. كما أدعوك لأن توقف فوراً علاقتها مع «فلان الفلانى» المحامى، والتى استمرت طوال فترة السجن وأنت لا تدرى.. ولكى تتأكد مما أقول، راقب حركتها.. وستتأكد من صدق كلامى.. ولن أزيد.

«مخلص جداً»

مثل لدغة أفعى كانت قابعة ومتخفية فى أحد الأركان، ثم انقضّت علىّ من الخلف ولدغتنى من عقبى، ثم ولت هاربة فى الخفاء.. ومع إحساسى بالسم يسرى سريعاً فى عروقى، كنت أحاول أن أستعيد وأجمع ملامح «فلان الفلانى» هذا.. وجهه.. طوله وعرضه.. لون بشرته وسنوات عمره.. ولم تسعفنى المحاولة إلا على نحو غائم، فلم تكن تربطنى به قبل السجن سوى معرفة بسيطة محددة بعلاقات الزمالة فى المهنة مجسمة غالبًا فى لقاءاتنا بغرف المحامين أو فى ردهات المحاكم.. وغمرنى شعور بالمهانة، وأن رئتى تفرغان من الهواء.. وتنفسى يصبح أمراً صعباً.. كيف؟!.. كيف وفى هذا الوقت بالذات.. وأنا فى أوج الفرح بالحرية.. ونحن نقيم الزينات ونستعد لإقامة الفرح والبهجة بالعودة للحياة؟!

٢

أوراق الحب
وأوراق الشر

وعدت أحملق في ورقة الشر، أتوقف عند كل كلمة وأتمعن فيما يمكن أن تحمل من معنى.. ولكن أى معنى أبشع مما انتقل إلىّ من القراءة الأولى!!.. أسرعت بوضع الورقة فى الظرف، ثم دسست الظرف فى جيبى.. كأنما أخفى دليل جريمة.. لا أريد أحداً أن يعلم بها الآن... ولا حتى فتحية نفسها!! أنا فى حاجة إلى بعض الوقت كى أتحكم فى انفعالاتى وأجمع نفسى وأفكر بهدوء: هل يمكن حقاً أن تفعل فتحية هذا؟! تخوننى وأنا فى السجن؟! وفرحتها، وحماسها، ونداؤها علىّ وعلى كل الرفاق من فوق التل القريب من القلعة، وزيارتها، وتحدياتها، ومظاهراتها، وخطاباتها ...و ... «يا أمير قلبى» التى افتتحت بها إحدى رسائلها المهربة الأولى.. و.. يا رجل أنوثتى حتى الأبد»، ذلك التعبير الذى هزنى فرحًا من أعماقى، وأعطانى الشعور بملوكية الرجولة والذكورة، وبقوتى وتفردى.. وإنى لأحتفظ حتى الآن بهذه الرسائل وكلها رسائل حب!!.. وقبل كل هذا، ميثاق الدم الذى عقدناه معًا فى السر، ولايعلم به أحد حتى الآن غير الله.. أغرب وأروع ميثاق بين عروسين.. حين كان علينا ـ ليلة الدخلة ـ أن نقدم للأهل «منديل الدم» دليل عذريتك وبكارتك.. وخطر لنا ـ أنا وأنت ـ أن

نصنع صيغة لم يصنعها أحد من قبلنا.. فأتينا بموسى صغير حاد وقام كل منا بجرح يده وسال منا الدم واختلط دمى ودمك فى المنديل ثم قدمناه إلى أمك التى ابتهج وجهها وأطلقت على الفور زغرودتها تعلن فرحتها وفخرها للأهل والجيران.. ثم بعدها.. وعلى مهل.. رحنا - أنا وأنت - نتفرج على لون دمك القانى.. إياه.. وكنت تفردين صدرك بثقة وفخار، بينما رحت ألثم كل وجهك وأضمك فى صدرى بتقديس وامتنان. فقد كنت تدخرين نفسك لى حتى دون أن تعرفينى بعد.. فهل راح كل هذا بغيابى؟! كان وهمًا وسرابًا؟! أم هو الضعف الإنسانى الذى يتسرب إلى نفوس المحبين قطرة قطرة وبالتدريج مع طول أيام وليالى الفراق والحرمان؟!

لا.. لا.. ذلك حكم بالإعدام على كل ما هو أصيل وجميل فى الحياة، وماكاتب هذا الخطاب إلا شيطاناً يبغى لحياتنا وحبنا الدمار.

وما أغرب أن يكون الإنسان فى لحظة، واقفًا شامخًا، مكتمل الإحساس بالوجود وبالتحقق، وبأن جذوره ممتدة وواصلة إلى أعمق سابع أرض.. وإذا به فجأة وفى طرفة عين، يجد نفسه متخلخلاً يهتز يميناً ويساراً، وعلى وشك أن يتهاوى أرضاً، وقد غامت كل الرؤى فى عينيه؟!

كيف؟!.. وداخلنى الشك فى كل شىء.. وفى نفسى أولاً.. وأن العلة هى أساساً فى.. وأننى إنسان يقيم حياته على التخيلات والأحلام، ثم يأتى الواقع فيبيدها ويسقطها بنفخة ريح!!

ماذا أفعل؟! كيف أتصرف معها فى هذا الموقف؟!

وتذكرت زميلى وصديقى (س.ر) وحكاياته لى ونحن فى الزنزانة عن جمعية المآسى الضاحكة الفاجعة التى كونوها، وأسموها: «جمعية طارت ماسألتش فيه».. ذلك أن أعضاءها كانوا من الذين تركتهم زوجاتهم وهم فى السجن (*) .. صحيح لم تطرمنى فتحية، بل هى الآن طائرة من الفرح مع ولدينا.. ولكن أيمكن أن يكون هذا الرجل المحامى قد أدار رأسها، أيام أن كنت بعيداً عنها.. محرومة منى لسنتين كاملتين؟! وهززت رأسى بشدة أطرد عن نفسى الخواطر البشعة!

كانت هى والولدان لايزالون فى الخارج يشترون ثياب ومستلزمات البحر.. وتمنيت لو يطول تأخيرهم.. بل وتمنيت لو أننى كنت لاأزال فى السجن مع بقاء إحساسى بروعة امتلاكى للحب ويقينى منه.. ذلك أفضل ألف مرة من أن أكون حراً طليقاً وأصدم فى أعز ما أملك!!

كيف أتصرف؟! هل أخبرها بالخطاب فور وصولها، أم أنتظر حتى ينام الولدان، ثم أجلس قبالتها وهى تقرؤه وأرقب جيداً أصغر وأدق الذبذبات والخلجات التى تطرأ على ملامحها.. وإنى لأعرفها.. أحفظها.. كلها.. من الباطن والظاهر.. فى الظلمة كما فى النور..

ولسوف أصل من مجرد بريق عينيها ومن أول لحظة إلى الحقيقة واليقين.. فهى لم تكذب علىّ مرة واحدة، ولا حتى كذبة بيضاء.. منذ لقائنا الأول ونحن منطلقان فى شوارع وحوارى السيدة زينب تحكى لى طرفاً من قصة حياتها.. أذكر جملتها وهى تقول: «أكثر حاجة أكرهها

فى الحياة هى الكذب»، ولحظتها قلت لها: «ما أجمل أن تقوم حياتنا على الصراحة والصدق، مهما كانت مرارة هذا الصدق.» فهل أنا الآن، وفى هذا الموقف، على استعداد لسماع الصدق المر منها.. الصدق الذى يكون فيه دمار ومقبرة لحبنا؟! وتمنيت من أعماقى لو أنها هذه المرة تكذب، وتكذب بشدة، إذا كان ما يوحى به هذا الخطاب صحيحاً!! ألا تعترف بخطئها إن كانت أخطأت.. و .. «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر!!»... و..

ودوت فى رأسى ضحكة ساخرة مقهقهة: ها قد أوصلتك أيها الفلاح إلى أن ترغب فى التعامى عن خيانتها لو كانت قد فعلتها.. فهل هذا يليق بك؟! هلى نسيت الحديث النبوى عن المحافظة على العرض، ووصف من يفرط فيه بالديوث؟!

قيل: ومن هو الديوث يا رسول الله؟!

قال : ﷺ: هو الذى لا يغار على أهل بيته!

وأنا لست ديوثاً.. ولن أكون!! إن الرجل الرجل يغار على امرأته.. والذكر حتى فى الحيوان الأعجم يغار على أنثاه ويقاتل حفاظاً عليها!!

يا إلهى من يخرجنى من بئر الأفاعى هذا الذى سقطت فيه؟!



فى أعماق الرجل.. الذكر.. الشرقى بنوع خاص، بؤرة صديدية خفية كامنة ومختوم عليها، ودائماً فى انتظار آية لحظة كى تعلن عن

نفسها وتنفجر على نحو سرطانى!!.. بؤرة فجرت أخطر وأشهر دراما إنسانية وعالمية، دفعت بالسلطان المتربع على عرشه والحاكم بأمره أن يسأل نفسه بجنون، وقد استولت عليه لحظة شك قاتل: هل يمكن أن يحدث هذا من شهرزاد، وأنا غائب عنها؟! شهرزاد التى شفتنى وردت لى توازنى الروحى.. هل يمكن أن تلعب بى وتعيدنى إلى حماة الشك مرة أخرى؟!

وهى.. فتحية.. التى كانت تناديني فى رسائلها لى وأنا فى السجن: يا أمير قلبى.. ولم أكن أنام قبل السجن.. إلا على حكاية جديدة لها.. كل ليلة.. فهل ما تصور شهريار احتمال حدوثه من شهرزاد، يمكن أن يحدث من فتحية معى؟!

لكن شهريار لم يكن غائباً مثلى.. بل كان فى رحلة صيد يبدد بها ملل أيامه ويشبع شهوته المتأججة دوماً للاستحواذ والقنص!!!... أما أنا فكنت صاحب قضية هى تدركها جيداً وبانت تشارك فيها ويقبض عليها بسببها.. فكيف يطاوعها قلبها؟! أم أن الخيانة - غدراً أو ضعفاً - شىء يسرى فى الدم.. طبيعة خلقت بها حواء التى لم تكسب اسمها هذا إلا اشتقاقاً من قرينتها «الحية» الأفعى.. الناعمة المتسللة الزاحفة من تحت الأعقاب على بطنها، النافثة سمها، والمخرجة لصاحبها آدم من الجنة؟!

يا ربى ارحمنى وأبعد عنى هذه الهواجس.. إن مقتلى فى جموح خيالى وتخيلاتى.. وقد يجمح بى الخيال اليوم فتكون حبيبتى هى ضحيتى!

انتبهت فجأة على ضجة الولدين.. ها هى قد عادت بهما من السوق.. تملأ الفرحة قلبيهما وهما يصيحان ويتقافزان على السلالم ويتنافسان فى سرعة الصعود.. وهذا صوتها.. تخاطب الولدين محذرة: وطوا صوتكم .. أحسن يكون بابا نايم!..

هوى قلبى وتسارعت أنفاسى: هل يمكن يا أولادى... هل يمكن أن أمكما .. وأنا فى السجن؟!

ورفضت إكمال الصورة.. الأهون أن أسقط أنا وأتمرغ فى الوحل.. أما هى، فلتبق كما كانت دائماً مزهوة مرفوعة الرأس.. رمزاً لأجمل حب.. وأجمل أمومة!!

ودخلوا علىّ.. الثلاثة يحملون الأكياس الورقية المنتفخة.. كان وجهها مورداً وفياضاً.. كأنما هى عائدة من معركة حققت فيها انتصاراً هائلاً.

- يا الله افتحوا الأكياس وفرجوا بابا.

- عندى فكرة (قال إيهاب) بابا يشوف الطقم علينا واحدا لابسينه. كان قلبى يرتعش مع الفرح الغامر بحركتهم.. ومع الأسى الخفى الغامر أركان نفسى.. وصحت وأنا أرى الولدين وقد ارتدى كلا منهما المايوه.. والفانلة الصيفى:

- طقم مدهش.. ألوانه جميلة.. ماشية مع لون البحر والرمل.. طول عمر أمكم ذوقها جميل.

صاح إيهاب. وأعماقه تضج بالشوق: امتى بقى الواحد يلاقى نفسه على البحر.

قالت فتحية: لسه المفاجأة الأخطر.. (وبروح المداعبة) تسمح تغمض عينيك!!

وإذ نظرت فى عينيها قبل أن أستجيب للعبة الطريفة، رأيتها تتفرس فى عينى وتقول مشيرة بإصبعها: أنت سارح فى حاجة.. صح؟!

ولم أرد، أغمضت عينى كما طلبت..

قال الولدان فى نفس واحد: فتح عينيك!!

كانت المفاجأة «مايوهاً» أزرق سماوياً اشترته لى.. أحببت جداً لونه.. فرحت به: رائع.. مدهش.. وبالتحديد درجة الأزرق فيه.

التقت نظراتى بنظراتها.. عيناك يا فتحية بحر من الحب.. بحر من الصدق يغرق كل الشكوك.

- وأنت (سألتها) ما اشتريتيش حاجة لنفسك؟!

- إزاى.. غمض عينيك تانى (وضحكت رغمًا عنى).. (أغمضتهما.. ثم فتحتهما) لم أجدها.. تصورت ماذا تفعل، وصح تصورى.. فقد جاءنى صوتها.. مداعبًا: فتح عينيك.. وإذا بها تقبل مرتدية مايوهها الجديد.. أزرق تركواز.. والقماش هيلانكا.. ضاغط ومحبوك ومفسر لتقاسيم الجسد.. جسد الأنثى فى ذروة نضجه واكتماله وفرحه بنفسه.. تسير بخطوات واثقة مستعرضة.. أطفلة أرى.. أم

شيطانة؟! وأحسست بالخطاب فى جيبى يلسعنى.. هل يمكن.. هذا الجسد.. هل يمكن أن أحداً.. أى أحد..

- إيه يا راجل مالك.. واضح إن المايوه ماعجبكش!

- بالعكس.. مايوه رائع.. فى منتهى الجمال عليك..

- أمال إيه.. عينيك بتقول.. فيه حاجة شغلاك أكيد..

- فعلاً .. (وكان الولدان يلعبان فى حجرتهما) بعد الأولاد ماينامو.. نقعد نتكلم.

●●●

غير أنها لم تطق الانتظار حتى ينام الولدان.. طلبت منهما أن ينزلا إلى الشارع ويلعبا أمام البيت بعض الوقت حتى تنادى عليهما.. فرح الولدان باقتراحها وخرجا على الفور، وأصبحنا وحدنا فى البيت.

- قوللى بقى.. فيه إيه.. أنا أصلى باحس بك على بعد ألف كيلو.

وضعت يدى فى جيبى وبمنتهى الهدوء أخرجت الخطاب وقدمته لها: الجواب وده جالى النهارده!

اختطفته وتأملته للحظة.. ثم فتحته وأخرجت الورقة ومضت تقرأ فيها، مضيت أنا أقرأ ملامح وجهها.. أرصد أدق خلجاتها ومشاعرها التى راحت تتوالى على صفحة وجهها: فى البدء فضول وانتباه، ثم تحفز وتعقد فى الجبين.. ثم إذا بشكلها بل وكيانها ينقلب ويأخذ هيئة وحش أصيب ولا يعرف كيف يرد الضربة فى الحال.. وإذا بها تقول

صائحة وهى تكاد تدور حول نفسها: هى مفيش غيرها بنت الكلب.. الحقودة الصفرة المسمومة.. حاخرج لها فوراً دلوقت، وحاواجهها بالجواب.

- تبقى مين دى؟!

- تبقى فلانة (....) ماكفاهاش اللى عملته فى طول فترة سجنك.. النهاردة عايزه تخرب بيتى.. مش طايقة تشوفك رجعت بيتك وجوزها لسه فى السجن.. لازم تنكد علىّ وتسود عيشتى. وتخرب بيتى. كويس أنك لابس.. وأنا لابسة.. ننزل لها إحنا الاتنين دلوقت.

بقدر ما استرحت لثورتها ولاتهامها اليقينى لفلانة هذه بالذات، إذ أن شخصيتها من خلال تجاربى السابقة معها تسمح لها أن تفعل هذا، غير أنى تشككت فى هذا اليقين.. إذ تبقى نسبة ولو ضئيلة ألا تكون هى مرسلة الخطاب.. فضلاً عن أن ذلك لم يكن هو المهم فى الموقف، ما كان يهمنى هو حقيقة المعنى الذى يتضمنه الخطاب.. حقيقة علاقتها بهذا الشخص المشار إليه بالاسم.

قلت دافعاً بالمواجهة إلى ذروتها.. طلباً للحقيقة:

أولاً: لازم يكون فيه نسبة.. ولو واحد فى المية.. احتمال أنها ماتكونشى هى.. وده اتهام خطير.. مش سهل.. لابد فيه من اليقين والتأكد الكامل..

وثانياً: مش المهم دلوقت مين اللى باعت الجواب ده.. المهم الكلام اللى فيه.. حقيقة العلاقة بينك وبين هذا الإنسان!

وكأن أفعى لدغتها فانتفضت فى وقفتها متألمة ومفجوعة: يا مصيبتى.. قوامك عملتها علاقة.. عبدالله.. أنا لو حسيت لحظة أن ثقتك فى اتهزت شعرة يستحيل أعيش معاك ثانية واحدة..

للمرة الأولى يجرى على لسانها معنى الانفصال.. كيف يمكن.. كيف تجرؤ؟!

- أنت بتهدديني!!

- أنا مش بأهددك.. أنا مش مصدقة اللى سمعته منك.. أنت كده حتحقق للى باعت الجواب - أيا كان - هدفه.. ودى تبقى كارثة تقضى على كل حياتنا.. وتحول سنين الكفاح والنضال اللى قدرنا بحبنا نعديها ونتحملها لأيام بشعة تفرق بيننا.. ألاقينى فى النهاية متهمة.. بأبشع اتهام.. والأبشع أنك تصدقه!

صرخت فيها: أنا مش عايز أصدق.. أنا عايز قلبى يستريح.. أنت مراتى وأم أولادى وحبيبتى وعرضى.. لازم أقلق عليك.. وأنا راجل فلاح .. فىّ دودة.. جرثومة.. لو ماخرجتهاش، حتفضل تكبر وتسمم حياتى.. سيبينى أخرج اللى جوايا.

اندفعت نحوى، مادة يديها، مناشدة راجية: عبده يا حبيبى.. أنا حاسة بك ومقدرة اللى أنت فيه.. بس انت كمان أعذرنى.. أنا أول مرة أترعب وأخاف على حبنا وحياتنا، دول مش بيضربونى أنا بس.. لا.. دول بيضربوك أنت أساسا.. بيشككوك فى حبيبتك اللى أنت معتز بها.. الإنسانة اللى وثقت فيها وخرجتها للحياة وللدنيا كلها.. ماحطتنيش فى

البيت وقفلت عليّ وريحت دماغك زى عدد كبير من الزملا ماعملوا مع ستاتهم.

وصدقنى يا عبد الله.. ثقتك دى هى اللى كانت بتعطينى الشجاعة، أنى أعمل حاجات كان مستيحل قبل كده أقدر أعملها.. حبك وثقتك هم اللى كانوا بيخلونى أرمى نفسى فى النار، وأقول مادام ده يرضى عبدالله ويسعده، لازم أعمله مهما تكون النتيجة! أنا ياما شفت.. وإذا كنت أنت قاسيت فى السجن قيراط.. أنا قاسيت عشرة.. صدقنى.. أنت كنت عايش مع زملا وأصدقاء بتدافعوا عن قضية عارفينها ومتحملين السجن علشانها.. لكن أنا.. أنا كنت فى وسط ناس وعيهم على قدهم.. وكثير منهم بيشوف إن أى عمل بأعمله استعراض علشان الزملا يقولو لى براڤو.. وكانت أولهم الست اللى أنا متأكدة أنها هى اللى باعتة الجواب.. وحتى لو مش هى، يبقى اللى كاتبه من نفس نوعيتها.. وهم دول اللى بيرجعونا ويرجعوا الكفاح لورا.. وده الكلام اللى ياما قلتهولى وياما كتبتهولى وانت فى السجن.

تتصور الإنسان اللى بيربطوا بين اسمى واسمه.. ده كان أكثر إنسان محترم قابلته فى الفترة دى.. فاكر لما طلبت منى أقابل نقيب المحامين.. الأستاذ عبدالرحمن الرافعى.. عشان يقرر لنا إعانة مالية؟!.. كان هو اللى كتب لى صيغة الطلب، ودخل معايا للنقيب وأنا بأقدمه.. وكنا فى أى مشكلة قانونية تقابلنا نروح له مكتب نستشيره، وياما حضر تحقيقات مع زملا مقبوض عليهم.. كان فعلاً من أنضف وأشرف الناس اللى عرفتهم.. وعمرى والله ياربى ماشفت منه أى

نظرة كده ولاكده.. وبعدين ماتنساش مين اللى عرفنى عليه أول مرة.. كان صديقك وحبيبك زكي مراد.. وهو فى فترة اختفائه.. قبل مايدخل السجن.. قال لي إذا احتجتم أى شيء متعلق بالقانون ممكن تروحو له.. إنسان وطني.. وعلى خلق.. وياريت.. ياريت نقوم سوا دلوقت ونزوه.. وتشوفه.. على الأقل علشان تشكره.. وحتحس أكيد.. ومن أول لحظة بالحقيقة اللى نفسك تعرفها. وأن فتحية ومراتك وأم أولادك.. كانت رافعة رأسك، وحتفضل طول عمرها رافعة رأسك.. لأنها قبل كل شيء.. رافعة رأس نفسها!

كانت متهدجة الأنفاس، ومع هذا مرتفعة الرأس، مشدودة القامة مشدودة الروح.. متحدية واثقة.. وفى نفس الوقت مناشدة راجية.. بينما أنا.. عيناى متركزتان فى عينيها متتبعاً كل رمشة وكل شعاع وكل لمعة!! من يوم أن عرفتها وعيناها هما دليلى وبرهانى ومنارى.. ما أضلتانى يوما، أو زرعتا فى نفسى شكا.. وإذا بكلماتها تنزل على نفسى كالبلسم الشافى لجرح كان ينذر بالتقيح والتسمم!.. وغمرنى إحساس مطلق بالصدق وبالأمان.. غمر كل روحى مثلما تغمر مياه المد شطآن البحر بعد جزر موحش وكئيب.. فقد أبهجتنى المعانى التى كانت تقول بها.. ورأيت أن تجربة الفراق والسجن قد أنضجتها وخلقتها خلقا جديدا.. وأنها أبدأ لم تضل.. وأن ضميرها الواعى المتنبه هو حاميها وهو المحاسب الأول لها قبل أن يكون أى شخص آخر.. ضميرها الصاحى هو الذى يوقفها أمام نفسها، ويحاسبها بشدة، حيث إنها تحيا بمثل أعلى.. بشوق دائم لأن تصنع من نفسها ومن حياتنا وحبنا شيئاً عظيماً!

أبداً أبداً لم أفقدها.. بل ها نحن نلتقى بعد المحنة على عهد جديد يزدهر به الحب ويضىء!

- فتحية (ومددت لها ذراعى) أعطينى الجواب!

ناولته لى.. اصطحبتها من يدها فى هدوء شديد إلى الشرفة الصغيرة المطلة على الحارة.. رفعت يدى بالخطاب إلى مستوى عينيها.. ثم مزقته نتفا نتفا صغيرة، ثم نثرتها فى الفضاء..

التقت عيوننا..

فى نظراتها الدهشة والفرح والامتنان.. ورحنا نتابع النتف الممزقة وهى تتطاير وتتهاوى فى الضياع، وفى الفراغ.. ابتسمت لها.. وإذا بشفتيها ترتعشان، ثم فجأة انفجرت من السعادة باكية.. وفردت لى كل ذراعيها.

واحتوينا بعضنا كما لم نحتو بعضنا من قبل.

وفى اليوم التالى، كنا نحن والولدان نركب القطار وننطلق إلى بحر الإسكندرية العظيم!

٣

لا تشربا من كأس واحدة

فى أحد كتبه الجميلة الباقية، واسمه «قوت الأرض» يقول الكاتب الفرنسى «أندريه موروا» مخاطباً بطل كتابه، فى إحدى لحظات التحول الخطيرة فى حياته: هيا أخرج أيها الفتى، وأعط ظهرك للمكان الذى أنفقت فيه كل عمرك الماضى - هيا أخرج.. فإن لم تخرج الآن فمتى ستخرج.. وإن أنت لم تفعلها فمن سيفعلها غيرك؟!

هكذا أنا، فى هذه اللحظة التى أكتب الآن فيها.. أستحث نفسى.. أشحنها وأشجعها حيال مختلف المثبطات: إن لم أخرج على المألوف والمعتاد وأكتب تجربتى بكامل حريتى ووعيى، فمن سيفعل هذا غيرى؟ وإن لم أفعلها الآن تحديداً وأنا أدون سيرتى، فمتى إذن سأفعلها؟!

ذلك هو امتحانى، وثورتى الحقة المرتجاة.. أن يصبح الحب الذى منحتنى الحياة إياه صدفة، وأن يصبح وجودى فى هذا العالم.. إضافة جديدة حية!

وما المناسبة؟!

الحكاية تدعو للتدبر والابتسام أيضاً: فبينما كنت أنشر الجزء السابق من «عيدان على الطريق «سنين الحب والسجن» وعقب نشر فصلين

عنوانهما: «كيف عرفتها؟!» و«أغنيات الحب المطارد».. ذكرت فيهما لقائي الأول بفتحية، وكذلك أول قبلة لنا وكانت بين شواهد القبور، فوجئت بها تخبرني بأن صلاح، ابننا الأوسط المقيم في «الغردقة» (بعد ترحال واسع في بلاد العالم)، قد اتصل بها تليفونيا، وقال لها مغلّفاً قلقه بشيء من روح الفكاهة: ماما .. قولي لبابا يحاسب شوية في الكتابة عنك، حضرتك مراته صحيح، لكنك في نفس الوقت أمنا. والصراحة في الحاجات دي برضه لها في بلادنا دي حدود!

وتلك هي مشكلة السيرة الذاتية.. أننا ونحن نكتب عن حياتنا، مقيدون ومحددون رغماً عنا بحقوق الآخرين علينا.. ذلك أن صفحات كثيرة من حياتنا تتداخل مع صفحات كثيرة من حياتهم.. والأخطر أن مالا يعتبر في رأينا عيبًا أو خطيئة، قد يرى البعض ذكره ذنبًا لا يغتفر.. وجريمة تستحق الشنق!!

وقد قلت لصلاح بعد هذه المكالمة ببعض الوقت، في جلسة جمعتنا على مركب صيد صغير يملكه في البحر الأحمر، معتمداً على روحه المغامرة الطليقة والمتمردة، والتي دفعته أول أيام شبابه إلى أن يركب سفنا ويجوب بحاراً ومحيطات، ويرى ألواناً من البشر، ومع هذا فلاتزال كثير من «التابوهات» والقيم والأعراف الراسخة والدارجة تقلقه وتناوشه.. قلت له تعليقًا على مكالمته التليفونية: إنني حتى الآن لم أكتب من قصتي مع أمك إلا أجمل وأبسط وأهون الأحداث.. فماذا حين يأتي زمن الطوفان بأحداثه المأساوية التي لاتزال بالطبع تذكرها وكان لك فيها موقف شد من أزري.. كعادتك معي طوال عمرك في

الأزمـات.. مـاذا أنت صـانع حين أبدأ فى كـتـابتـهـا ونشـرها على الناس؟!.. إننى لواثق من أنك ستكون أكـبـر المشـجـعين لى.. أولاً من منطلق ثقتك فى تقديرى للأمـور.. وثانيًا لأنك أنت نفسك بطبـيـعـة روحك وجوهرك مع التمرد والمغامرة وضد المألوف، مما دعانى أن أخـاطبك فى رسائلى إليك وأنت جـوّاب فى مـخـتلف البلاد والبـحـار بالسندباد!! وثالثًـا وهو الأخطر والأهم: أننـى وإن كنت أكـتـب عن «عبدالله وفتحية» فأنا لا أكتب أساساً عن أبيك وأمك، بل عن اثنين.. رجل وامرأة.. وقصتهما فى الحياة.. ذلك أن القضية المسيطرة علىّ، وأنا أكتب هذه السيرة، أن أرصد فيما أرصد، أسرار وأعاجيب ودهاليز تلك العلاقة الحميمة الغريبة التى تربط بين الرجل والمرأة، والتى تعتبر أساس وقوام الوجـود البشرى، والتى تـعـتـبـر من أجل هذا، هى أكـثـر العلاقات طبيعية فى الحياة.. ومع هذا - وياللغرابة - هى نفسها أكثرها تعقيداً ودرامية!.. أعتقد أيها السندباد المغامر - أن هذه القضية تشغلك أنت أيضاً.. إنها قضية الإنسانية كلها.. قضية تأكيد الوجود الحي كله!

فى تلك اللحظة كان المركب قد اقترب من إحدى الجزر المرجانية.. فتوقفنا تلقائياً عن الكلام، وجعلنا نتأمل من خلال تلك العين الزجاجية السحرية أعاجيب الكائنات البحرية السارية فى الأعماق.

وعدت أخاطبك من أعماق روحى: لقد علمتك السباحة ذات يوم فى طفولتك وشجعتك على مـواجـهـة الموج العـالى.. وها أنا اليـوم، فى كهولتى، أجنى أجمل حصاد.. إننى أنزل البحر الأحمر المعروف بعنف أمواجه.. أنزله معتمداً على صحبتك وحمايتك لى إذا أزفت العاصفة

وأطل الخطر!.. أبداً لن أعرف الخوف وأنت معى، وهذا ما يملأ قلبى دوما بروح التفاؤل والبهجة.. بهجة حافلة شاملة مصدرها الإحساس بأننى - أنا وأمك - قد وصلنا أخيراً إلى أجمل وأكمل صيغة للحياة المشتركة بيننا.. وما كان يمكننا بلاغها إلا عبر العواصف والطوفانات!

آه، يالها من لحظة لاتنسى وهو يقف فجأة على سطح المركب فارداً قامته الفارعة، وقد تملكته حالة أشبه بالوجد وقال لى صائحاً بعزم: أكتب يا أبى.. أكتب وعرّ كل شيء قبل أن تقوم العواصف بتعريته.. أكتب ولا تعبأ.. وليكن لنا شرف المواجهة وإظهار الحقيقة مهما كان الثمن الذى ندفعه.

وقفز قفزته الرائعة إلى الماء سابحاً فى الأعماق!

●●●

وأعود إلى واقعة خطاب التشكيك أو خطاب الفتنة كما وصفه بعد ذلك صديق عزيز.. فمثلما لا تنتهى الزلازل والعواصف بانتهاء هزتها وغضبتها، بل تبدأ آثارها الدرامية فى الظهور، كذلك كانت حادثة ذلك الخطاب.. فرغم أننا اجتزنا الصدمة، بل وخرجنا منها أكثر ارتباطا وتوحداً.. والحب نفسه ازددنا إيماناً وتعلقا به، فبدا أنه هو الذى أنقذ نفسه بنفسه... وبالتالى شد من أزرنا، وأنقذ حياتنا والحلم الذى تسجاه معاً.. رغم هذا فإن عنف العاصفة وفجائيتها الصادقة، خلفا فى نفسى إحساسا دفيناً وسرياناً بالحزن.. حزناً شخصياً جداً، ووجدانياً أيضا.. لم تشاركنى فيه فتحية، ولاحتى فاتحتها فيه. إحساسا بعدم الرضا عن

النفس، أقرب إلى الشعور بالمهانة، وأن ثمة منطقة خفية من نفسى، لم أكن أفطن إليها قد تعرت بفعل العاصفة وانكشفت، وسلبت منى ذلك الشعور الرائع، بالملوكية والتسيد الذى كنت أنعم به فى الحب معها.. اهتز هذا الشعور وتخلخل إلى درجة الإحساس بفقدان التوازن.

فما هذه المشاعر الغريبة الرهيبة التى انتابتنى إثر قراءتى لخطاب التشكيك.. مشاعر خلاصتها أننى كنت فى غاية التوحش والبدائية تارة، وفى غاية الضعف والهشاشة تارة أخرى، وتارة ثالثة فى غاية الشر.. وأكاد أقول الجنون.. حين استدعت مخيلتى صورة السيف المعلق فوق رأس «شهريار» حين فكر بأن «شهرزاد».. مسامرته وحبيبته وجاريته، قد خانته وهو غائب عنها فى إحدى رحلاته!

أى هوة ترديت فيها؟! وما هذا الانقسام الذى أعيشه وأعانيه؟!

أدعوها بل وأحرضها على الحرية، بينما فى نفس الوقت ثمة إحساس آخر يهيب بى: فلتأخذ من هذه الواقعة درساً.. ولتستبقها حبيبة وأنثى وأما فحسب.. بعيداً عن دنيا السياسة ومعارك النضال وقضاياه.. ودعك من أسطورة «بافل وساشا» وتهاويل رواية الأم لجوركى. ها قد رأيت فى تجربة السجن كم يبتعد الواقع عن الخيال والحقيقة عن الحلم!

وهاهم الرفاق وعلى أعلى المستويات التنظيمية، يحرصون بل ويبالغون فى الحرص على عزل زوجاتهم وإبعادهن عن هذه المناطق العاصفة الخطيرة.. فهل أنت أكثر ثورية وإخلاصاً منهم؟! ثم.. ألا تذكر تلك الواقعة التى كنت بالصدفة شاهداً عليها... وبشكل أدق سامعاً

لها.. حين ذهبت فى أحد الأيام لزيارة أحد الرفاق الكبار فى بيته، وإذا بك قبل أن تضع إصبعك على جرس الباب، تسمع أصواتاً عالية حادة، وإذا بك تفاجأ بأنه فى «خناقة» حامية مع زوجته. وما الموضوع؟ كان يكيل لها الاتهام كالطعنة: كيف سمحت لفلان (....) بالدخول إلى البيت وأنا لست موجوداً فيه؟! (وفلان هذا صديقه ورفيقه).

- إزاى.. (وصوته يرتعش غضبًا) تدخّليه البيت وأنا مش موجود يعنى إيه؟

وصرخت: قوللى أنت يعنى إيه؟!

وعلت صرخته على صرختها: يعنى حاجات كثيرة أنت عارفاها ياست هانم! وسمعتها تقول.. بألم وباشمئزاز: أعوذ بالله.. أعوذ بالله... يبقى أنتم ناس كدابين... بتوع كلام وبس.. وعشان كده أنا ما عنديش أى ثقة فيك.. ولا فى أفكارك.. ولا فى أى حاجة تخصك.. ياحضرة الزعيم!!

وفى هذه اللحظة جريت مسرعاً إلى المصعد الذى كان لحسن الحظ لايزال موجوداً .. ونزلت به إلى الشارع دون أن يعلما أنى سمعت أى شىء! ألم تكن هذه الواقعة درساً ونذيراً لى بأن أسرع بإخراج زوجتى من تلك المناطق المخيفة المليئة بالأحراش وبالتناقضات، وأستبقيها داخل عالمها البيتى المحدود الذى أخذتها منه، وحينذاك لن ألقى منها أدنى تململ أو اعتراض، ذلك أنها لن تحس بحكم تربيتها بافتقاد أى شىء كان لها ثم سلب منها!

إلا أننى كنت نافراً من ذلك المنطق التقليدى.. وكان إحساسى بأنى لو عزلتها وأعدتها إلى قفصها البيتى الأول، فلسوف أخسر صورتها المشعة المتأججة الحية التى اكتسبتها هى من خلال ارتباطها بالعمل السياسى الجماهيرى طوال عامى السجن، فضلا عن طبيعتها الأصلية المحبة للحركة وللتواجد بين الناس.. وإننى بهذا أرتكب خيانة كبرى لفكرتى بل ولعقيدتى فى الحب، وفى الحياة.. تلك القائمة على التمرد والثورة..وإنه لأمر غير منطقى... أن أكون ثوريا وحدى.. دونها.. هى شريكة عمرى وأدق لحظات حياتى وانفعالاتى.. كيف.. وأنا الذى أهفو.. لو أن كل من أعرفه، أستطيع أن أمسه بنار التمرد، فتؤجج كل ما فى أعماقه.. وما أكثر ما فى أعماق الإنسان.. كل إنسان.. من طاقات وعجائب.. فكيف آتى اليوم وأحرم شريكة حياتى من مصدر للفرح تعمنا به معاً من قبل.

كيف وأنا الذى كنت أصحبها، هى التى أخرجها أبوها من مرحلة التعليم الابتدائى، كنت أصحبها إلى الجامعة، فتجلس بجوارى فى مدرج الحقوق، وتستمع معى إلى مختلف المحاضرات، مرة فى القانون الرومانى، وأخرى فى القانون الجنائى المصرى، وثالثة فى القانون المدنى أو الشريعة الإسلامية.. وكنت أضيق فجأة بالمكان أو بجفاف المواد، فأنطلق بها إلى حديقة الأورمان المقابلة مباشرة للجامعة، نقصد مكانا معينا بالذات.. بحيرة تموج بأزهار اللوتس بجميع الألوان، فنجلس على ضفافها.. ونقرأ.. يوماً فى أحد كتب «سلامة موسى»: عقلى وعقلك، أو مصر أم الحضارة.. ويوماً آخر مع كتاب «النبى» أو «الأرواح

المتمردة، لجبران خليل جبران.. ووصاياه الرائعة التى بدت لنا كما لو أنه ألفها من أجلنا.. وهو يجيب قائلا، حين سألوه: هات حدثنا عن الزواج.. فقال بين ما قال:

ليملأ كل واحد منكما كأس رفيقه، ولكن لا تشربا من كأس واحدة!! ليعط كل واحد من خبزه لرفيقه، ولكن لا تأكلا من الرغيف الواحد!.. ولتقفا معا، ولكن لا يقترب أحدكما من الآخر كثيرا. لأن عمودى الهيكل يقفان منفصلين.. أجل.. وليكن بين وجودكما معا فسحات تفصل بعضكم عن بعض، حتى ترقص رياح السموات فيما بينكم!!

تلك كانت ثورتنا..وأشواقنا.. أن نصنع برفقتنا وحبنا حياة على شاكلة جديدة.. فكيف أسحبها وأعيدها إلى رقعة البيت وأكفنها فى طوايا تلك الحياة التقليدية؟!

أنا نفسى لا أطيق.. ليس من أجلها فى الأساس، بل من أجلى... طوال عمرى وأنا فى حاجة إلى من تطير معى تحلق معى. ولو مسنى الجنون والخيال يمسانها هى أيضا معى.. أجل.. ولئن كنت فى حاجة إلى الثورة أجدد بها حياتى، وأحقق من خلالها ذاتى، فهى الأخرى كذلك، بل إنها فى الحقيقة أكثر احتياجاً منى إلى الثورة، كى تعوض الكثير الذى فاتها! ولأننى كنت أحس بأنى شمس حياتها ومصدر الضياء لها فلم يهن علىّ أن أردها إلى منطقة الحريم المعتمة التى أنتشلتها منها.. وإنها لسعادة كبرى أن يأخذ الإنسان بيد إنسان آخر ويدفع به إلى مناطق الضوء، وإلى فسحات الحياة الطليقة!.. ما أروع

أن تخرج جواداً كريما حبيساً من حظيرة ضيقة محدودة إلى وديان وسهول ومناطق خلاء يجرى فيها بكل قواه ويصهل فرحاً سعيداً.. وإنى لأود أن أركب جوادى وأنطلق وهي معى.. وما أجمل ألا تكون خلفى على نفس جوادى، بل هى نفسها، وحدها، على جوادها، مستقلة وسعيدة بنفسها وبقدراتها.. أجل.. هكذا نتصاحب.. ونحن منطلقان... جوادين لا جواد واحد... نؤكد المعنى الجميل العظيم الذى أوصى به صديقنا العزيز جبران: اجعلوا بينكما فسحات.. لا تشربا من كأس واحدة. ولا تأكلا من رغيف واحد!!

والحق أنه.. فى تلك الأيام كان هناك فى الجو العام فى ذبذبات الهواء، فى النسيج الكلى للحياة، كان ثمة معنى ساطع يموج من حولنا ويعطى للوجود زخما عاطراً وإيقاعا منعشا عاما.. هو معنى الثورة.. ذلك المعنى العظيم والعزيز الذى عشنا السنوات الطويلة نحلم ونبشر به ونكافح من أجله! كانت كلمة الثورة قد دخلت حياتنا، ليس كمجرد لفظ منطوق، بل كفعل وسلوك وحركة تدفع بالدماء إلى العروق! أصبح معنى الثورة هو البوصلة الرئيسية لسفينة حياتنا.. وكان أوضح تعبير عن هذا فى محيط حياتى، هو ما أصبحنا نراه يحدث فى قريتى ميت خميس.. ها هم يبنون فى زمامها جامعة سيدخلها أبناء المحافظة وأولاد الفلاحين... وسيطلق عليها «جامعة المنصورة».. إلا أن المنظر الذى هز قلبى إلى حد الإحساس بالرغبة فى البكاء فرحا وامتنانا ويكاد يكون خشوعا، منظر السكة الزراعية الواصلة بين القرية والمدينة، وعليها يسير أولاد الفلاحين صبيانا وبنات.. مرتدين جميعا الزى الرسمى.. وذاهبين إلى مدارس المنصورة ليتلقوا العلم فيها..

وقد قلت لفتحية مهنئاً بالفرح والنشوة: تصورى.. لم يكن يذهب إلى مدارس المنصورة على أيامنا قبل الثورة إلا أربعة أولاد أو خمسة فقط ومن عائلة الطوخى لا غير.. والباقون حفاة هائمون مشردون على الجسور وفى الغيطان.. الآن. انظرى.. ها هم بالعشرات يرتدون الحلل ويحملون الكتب ويذهبون إلى المنصورة محملين بالطموحات وبالأحلام.. من عاد يجرؤ على القول بأنها ليست ثورة.. وها هى المرأة. لأول مرة فى التاريخ تحصل على حقها.. لا فى الانتخاب فقط، بل ترشيح نفسها وتصبح نائبة عن الشعب كله.. فكيف أفكر ولو للحظة بعزلك عن مجال حركة الحياة بالخارج والاحتفاظ بك معلبة بالبيت.. أو بطة برية مربربة من أجل لحظات المتعة والهوى.. جارية وراعية للأولاد؟!

لو فعلت هذا فسأكون قد سلبت نفسي صدق ثوريتى وفروستى، وسيكون هذا هو عنوان ردتى!! لا.. بل سنمضى معاً.. نواصل قصتنا القدرية البسيطة الجميلة.. نصنع بالحب وبالوعى الجديد ثورة تؤكد وتدعم الثورة الأم.. ثورة مصر الكبرى!.. أبداً لن أرتد بك إلى الوراء.. بينما مصر تنطلق إلى الأمام..

٤

أنا النقطة التى تحـت البـاء!!

كان أول قرار عملى استهللت به حياتى الجديدة بعد خروجى من السجن، هو هجرى لمهنة المحاماة، تلك المهنة التى فاض قلبى بكراهيتها، وأنا أكتشف بالممارسة يوماً بعد يوم، أنى ألهث وراء عالم برجوازى قح، لا تزدهر فيه أحوال المحامى إلا بازدهار المشاكل بين البشر.. بينما أنا فى الأصل أحلم بعالم «يوتوبيا» قائم على الاشتراكية التى أساسها المحبة والتعاطف بين البشر.. وإذا كانت هناك حتمية لثمة صراعات واختلافات فلتكن على المستوى النبيل الراقى واللائق بالوجود الإنسانى وطموحاته الكونية العظمى!

وقد أعاننى على تنفيذ هذا القرار، أن مكتبى الذى سبق أن أثثته كان قد أغلق بعد القبض علىّ، ونقلت فتحية منه الأثاث ووضعته فى أحد المخازن!

تركت المهنة غير نادم ولا آسف.. راسماً مستقبلى على أن أكون كاتباً، وبالذات أديباً.. أدبا مشحونا ومبشراً بالقيم الثورية والإنسانية.

الكلمات ستكون مهنتى.. ولكن.. لن تكون أية كلمات مرسلة، بل مصاغة فى أجمل وأرقى الأشكال الفنية: القصة القصيرة، أو الرواية..

وذات يوم قد تأتى المسرحية!! مهنة ساحرة ونبيلة ياما حلمت بها من قبل، وقطعت فيها شوطًا.. بل أخذت جائزة عن إحدى القصص القصيرة أيام الجامعة!! لسوف أنفذ القرار.. ولتكن هذه هى مغامرة حياتى الكبرى.. أعيش وأتألق بها.. أو تكون مقبرتى وأدفن بها.

غير أن تحقيق هذا الحلم، أو الاختيار القائم على الإرادة، لم يكن فى ذلك الوقت أمراً سهلاً.. فقد أصبحت ـ أنا الذى كنت قبل ارتباطى بالسياسة ودخولى السجن، فرداً .. وحيداً.. طليقًا.. لا يحمل إلا هم نفسه، وشعارى المرفوع: يا أيها الضياع، ويا أيها الألم العبقرى أهلاً!! ـ أضحيت الآن رب أسرة تتكون من ثلاثة أفراد غيرى.. زوجة وطفلين صغيرين أنا الوحيد المسئول عنهم.. وإذن لابد من عمل آخر بجوار مشروع الكتابة يضمن لى دخلاً شهرياً يدفع عنا غائلة الجوع والاحساس بالمهانة!!.. فالكتابة وحدها ـ والأدب ـ خاصة كما هو معروف ـ لا يضمن لصاحبه عيشًا حتى مع أعلامه ومشاهيره.. هو مهنة الصعاليك والرهبان.. فكيف أفعلها، وقد ودعت عهد العزوبة والصعلكة، وأصبحت معلقًا من عرقوبى.. فلا صعلكة تنفع ولا رهبنة تشفع؟!

وقد كان من الممكن ألا يكون فى الأمر أية مشكلة، إذ يمكننى العمل فى أية وظيفة بشهادة الليسانس التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت مجداً يضع صاحبه فى مصاف قمم وارستقراطيى المجتمع.. غير أن الحكم الذى صدر ضدى بسنتين كان يقف حائلاً قانونياً بينى وبين أى عمل رسمى وغير رسمى أيضا.. فهو ليس أى حكم.. بل هو صك بالإدانة

فى قضية شيوعية، الأمر الذى كان مجرد ذكره فى تلك المرحلة (وكان الاتحاد السوفيتى فى أوج مجده وجبروته)، يثير الرعب لدى المسئولين في أية جهة حكومية أو حتى أهلية أفكر بتقديم أوراقى إليها!!

وهكذا، امتزج الطعم الجميل للحرية، بالطعم المر لهموم إطعام وإعاشة أسرة..!!

كما تجسمت لى فى هذا المزيج بين النقيضين.. تلك العقدة الدرامية المؤلمة فى علاقتى النفسية بعبد الناصر ونظامه: عقدة اجتماع الحب والكراهية فى آن واحد!! الحب والتقدير لسياسته الثورية المتصدية لقوى الاستعمار فى الخارج، وللطبقات الرجعية فى الداخل، والكراهية فى ذات الوقت لسياسة القهر والعسف التى تصل إلى حد التجويع التى يتبعها مع الشيوعيين وذويهم، سياسة لا رحمة فيها ولا تهادن، بل هى أقرب ما تكون إلى العمل على الإجهاز عليهم، وإن أمكن إبادتهم تماماً.. الأمر الذى كنت أتذكر معه جملة غريبة ومثيرة قالها لى ذات مرة صديقى سعد رحمى ونحن فى سجن القناطر: إن عبدالناصر إذا رأى عصفوراً شيوعياً واقفاً على شجرة، ضربه بمدفع وليس بنبلة...!

ورغم هذا، كان سعد رحمى يعلن مؤكداً تأييده لسياسة عبدالناصر الوطنية، طارحًا بهذا قضية من أخطر قضايا الصراع السياسى... قضية الصراع بين الوطنية وبين الأممية الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفيتى.. أيهما الأجدر بأن يكون له السبق فى الانتماء؟!... ورغم أن الفكر الناضج يقضى بأنه لا تعارض بين الاثنين، إلا أن المرحلة التى كانت تجتازها مصر حينذاك كانت تجهر بأن السبق أولاً يجب أن يكون

للوطنية وللاستقلالية.. وهو ما انتهى إليه أخيراً موقفنا.. بعد تقلباتنا وتخبطاتنا المأساوية!!.. أصبح عبدالناصر الوطني يسير أمامنا، ونحن وراءه، محتفظون رغم هذا بكبريائنا الدفين، وبإحساسنا المتفرد أننا - رغم كل أخطائنا وعثراتنا - نملك شيئاً لا يملكه الآخرون، الحلم والإيمان العميق بالعدل المطلق، وبالإنسان الأعلى القادم يومًا، بذرة الأمة الإنسانية الواحدة.. وفي ذلك الاطار الدرامي المتفوق، لقى «شهدى عطية» الشيوعى مصرعه فى السجن وهو يهتف بحياة عبدالناصر.. رمز التحرر والاستقلال الوطنى!!

في ظل ذلك الشعور المؤلم والمتنامى بالتناقض والازدواجية.. بين عودتى لإيمانى بالثورة وحماسى لها، وبين استمرار معاقبتها لى بعد خروجى من السجن بمنعى من العمل، عشت فترة من أقسى فترات حياتى.. ذلك أن «الحرية» التى كانت مصدر سعادتى بعد السجن انقلبت إلى مصدر للتعاسة، وأنا أجد نفسى، منذ أن أستيقظ فى الصباح الباكر، لا عمل لى، بل غارقًا في البطالة طول النهار، أتفنن فى قتل الوقت بالتسكع فى الشوارع والميادين وعلى المقاهى وركوب الترام بلا هدف، أتأمل البشر والجموع، وأعد طوابق العمارات العالية، وأحيانا كنت أخشى أن أكون قد أخطأت العد فأعدها من جديد، تمامًا مثلما كنت أفعل أيام الضياع والتشرد فى أيامى الأولى بالقاهرة!

شعور محبط ومهين كان يشعل روحى بالغضب وبالثورة.. ولكن.. على من أثور الآن؟!.. وعلى الفور كان يلوح لى وجه «عبدالناصر»

بملامحه وانفعالاته الحادة المتعاقبة مثل أمواج بحر هائج لا يوحي بغير مزيد من المعارك والعواصف القادمة!

«سجنتني يا عبد الناصر أنت ورجالك حين كنت وزيراً للداخلية والآن، وأنت رئيس للجمهورية، تفعل بي أنت ونفس الرجال، ما هو أقسى من السجن.. منعي من العمل.. قانوناً وإيحاء أيضاً.. فمن ذلك الذي يعرف قصتي ثم يغامر بقبولي في أي عمل.. مع أنك لو عرفت حقيقة مشاعري الآن نحوك، وكيف أصبح يحلو لي أن أنسج منك أسطورة كان الشعب يتمناها وينتظرها».

غير أني كنت أحس به دائماً مشغولاً عني وعن همومي بمعاركه وصراعاته الكبرى العصيبة على مستوى الوطن في الداخل، والعالم في الخارج.. فقد كنا أيامها نقترب من فترة ١٩٥٦، بمواجهاتها التاريخية وتحولاتها الخطيرة مع الغرب الاستعماري.. والتي كانت ذروتها تأميم قناة السويس والتي تبعها العدوان الثلاثي، فبدت مشكلتي أو أزمتي الشخصية ما هي إلا شظية صغيرة تافهة بجوار الهم الوطني الأكبر.. وأن عليّ إن كنت ثورياً ومناضلاً حقاً، أن أحل مشكلتي بنفسي.. أن أحول النقمة إلى نعمة.. أجل... فلماذا لا أستغل هذا الفراغ الهائل والقاتل الذي أعيش فيه، في بناء نفسي وتحقيق مشروعي الذي عزمت عليه بعد تركي المحاماة: أن أكون كاتباً؟! إنها لفرصة ذهبية تقدمها لي الأقدار الآن، وقد لا تتاح أبداً لي فيما بعد.. ألا يكون ورائي في العالم أي شيء يجذبني ويناديني إلا أن أكتب.. أقرأ وأتأمل وأكتب..

تلك هى الحياة المثالية التى يتمناها أى كاتب.. وها هى - جبراً أو اختياراً - تتوافر لى .. هذا هو الامتحان الحق والحاسم والكاشف لمدى جديتى، وموهبتى.. ومعى - للحظ - زوجة محبة وبسيطة جبلت بالفطرة، وبتربية الأم أيضا، على القناعة والرضا بأبسط الأشياء.. مدركة وواعية بأبعاد أزمتى التى باتت أزمتها. تعيش كل كلمة وكل جملةأكتبها.. بل تكاد تحفظها.. والأروع من كل هذا، تلك النعمة الربانية التى أنعم بها معها.. هذه الابتسامة المرتسمة على شفتيها وهى صاحية من النوم تستقبل اليوم والحياة بها. أجل.. ما أجمل أن تكون افتتاحية يومنا بابتسامة من رفيق عمرنا، فتهون الصعاب ونخرج إلى الحياة مليئين بالرضا.. وبالثقة والحماس للحياة!!. فأخذ أوراقى وقلمى وأهبط متجهاً إلى أحد الأماكن المفضلة لى على شاطىء النيل.. وكثيراً ما كنت أصل إليه، وهو كازينو يطل على النيل قريب من كوبرى الجامعة، فأجده لايزال مغلقاً وكراسيه مكومة فوق بعضها البعض، وكذلك المناضد، فأعد لنفسى جلسة بسيطة ومريحة، وأنكب على الكتابة حتى يأتى العاملون ومعهم تحية الصباح وقهوة الود الجميل شاعراً من أعماقى بالامتنان للحياة.. داعياً الرب أن يفتح علىّ وتخرج القصة منى جميلة ومضيئة مثل دنيا الصباح.. مثل صفحة النهر الجارى، مهما كان موضوعها حزيناً ومليئا بالأشجان!

وقد خرجت من هذه الفترة بعدة قصص استوحيتها وبشكل أساسى من ذلك التناقض الذى يكتنف حياتى، فصورت دراما البطالة والعجز فى حياة الثورى المتقاعد مع اشتياقات الرغبة للخروج من كفن ذلك

الحزن التاريخى الطويل الذى يطبع ويحدد طعم شخصيتنا.. وكل حياتنا!! (قصتا: الصورة .. والصيد).

كما عبرت عن الروح الجديدة المعبرة عن الرغبة المتأججة فى التغيير، والواثقة من نفسها، رمن تفردها وتفرقها.. وعن تلك الروح الإنسانية المقهورة بفعل قوى أكبر وأعتى منها، ومع هذا فهى لا تفقد أبداً كبرياءها، بل تندفع أحياناً بالفطرة ـ حين تواتيها الفرصة ـ وتقوم بأعمال عظيمة!!

وقد كان خير مثل لهذا قصة «داود الصغير» التى كتبتها وأنا جالس فى شرفة بيت «عبد الرحمن الخميسى» المطلة على حديقة الأزبكية، ذات ضحى فى انتظار أن يصحو من النوم ليصحبنى إلى أحد أصدقائه الكبار أملاً فى فرصة عمل لى!!.. وأذكر أن هذه القصة قد خرجت منى ـ فى جلسة الانتظار هذه ـ بإنسيابية وبلا أدنى مجهود.. مثل سحابة كانت ممتلئة إلى حد التضخم فانفكت مطراً وسيلاً دفاقاً!!

ويظل لهذه القصة بالذات ركن خاص فى القلب وفى الذاكرة، ذلك أن أول مجموعة قصصية أصدرتها كانت تحمل أسمها: داود الصغير.. كما رسم غلافها الفنان الحبيب العظيم: حسن فؤاد!!

كما أنى فوجئت بعد نشرها أول مرة فى جريدة المساء بخطاب من روما، مرسله الأستاذ يوسف حلمى المحامى، ورئيس حركة السلام المصرية، ومؤسس جمعية أصدقاء السيد درويش، والذى كان قد اعتقله عبدالناصر لفترة صغيرة، انطلق هارباً بعدها إلى روما منتظراً تحسن

الأحوال، فوجئت به يكتب لى معبراً عن فرحته وسعادته بهذه القصة.. وأن الطفل «داود» هذا هو الروح المصرية الباقية السارية بنبلها وشموخها، رغم المحن التى تواجهها.

ويا إلهى على السعادة التى غمرتنى، والثقة بالنفس التى تدفقت بها شرايينى.. فها أنا كاتب مايزال فى البداية ومع هذا فكلماته تهز وجدان زعيم سياسى كبير مطارد، فيجلس فى الغربة ويكتب لى سعيداً وممتناً.. مترقباً بكل الحنين يوم العودة والتلاقى مع الأحباب!!

كان أعظم ما خرجت به من هذه الفترة هو الإحساس الواثق العميق بأننى أخيراً وجدت نفسى، وأننى قد بدأت حقًا وعمليًا فى شق طريقى.. طريق لم يوجهنى أحد إليه أو يفرضه علىّ، بل هو منبثق ونابع من عمق أعماقى، كما المياه الجوفية المتفجرة ذات صيف حار فى بقعة صحراوية... واستعدت كلمات «جبران» العذبة الأسرة: إن كآبتى هى فجر لذاتى!.. وكذلك قصيدة ناظم حكمت: إن أجمل الأيام هى التى لم تأت بعد... وأجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد.. وأكملت لنفسى بسعادة: وأجمل القصص لم أكتبها بعد!!

وجرى منى قلبى فى الشوارع والحدائق وبين الناس بالفرح والأمل.. ولم يكن قلبى وحده هو الذى يجرى، بل كان قلب فتحية أيضاً.. فقد كانت أول من قرأ مسودات هذه القصص، وأبدت إعجابها وفرحها بها... كما كانت تعيش معى معظم القصص وهى لاتزال أفكاراً جنينية لم يكتمل تخلقها بعد.. وتتابع نموها والاطمئنان عليها.. وما

أكثر ما كانت تشارك بخاطرة أو بلمحة أو بملحوظة ذكية أخذ بها فتثرى القصة وتقوى من بنيانها وواقعيتها الحية، كما كانت تحتمل وتستوعب توتراتى وانفعالاتى العصبية المتقلبة والمقترنة بفترة الحمل الفنى!! ثم بعد أن أنتهى تماماً من كتابة القصة تقيم احتفالاً صغيراً ونشرب نخبها.. نخب ميلاد قصة أصبحت إضافة جديدة لحياتنا!!

ومن تلك الأيام، بقيت هذه اللحظات - لحظات النجوى والمعايشة المشتركة لعالم الخلق الفنى، هى أساس توحدنا النفسى والعصبى، وأكاد أقول: وجهاز التنبؤ أيضاً المسمى بالحاسة السادسة عند كلينا.. وأن أية أزمة أو تصدع أو شرخ خطير فى بنيان حياتنا، لم ينقذه ويرممه غير إحساسنا الفنى المشترك الأول هذا، والذى تأسس بيننا وتأصل فى تلك الأيام الأولى التى غامرت وبدرت فيها حياتى للكتابة.. وكانت هى شريكتى الروحية فيها!!

وحين أرجع إلى بعض مذكراتى التى كنت أكتبها فى تلك الفترة، أجد هذه السطور التى تملأ قلبى بالفرح واليقين بأنه ما كان لى فى الحياة طريق آخر غير الكتابة.. وأن حسى كان مصيباً حين غامرت ووهبت عمرى بكل الصدق والإخلاص له.. وأنه أصبح صلاتى وخشوعى وتمردى وجنتى الأرضية.. ياله من إحساس فى ذلك الزمن البعيد... وما أصدقه من تعبير:

وإن الكتابة لتتلاقى تمامًا مع روحى.. ذلك أنها تضعنى ومن اللحظات الأولى فى حالة نفسية متسقة مع تكوينى.

هى أولاً: تفصلنى عن الواقع وتعلو بى عليه، وتمنحنى الاحساس بالسيادة والتسامى والتفرد.

وثانياً: لأنها تضعنى فى حالة استنفار ويقظة واستعداد دائم لمواجهة وملاقاة الخطر.. مثل ذلك الغواص الذى قبل أن يلقى بنفسه إلى الأعماق لابد أن يكون مجهزاً بأكبر قدر ممكن من الأوكسجين لكى يتجنب الموت اختناقاً وغرقاً.

ثالثاً: فيها إنهاء لمأساة البحث عن عمل ومهانة الدوران على أبواب المؤسسات طلباً لعمل و... وظيفة بالليسانس لله يا محسنين!!

والأهم والأخطر من كل هذا، هو العثور على بديل لحلم مرموق كان من أجل التغيير عن طريق المنظمات السرية، والذى فشل أو وصل لنهايته ولم يعد منه للأسف أية جدوى عملية حقيقية!!

الكتابة الآن بالنسبة لى باتت هى هذا البديل.. هى الحلم وهى النضال الحقيقى، وهى التطهير لكل الجراح على المستوى الشخصى والمستوى الوطنى والإنسانى العام!!

وفى نفس المذكرات عن نفس الفترة أيضًا، تقع عيناى على هذه السطور، تحت عنوان فرعى كإشارة للتذكير: «تابع حالة الكتابة»!

«... وربما يكون أروع وأغرب ما فى الكتابة كفعل وكحالة، ليس هو ذلك الوجه الذى يراه الناس من حروف وكلمات مكتوبة، وإنما هو الوجه الخفى الآخر.. ذلك العالم الذى تموج به أعماق روح الكاتب وهو

يدخل حالة الكتابة فيجد نفسه ممسوساً أو مسكوناً أو معشوقاً أو صريعاً لها!! هى حالة تضعه فوق مستوى الطبقات الفضائية التى تكون الحزام الأرضى.. حالة طيران إلى ما بعد مناطق الجاذبية الأرضية، رغم أنه قد يكون فى تلك اللحظة راقداً فى حجرة أو قابعاً فى زنزانة.. وهذا هو أروع ما فى الكتابة: الأحساس بروعة الخيال والتخيل.. ذلك الذى يتيح لك قدراً لا نهائياً من الحرية والشجاعة وعدم الخوف من أى شيء.. من أعراف وتقاليد ومعتقدات وقوانين.

إنك تُبدع وتخلق وتتمرد وتثور وأنت فى أعماق السكون، ثم إذا بهذه الحرية تزحمك وتحس بها تكاد تشق صدرك لكى تنبثق وتتجسد وتتثبت على الورق فى شكل حروف وكلمات تنطق بكل المعاني وكل الرموز.. وهنا تأتى مرحلة الوجه الآخر للكتابة.. هى النبع المتفجر من خفايا الأعماق، والذى يعجب منه ويعجب له حتى الكاتب نفسه.

تأتينى الآن هذه الجملة لابن عربى فى «فتوحاته» الشهيرة.

قيل للشّبلى: أنت الشبلى؟!

قال: أنا النقطة التى تحت الباء!!

ولم أفهم حتى الآن تحديداً ما يعنى بها.. ومع هذا فمازالت تعاودنى بين الحين والحين وأرددها كأغنية مثيرة وساحرة تؤجج فى نفسى حب هذا الفن العظيم. فن الكتابة. ذلك العالم الساحر المكون من نقط وحروف!!

٥

صرخة الأرض وحلم النجوم!!

ولاشك أن إحدى النعم الكبرى التى شجعتنى وقوتنى بعد خروجى من السجن على أن أحسم أمرى وآخذ طريق الكتابة بكل مشاقة، هى تلك الأفدنة القلية التى ورثتها عن أبى، فقد أعطتنى، بالمقابل لذلك الموقف الصارم بمنعى من العمل قدراً نسبيًا من الإحساس بالأمان، وكفتنى أنا وعائلتى الصغيرة شر الإحساس بالعوز والإحتياج..ذ لك الشعور الذى كان يلوح لى شبحه الكئيب أحياناً فأتذكر معه جملة للشاعر الإنجليزى «لورد بيرون»: الفقر باب منخفض يجبر الداخل فيه على أن يحنى رأسه!

جنبنى ذلك الإرث رغم محدوديته أن أحنى رأسى فى أية لحظة لأى إنسان، وعشت طوال الأزمة مرفوع الرأس بفضله، وصحيح أن مبلغ الإيجار السنوى لهذه الفدادين الخمسة لم نكن نحصله إلا على شكل أقساط لم يكن يدفعها الفلاحون المستأجرون إلاّ بالمطاردات وبشق الأنفس.. ألا أنه على أية حال كان يغطى ضروريات الحياة.. ولهذا أيضًا وجدتنى تلقائيًا أفكر، ولأول مرة، فى بيع نصيبى من الأرض، وكنت أفعل ذلك على استحياء قطعة بعد قطعة.. أملا أن تنحل الأزمة

سريعاً، وتترسخ قدماى فى دنيا الكتابة ويصبح لى دخل ثابت منها! غير أن فكرة بيع الأرض هذه لم تكن تتم إلا بعد خوض معركة هائلة ومؤلمة مع أمى التى كانت تحس مع كل قطعة أرض أشرع فى بيعها، أنى أنزع أو أسلخ قطعة من لحمها وكيانها لأبيعها! ومازلت أذكر حس الفاجعة الذى كان يرعش قلبى مع كلماتها وصرخاتها التى كانت تصل إلى أطراف القرية وهى تعلن على الملأ استنكارها واستبشاعها لعملية البيع هذه، وأنى بهذا أقترف جريمة كبرى وذنبا لا يغتفر: الأرض دى هى اللى عملت لكم قيمة فى البلد، ولولاها كان زمانكم جرابيع سارحين متلطعين فى الحوارى وعالجسور.. الأرض دى هى اللى ربّتك وعلمتك وجوزتك وأنت لسه تلميذ، وهى اللى فتحت لك المكتب لما اشتغلت محامى. بعد ماقعدت سنتين تحت التمرين ياحضرة الأستاذ.. إذا كنت ناسى أفكرك.. تيجى النهارده كل ما تتضايق شويه تجرى تقطع منها وتبيع؟! شقا «محمد حمزة» وعرقه طول السنين ترميه بأرخص الأثمان!!

ولم يكن يعذبنى حقا فى هذه المناحة غير دموعها التى كانت تسح من عينيها الموجوعتين طوال عمرها. كنت أحس بالاشفاق عليها، وبالذنب تجاهها.. أما «الأرض» نفسها فقد كان شعورى نحوها مناقضا تماما لشعورها!.. أبداً لم أكن أحس بثمة كارثة أو جريمة أقترفها وأنا أبيع فيها.. كان شعورى بملكيتى للأرض باهتا وضعيفا.. وكان ذلك شيئا طبيعيا، فمن لا يبذل جهداً فى امتلاك الشىء، يهون عليه فقده. وكنت أفكر فى سرى: فلأفترض أنى ولدت مثل عشرات ومئات

الملايين فى هذه الدنيا لا يملكون فى الحياة سوى معجزة الحياة. ومجرد الوجود فى هذا الكون العظيم.. فهل أنا قادر على الوقوف فيه بذاتى؟!

فضلا عن أن المبدأ الأساسي - الاقتصادى والإنسانى - فى النظرية التى بت أنتمى إليها، يقوم على تمجيد الملكية العامة وإدانة الملكية الفردية التى تأتى الإنسان دون مجهود يبذله، وإذن لو بعت هذه الأرض الموروثة فإنما أتخلص من لعنة أو نقيصة: وأنى لا أبيعها لألهو بها، بل لأحل أزمة خانقة تحاصرنى أنا وأسرتى!

ومع هذا، فقد كنت ألتمس لها العذر فيما تحس وفيما تقول وتصرخ.. ولكن ما العمل؟ كانت دموعها بقدر ما تؤلمنى إلى حد الوجع والخجل، تشعرنى بالعجز وبالاستفزاز فأقابل صرخاتها بصرخات مماثلة أو أقوى: كلامك ده روحى قوليه للحكومة اللى واقفة فى وشى ومنعانى من أى شغل وأنا معايا الليسانس.. أنا مرة من يأسى فكرت اشتغل بالتوجيهية فى شركة كانت عاملة إعلان.. وخبيت أن معايا ليسانس.. برضه رفضوا. أعمل إيه أكثر من كده. أمد إيدى.. أقول لله يا محسنين.. وإلا أستعين بحتة من الأرض اللى ربنا أنعم بها علينا؟! هو مش برضه أنت اللى كنت دائما تقولي: اللى مافاتولوا جدوده، يالطمه على خدوده!

- تبقى تحافظ عليها، مش تبيعها.. يا ابنى ياضنايا استحمل شويه، وتضيق أنفاسي ويختنق حلقى بالدموع: أستحمل ازاى بعد سنتين

سجن، وأنا ماعدتش لوحدى.. أنا أصبحت مسئول عن بيت وأطفال وأسرة.. أرجوك يانينه أرجوك.. ساعديني أخرج من أزمتى ورأسى مرفوعة.. أولاد محمد حمزة لازم يعيشوا رافعين راسهم بفضل الأرض اللى سابها لهم أبوهم.. وإلا تبقى إيه أهمية الأرض دى إذا مافادتش فى حل الأزمة؟!

بعد هذه المعارك والمناشدات القلبية والعاطفية منى استسلمت أمى أخيراً لعملية البيع، ولم تعد تند عنها كلمة أو إشارة اعتراض.. وإن كنت أحس بأعماقها تنزف حزنا في كل مرة أذهب فيها إلى ميت خميس لكى أبيع قطعة أخرى من الأرض.. أعود بثمنها إلى القاهرة.. وكنت أعزيها فى سرى وأعزى نفسى أيضا أنى ماض بجد وحماس فى مشروع حياتى الجديد.. أن أكون كاتبا.. روائيا وقصاصا بالذات، ولسوف تأتى أيام الحصاد.. وقد يطول الطريق.. ولكنى واصل ذات يوم.. وعلى ألا أفقد الصبر وروح الأمل! (وأبتسم فى سرى) إنك لم تعلمى يا أمى أننا - أنا وفتحية - تحت وطأة الأزمة بعنا بعد زواجنا بأسابيع قليلة «أوضة السفرة»، بحجة أنها تشغل حيزاً كبيراً من شقتنا الصغيرة، وعشنا بثمنها فترة.. وكان ثلاثين جنيها!! ونفس الشيء فعلناه بعد قليل «بالشبكة» الذهبية التى ألبستها أنت بنفسك لفتحية يوم الخطوبة - استبقينا فقط الدبلتين، وبعنا الإسورة الثعبان والغوايش الأربع، وعشنا بثمنها، نحن والأولاد، أياما هنية طيبة وطليقة!

لكم أشكرك يا أبى.. يامن وضعت بذرتى فى رحم أمى ثم ناداك «الحق» فرحلت عنا وأنا لا أزال جنينا عمرى ستة أشهر.. رحلت يا أبى

دون أن أراك، والأقسى والأغرب أنك لم تترك خلفك صورة فوتوغرافية. أتأملك منها وأناجيك وأطلب العفو منك أنى أبيع فى أرضك. بل إنى أتصورك سعيداً بأنى ألجأ لهذه الأرض فى وقت الشدة، وأستعين بها على المضى فى الطريق الذى اخترته لحياتى.. طريق الكتابة.. فلتعتبرنى يا أبى أرضاً.. نوعا من الأرض.. صانعها فى الأصل هو أنت.. ذراتها وجينات طميها جبلت منك أنت وستبقى منسوبة إليك ومعرفة باسمك: محمد حمزة!!.. أجل يا أيها الروح العظيم اعتبرنى بديلا للأرض المباعة.. ولتحل عليها بركاتك ودعواتك فتنبت أعظم وأجمل الثمار (وفى خلدى: أجمل القصص والروايات أكتبها)!

وحينذاك كانت العاصفة تهدأ فى نفسى ويتراجع الإحساس بالذنب وتصفو روحى وتمتلئ بالرضا وقد ضمنت للبيت ولفتحية والأولاد ما يوفر لهم طيب العيش لفترة، فانسل وحدى فى هدوء من البيت، حاملا كراستى وقلمى.. ونداء ثمة قصة جديدة، أو أخرى لم تكتمل بعد يعاودنى ويجذبنى.. وأقصد مكانى المفضل على شاطىء النيل وأستغرق فى الكتابة.. هكذا يوما بعد يوم، إلى أن جاء صباح وجدتنى فيه أخرج بلا ورق ولا قلم... برد حماسى وخفت حرارة اندفاعى .. فإلى متى سأظل أكتب وأكتب ثم أضع ما أكتبه فى الدرج دون أن يقرأه أحد سوى فتحية، وأحيانا صديق عمرى الذى خرج حديثا من المعتقل «عاصم النبراوى» ؟! لابد من نشر هذه القصص كى يكتمل الإحساس بها.. ولكى تصدر الشهادة بأننى كاتب حقا وموهوب!

فلمن أذهب بها؟! ومن هو رئيس التحرير الذى يمكن أن يتقبلنى ككاتب يحمل فوق جبينه حكما من إحدى محاكم الثورة بالسجن عامين.. فى قضية هى فى عرف تلك الفترة جد خطيرة وتدعو إلى الحذر؟! أم أخفى الموضوع ولاداعى أبدا لذكره وأنا أتقدم بقصصى؟

●●●

هنا ثمة حقيقة هامة يجب أن تقال، أننى حتى ذلك الوقت، لم أكن قد خلعت نفسى تماما من عالم التنظيمات السرية، وماكان يمكننى أن أفعل هذا ببساطة.. وبمجرد خروجى من السجن.. ليس من المنظور العقلى، بل أساساً النفسى.. فخمس سنوات متوالية عشتها فى دنيا هذه المنظمات بكل الإخلاص وكل الولاء وكل التفانى، قد أكسبتنى عادات وسلوكيات ومنهجيات وصداقات وذكريات وأغنيات ومثاليات أصبحت أمضى بها باللا وعى، أو بقوة دفع القصور الذاتى.. غير قادر على الخروج الشامل والفجائى من دائرة جذبها المغناطيسى التاريخى، وإلا فالسقوط فى هوة الفراغ المطلق هو المصير الذى ينتظرنى!

وقد كان ذلك شيئًا طبيعيًا ومنطقيا لمن يدرك حساسية النفس الإنسانية إزاء التقلبات العنيفة التى تمر بها.. وما أصعب أن يهجر المرء طريقًا رأى فيه ذات يوم الرجاء والاخلاص والحلم بتحقيق المثل الأعلى المنشود!.. أجل فمهما كانت الأخطاء والخطايا والإحباطات التى صدمتنى فى هذا الطريق، فقد التقيت وصاحبت وصادقت فيه هو نفسه - بشراً كالضياء كانوا يبددون بنبالاتهم وأرواحهم الشامخة المتصدية

العظيمة ظلمات وكآبات السجون.. وأن جوهر الدراما فى نوعية نضالنا السياسى والإنسانى، والذى لم أدركه بوضوح إلا أخيراً، هو أننا اخترنا ونذرنا أنفسنا لمثل أعلى دون أن نكون قد تأهلنا جيداً له، ولا بلغنا مستوى النضج اللائق للتعامل معه!.. وإن دراما البطولة ومأساويتها تكمن فى المسافة الشاسعة بين الإيمان بالفكرة والحماس لها، وبين القدرة على تحقيقها.. وبلوغ قمتها التى نروم الوصول إليها.. جيلا بعد جيل.. ومرحلة بعد مرحلة... دون كلل أو ملل.. إنها أغنية الأعالى الخالدة.. والتى تغنى بها شاعرنا العظيم «المتنبى» منذ مئات السنين:

إذا غامرت فى شرف مروم..

فلا تقنع بما دون النجوم..

فطعم الموت فى شىء حقير..

كطعم الموت فى شىء عظيم..

هكذا كانت نوعية إيماننا.. ولقد اندفعنا وطرنا ثم وقعنا ثم نهضنا ثم كبونا ثم صعدنا ثم تدحرجنا.. دون أن نفقد أغنيتنا.. ودون أن ييأس «سيزيف» العظيم حامل الصخرة!!

كما أن حدثاً تاريخيا هائلا بمقياس تفكيرى فى تلك الفترة قد وقع وأعلن عنه بعد خروجى من السجن، هو توحد معظم المنظمات الشيوعية واندماجها فى تنظيم واحد أطلق عليه «الحزب الشيوعى المصرى الموحد».. وما أكثر ما تمنيت أن يحدث هذا وأنا فى السجن

بعد أن عانيت وعاينت الآثار التدميرية لظاهرة الانقسامية المتفشية داخل الحركة الشيوعية والتى تمثلت - أخطر ما تمثلت - فى تخبطاتها الفكرية وتحليلاتها السياسية، الأمر الذى انتهى بها إلى إعلانها الحرب على الثورة المصرية التى كنا جميعا نحلم بها..!

ها هو الحزب الشيوعى الجديد الموحد يعلن وأحد أهم خطوطه السياسية تأييد ثورة ٢٣ يوليو.. وبقيادة جمال عبدالناصر بالذات.. ناصر «باندونج» وناصر «السلاح الروسى»، وناصر «الحياد الإيجابى»، وناصر «توزيع الأرض على الفلاحين الفقراء»، وناصر «المجمعات الصحية والزراعية ومد خطوط المياه النقية وأبراج شبكة الكهرباء من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.. «كل هذا فى فترة قليلة جدا أخذ شكل الظاهرة المثيرة والشبيهة بشلال هادر كانت ثمة صخور هائلة تعوقه وإذا به يتجاوزها ويندفع بكل ما يملك من طاقة وطموح وحلم بالبطولة والزعامة! فرضت الظاهرة نفسها ولم يعد هناك ثمة شك فى اعتباره قائد ثورة تحررية ذات محتوى اجتماعى.. وإن كان الحزب الجديد مع هذا له تحفظه ومطلبه فى قضية الحرية والديمقراطية! وكنت أفكر جاداً مع نفسى: أية حرية وأية ديموقراطية بالضبط أيها الرفاق.. وكيف يمكن أن تكون عمليا فى مثل هذه الفترة؟!.. وهل لو كنا الآن فى السلطة، كنا سنطلقها .. حرية للجميع. سداح مداح.. لليمين ولليسار، وللأصدقاء والأعداء على السواء؟! وهل يمكننا بهذا ضمان تحقيق سيطرة الطبقة العاملة، والتى ينص عليها الأب الروحى فى دستوره: دكتاتورية البروليتارية؟!

ثم.. ألم يكن ذلك هو نفس منهجنا فى العمل داخل المنظمات السرية: انضباط حديدى فى السلوك، وطاعة مطلقة فى تنفيذ الأوامر والقرارات، دفاعا عن النفس فى مواجهة بطش السلطة حينا، ومؤامرات البرجوازية والإقطاع حينا آخر، وحينا ثالثا ذلك التيار المتستر بعباءة الدين، والذى انتهى إلى أسلوب الاغتيال وإطلاق الرصاص على عبدالناصر فى «المنشية» حينما لم يذعن لآرائهم ومخططاتهم ؟!

فلنعترف بأن الديموقراطية المثالية هى حلم بعيد المنال، تفصلنا عن تحقيقه قوى وأوضاع تاريخية مزمنة راسخة كرواسى الجبال، أخطرها واعتاها هو نظام الملكية الراسخ والمقنن منذ عهد الألبانى محمد على الذى ما أن صعد إلى القلعة وأمسك بالحكم حتى مسح أرض مصر، ثم كتبها كلها باسمه.. وبعد ذلك أخذ يستقطع منها ويهب لمن يشاء.. وهكذا تواصل النظام عبر كل حكام الأسرة العلية حتى أيامنا هذه قائما لايزال على النصف فى المائة من الأسياد الملاك، والتسعة والتسعين والنصف فى المائة من العبيد والأجراء المستغلين!!

وإننى لدائم التفكير فيما لو كان قد تحقق ذلك الاتجاه الذى تبناه الرئيس «محمد نجيب» بإعادة القوات المسلحة المصرية إلى ثكناتها.. يعنى إنهاء الثورة، وإجراء الانتخابات العامة تحقيقا لمبدأ الديموقراطية.. أما كان كل شيء قد عاد كما كان قبل أن تنفجر الثورة ؟!

لقد كان ولايزال إحساسى بأن قوى اليمين والرجعية كانت هى التى ستنتصر فى هذه الانتخابات، ومن ثم كان سيئول إليها الحكم من

جديد، ومن يدرى، فربما كانت قد استقدمت «فاروق» من منفاه ونصبته على مصر ملكا من جديد (*)!

ها هو تيار عبدالناصر يندفع مزعزعا تلك الأوضاع التى طلعت الشمس عليها وغربت مئات بل آلاف السنين.. بقوة زلزالية تاريخية كامنة ينسف ثباتها وتحجرها.. ينزع الأرض قسراً من السادة الاقطاعيين المتخمين بالوراثة، ويعطى منها للفقراء الكادحين الغلابة.. ويقيم الجامعات الكبرى فى عواصم الأقاليم ليحقق فرصا أوسع للعلم والاستنارة لأبناء الشعب البسطاء.. ليصبحوا فيما بعد القاعدة العريضة الواعية المستنيرة التى تشارك فى الحكم وتقرير المصير؟! وغير هذا الكثير.. فكيف لا يحتل حبه قلبى، رغم أنى مازلت حتى الآن بلا عمل.. مغلبا عواطفي الوطنية العامة على عواطفى الشخصية!

كنت جد سعيد وأنا أتأمله وأتابعه كظاهرة منعشة لكل الحياة فى مصر. أصبحت أرى فيه البطل المرتجى.. وفارس الحلم المنشود.. الذى يخوض المعارك السياسية الهائلة المتوالية والمختزنة فى ضمير وأحشاء الأمة والشعب مئآت وآلاف السنين!

وما أعظم أن يكون الثائر مدعما بقوات مسلحة تعزز من قوته وثقته بنفسه وتكون سنده وظهيره فى كل حرب يدخلها! والأعظم أن تكون هذه القوات هى الجيش المصرى الرسمى ذاته.. المكون من صلب ونخاع الشعب المصرى!

---

* وهو ماحدث فى الثمانينيات فى السودان، حين أعلن اللواء الثائر «سوار الذهب» حول مجلس قيادة الثورة، ودعا إلى إجراء انتخابات عامة فاستولى اليمين الدينى على الحكم بقيادة الترابى والبشير.

دعنا من هؤلاء الذين يعتبرون اشتراك الجيوش الوطنية الرسمية فى حماية معارك التغيير الاجتماعى عيبا ونقيصة ثورية! هى فذلكات وشقشقات ببغاوات تردد نصوصا مترجمة استهوتها دون أن تفهم صلب مرماها! فما أكثر ما استبعدت وحوربت عبر التاريخ الحديث فكرة تكوين جيش مصرى، حتى نجحت وتحققت أخيراً.. ولكن عبر ملحمة نضال طويلة ورهيبة جديرة بالتسجيل.. وبالإنشاد أيضا!!

الآن يبدأ واحد من أروع مواسم الحصاد . ها هو عبدالناصر يخوض - بمساندة هذا الجيش وحمايته - معركة وطنية جديدة - بعد معركة إجلاء الانجليز - هى معركة تحرير الشعب المصرى من قبضة ذلك الأخطبوط الثلاثى الجهنمى الرهيب! الفقر والجهل والمرض!

فهل كان حقا يمكنه إعلان الحب على هذا الوحش التاريخى المثلث دون أن تكون هذه القوات الوطنية المدججة بالسلاح واقفة بكامل عدتها ويقظتها خلفه؟! بالطبع مستحيل!

وغمرنى الإحساس بالتفاؤل وباسترجاع الثقة فى صدق قانون التطور القائل بأن حركة التطور، حتى لو ارتدت خطوة إلى الخلف، فسرعان ماستندفع خطوات إلى الأمام. وأن تجربة السجن بكل آلامها وإحباطاتها قد صهرتنى وانضجتنى وأخرجتنى من حالة البوهيمية واللامبالاة التى كنت مضيعا فيها، إلى حالة من الوعى والإدراك والحس اليقظ الدائم بالمسئولية لا عن نفسى وأسرتى فقط، بل عن وطنى كله، بل الإنسانية جمعاء!

وتصاعدت درجة التفاؤل، فتصورت أننا، بفضل قيادة هذا الرجل الحازمة، والخطوات الثورية المتوالية التى تقطعها الثورة.. مع رفع القبضة الحديدية عن الشيوعيين وحزبهم الجديد الموحد، تصورت أن عصر الاشتراكية الذى كنا نحلم به ونكافح من أجله، قد بات على الأبواب.. وأن علينا ـ أنا وفتحية ـ ألا نحمل هم تربية الولدين، فلسوف فى ظل الاشتراكية نجد لهما الضمان والأمان.

وكانت فتحية بجوارى فقلت لها: هل تذكرين يا فتحية.. أول مرة أنشدت لك فيها قصيدة ناظم حكمت... ونحن نبحث عن مأوى لحبنا فى الشوارع: إن أجمل الأيام هى التى..

فأكملت هى على الفور: هى التى لم نعشها بعد.. وأجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد..

وأكملت أنا أيضا: وأجمل البحار هى التى لم نرها بعد.. وأجمل الأطفال هو الذى لم يولد بعد.

ولحظتها أمسكت بذراعيها وقلت.. ناظراً فى عينيها: أنا أريد هذا الطفل الذى لم يأت بعد! أريده من كل جوانحى!

كان احتياجا نفسيا وتأكيدا للوجود وللعودة إلى الحياة!.. كما كان رمزاً وتأكيداً لشعورى بالتفاؤل.. وأنه كما أن مصر تولد من جديد فالمستقبل جميل والاشتراكية قادمة... وها هو عبدالناصر يسير على الطريق ويمد يده للاشتراكيين.. فلنعمر الحياة الجديدة بأطفال جدد ولسوف يكونون أجمل وأروع الأطفال!

●●●

تلك كانت فترة من حياتى صنعت لها إطاراً خاصا بها، ولم تتكرر بعد ذلك أبداً بمشاعرها وأحاسيسها القائمة على الرضا والتوافق والاستبشار بالغد.. وأن كل شىء فى جبهة الثورة.. تلك الجبهة الجديدة غير المعلنة بين عبدالناصر والشيوعيين ممثلين فى حزبهم الموحد الجديد.. مستفيدين جميعا بتجارب وأخطاء الماضى.. وأن المفروض أن تزداد هذه الجبهة قوة وعزيمة ووعيا..

فجأة: إذا بالسيد الميكروب الأزلى الكامن فى الخفاء يعاود الظهور ويشعل الفتيل تهيئة لانفجار جديد.. ومأساة جديدة!

●●●

كنا لانزال فى الصباح الباكر، حين فوجئت بعاكف يأتى لزيارتى وأيقنت من التوقيت، ومن ملامحه الجادة ونظراته الشاردة أنه قادم فى أمر يخص التنظيم الجديد، الأمر الذى لم يحدث منذ خرجت من السجن.. وإذا به أول ما جلس يخبرنى بأنها كانت تجربة خاطئة ومتعجلة.. وأنها قامت على أساس غير مبدئى!!

- أى تجربة هذه؟!

- تجربة الوحدة بين المنظمات وإعلان ما يسمى بالحزب الشيوعى الموحد.. وأن ما يحدث الآن بداخله يؤكد هذا.. فلم يعد من عمل لأعضائه غير توجيه الاتهامات، وبالذات لمجموعة «حدتو» واتهامها بأنها تقود الحزب لكى يكون ذيلا للسلطة ولعبد الناصر.. ولهذا.. قررنا الخروج والاستقلال بتيارنا.. و..

ووجدتنى أصرخ فى وجهه: تانى؟! انقسام تانى؟! لا.. وأقولها لك ولهم جميعا.. فى أى تنظيم وفى أى منبر كان. حدتو.. أو غير حدتو: هذا فراق.. واسمح لى.. لن أقبل فى هذا الموضوع بعد ذلك أى نقاش رغم ما أعرف ما الذى يمكن أن يقال عنى: أنى مرتد.. وهروبى وبرجوازى.. وغير ذلك من قاموس الاتهامات المحفوظة.. فليقولوا مايقولون.. فقد أصبحت قناعتى أن هذه التنظيمات.. بالشكل الذى خبرتها وعرفتها به هى عدوة للفكرة التى أنشئت أساسًا لخدمتها.. وأننى من فرط إيمانى وولائى للفكرة.. فإننى أترك هذه التنظيمات... أرفضها.. وإن هذا لفراق.. بينى وبينها... إلى الأبد؟!

٦

من ينشر لى قصصى؟!

وكأن حبالاً من الصلب كانت توثق يدى وقدمى لسنوات، ثم فجأة وفى غمضة عين انفكت وسقطت على بمنتهى البساطة، فمضيت أحرك أطرافى وأتنفس سعيداً بعمق وارتياح - وتولانى شعور رائع بأنى أصبحت قادراً على الطيران بلا أية عوائق أو حدود.. وأن حريتى اكتملت، وأن خروجى من السجن ذاك لم يكن غير مرحلة أولى فى الشعور بالحرية، أما الآن، وقد خرجت من السجن الآخر، سجن تلك التنظيمات السرية، فقد اكتمل إحساسى بالحرية.. وكنت أكلم نفسى...أهنيء نفسى: الآن أصبحت حراً.. بلا أدنى إحساس بالأسف أو الندم... فياما تمنيت هذه اللحظة.. أن تتحقق، وعلى نحو لا أفقد فيه كبريائى، ولا أحد يمسك علىّ نقطة ضعف أو انهزامية! بل إن تصرفى كما حدث كان تصرفاً نبيلاً ورجولياً.. فلقد ظللت معهم حتى آخر المدى رغم كل ما أصابنى من صدمات .. وها هى قضية لص البنك الأهلى الذى اتهمت بإيوائه وتهريبه مازالت مرفوعة ضدى... ويتأجل الحكم فيها من جلسة إلى أخرى.. ورغم هذا فقد ظللت فى موقعى التنظيمى تمسكاً منى بالمثل الأعلى.. تشجعنى بعض الصداقات.. وبعض العبارات وبعض القصائد والروايات لشعراء وكتاب إنسانيين عالميين!

الآن أفكر بأنى لو لم أكن قد فعلت ما فعلت، لاتهمت نفسى بالضعف وبالاستخذاء، وأنى أرتكب خيانة كبرى، وليس فقط فى حق نفسي، بل أيضا فى حق الفكرة والمثل الأعلى الذى أغرانى بأن أندفع فى المغامرة العظمى.. مغامرة التغيير بالثورة مهما كان الثمن!

الآن: كنت أقول مشجعًا نفسي.. يجب أن أخرج من التجربة وأنا أقوى مما كنت قبل دخولها.. يكفى الوعى الذى اكتسبته منها، والذى انفتح لى بفضله كثير من الأبواب المحظورة، وأضاء كثيراً من المصابيح المطفأة أو المخنوقة.. ولسوف يكون هذا الوعى هو دليلى ووقودى فى الطريق الجديد الذى اخترته لحياتى: طريق الكتابة! وإن اختيارى هذا لدليل جديد وأكيد على اكتمال حريتى.. تلك الحرية التى أصبحت شديد الحساسية بالنسبة لأى شيء يمسها.. وأنها ـ الحرية ـ باتت ـ ولا شيء غيرها ـ هى بوصلة حركتى، وترجمان شعورى بالسعادة وبالتحقيق فى الحياة.. وأنى أفعل ما يبدو أنه الصحيح، والذى يرفع وينضج من إحساسى بوجودى الإنسانى.. وأنها ـ الحرية ـ أصبحت هى المقياس الحاسم لنجاحى وارتقائى ـ أو العكس ـ فى الحياة! فلقد جئت ـ أول ما جئت ـ إلى القاهرة، وكان أهم ما يعنينى هو ما سأحصل عليه من الحياة فيها: حريتى قبل أى شيء آخر.. وانفكاكى من سجن القرية التى عشت فيها تسعة عشر عاماً.. ومازلت أذكر حتى الآن أيامى بل قل لحظاتى الأولى فى القاهرة، وأنا أجرى وألف وأدور وأطير بلا أجنحة.. صائحا لنفسي.. بصوت أو بغير صوت: أنا حر.. أنا حر.

.. حر.. حر! لا عيون أمي، ولا عيون ولي أمرى.. ولا عيون أعراف وتقاليد قريتي.. عادت تتبعني وتحاسبني!

هذا الشعور العارم والطليق والمبهج بالحرية يعود لي الآن.. ولكن بشكل جديد أسمى وأنضج وأروع.. حريتي الآن نتاج أحداث وصراعات وصدامات واختبارات واختيارات.. حرية حصادها تطور الوعي والإدراك، ومن ثم الاعتزاز بكل ما مضى من تجارب وأحداث، وليس الحزن أو الندم بسببها. وأنى لأرى الآن أن الحياة مجموعة أرحام.. تضم الإنسان فترة ثم يخرج منها على التوالي.. رحمًا بعد رحم!! أولها كان رحم أمي الذى ضاق عليّ بعد تسعة أشهر فخرجت أو قل تحررت منه إلى رحم أكبر هو قريتي التي ضمتني أكثر من تسعة عشر عامًا حتى بات استمراري أكثر من هذا هو الاختناق والموت.. فانطلقت منه ليحتويني رحم أوسع هو رحم القاهرة التى كانت أيامها تستعد لمخاض وطنيّ وعالمي هائل، فنقلتني الأحداث إلى رحم جديد.. رحم تنظيمات الكفاح السرى تحت الأرض.. ثم بعد ذلك رحم السجن.

الآن.. وبعد مرورى بكل هذه الأرحام.. وبمعايشتي لكل ما فيها من أمجاد وآلام المخاض.. الآن أخرج إلى الحياة مولودًا جديدًا يحمل إحساسًا ذاتيًا وبالتميز.. وأني قد وضعت قدمي على الطريق الصحيح .. والمناسب لي.. ذلك أعظم ما خرجت به من حصاد لملحمةالحرية: إختيار الكتابة طريقًا لحياتي!. وأن لاشيء فى العالم بعد ذلك عاد قادرًا على أن ينزعني منه أو ينزعه مني.. وأن عليّ أن ألقى بنفسي في

بحره العظيم من الآن، وأجد المتعة والنشوة في مغالبة أمواجه.. أجل .. فأنا أعرف كم ينتظرني فيه من مجاهدات ومكابدات.. لكن هذا هو بالذات ما يستهويني ويلهب حماسي.. إني عثرت أخيراً على الطريق الحق والعملي للكفاح.. كفاح الخلق الفني.. ومن الآن يجب ألا أضيع وقتاً.. وجميل أني انتهيت من كتابة بعض القصص، فلأدخل على الفور معركة نشرها.. فلمن أذهب بها؟! أي الأبواب أطرق؟!

ولقد خطر لي فجأة، وعلى نحو يشبه الإلهام، أن أتبع الحكمة القائلة بأن من يريد الحصول على أشبال النمر عليه أن يدخل بيت النمر نفسه.. بمعنى أن أسعى لمقابلة الرئيس عبدالناصر نفسه وأعرض عليه المشكلة.. لم لا؟! هو ليس إله.. هو إنسان مثلنا. ولقد تشاركنا، وأن يكون على غير معرفة شخصية - في دنيا التخفي والمطاردات والتوترات أيام الكفاح السري.. وبالتأكيد لو تم هذا اللقاء - فلسوف يحلها بإشارة من أصبعه!

إلا أنني وأنا أتأمل الخاطر، وجدتني فجأة مواجهاً بعينيه، غارساً نظرته في عيني - على نحو احتجت معه إلى جهد هائل لكي أظل على ثباتي، ولا أنسى ما جئت من أجله، وإذا به يقول : قبل أي كلام بيننا، هل مازلت تذكر ما حدث منك.. ولا أقول منكم.. فأنا الآن أخاطبك كفرد وليس كجماعة، وبما يمكن أن يكون لديك من إحساس بالذات وشعور بالمسئولية عن أفعالك.. ألم تكتب بخط يدك منشوراً عنوانه: تسقط معاهدة جمال - هيد؟! ألم تعتبر المفاوضات التي كانت تجري

بيني وبين الإنجليز، وهي إحدى صور النضال من أجل تحقيق الجلاء، خيانة وتواطئا مع المستعمر؟! ألم يحدث هذا منك؟!

فاندفع قائلا متأججا بمختلف المشاعر: هل تسمح لي يا ريس أن أتحدث معك بكل حرية ومن أعماق القلب.. إنني لست الوحيد الذي تعجلت الحكم وغاليت في التحليل.. لكن عذري كان يكمن في حسن نيتي.. وكذلك في بعض تصرفات صدرت منكم أنتم شخصياً.. وأنتم تتولون رئاسة الوفد المصري في المفاوضات.. ألم تتعهدوا للإنجليز وأنتم بصدد عقد اتفاقية الجلاء، على أن تقدم مصر لإنجلترا كافة المساعدات والتسهيلات في حالة ما إذا وقع أي عدوان أو تهديد لمصالحهم وقواعدهم في المنطقة المحيطة وخاصة تركيا؟! بما يعني حلفاً عسكرياً جديداً.. تحسباً لأي عدوان قد يأتي من الاتحاد السوفيتي.. وبذلك وضعتنا المعاهدة في سلة الغرب من جديد؟إنني ياسيادة الرئيس، حين قرأت ذلك التعهد الصريح منك وبتوقيعك على مقال قدمتم به لأحد الكتب السياسية الصادرة من هيئة الاستعلامات، اعتبرت ذلك - وأعذرني - ردة بمصر إلى الوراء.. مصر التي قالت: لا.. يا أيزنهاور.. ولا.. لحلف بغداد.. تتحالف بعد ذلك مع الإنجليز؟! ثم إذا بالأيام يا سيادة الرئيس تثبت أنك كنت أبعد بصيرة وأكثر واقعية.. فها قد حمل ثمانون ألفا من الجنود والضباط الإنجليز كافة أسلحتهم البرية والبحرية والجوية ورحلوا عن أرض مصر.. ولم يحدث ولن يحدث ذلك العدوان السوفيتي الذي انتحلوه وتخيلوه عذرا للعودة.. لقد حققت مجداً تاريخياً يا سيادة الرئيس لن ينسى.. و..

ولمحت ابتسامة خفيفة جداً رفت على شفتيه ثم تلاشت سريعاً وحل محلها شيء من الغضب والاستهانة وقال مقاطعاً: اسمع.. أنالم أعد أثق في كلامكم. ولاحتى في مديحكم. لم يعد لدى وقت للتحقق من صدق المشاعر المحيطة بي.. منكم أو من غيركم.. ليس تعاليا.. ولكن ضنا بالوقت.. أنت تعرف كم ألف سنة مرت على مصر وهم باركون فوق صدرها.. الآن كل دقيقة هي في حاجة إليها.. (وندت عن ساقه الطويلة اليمنى حركة عصبية ملحوظة وقال وقد عاد يغرس عينيه في عيني: ولعلمكم.. أنا اشتراكى أكثر منكم.. ولو كان الشيوعيون المصريون اليوم فى الحكم، وهذا بالطبع مستحيل الحدوث، ولكن بالفرض ما استطاعوا أن يفعلوا ربع ما فعلت وأنا مازلت في أول الطريق وأقولها باختصار وبوضوح أكثر.. أنا لا أثق فى إنسان يمد لى يده بينما يده الثانية في يد جماعة أخرى تعمل في السر ولا أعرف مراميها الثورة ليست لعبة أو مجاملات.. من يريد العمل معى أهلا.. ولكن بشرط.. ألا يكون له أى ولاء أو انتماء إلا للثورة.. والثورة وحدها.

وأوشكت أن أصيح عليه: لقد استقلت يا سيدى، وقد فعلت هذا قبل أن أراك أو حتى أفكر في لقياك!

غير أنى ابتلعت كلماتى: لا: لن أقولها.. وإلا فسيؤول قرارى الذى اتخذته بالخروج على أنه نتيجة هذا اللقاء!

لا.. لن أصرح له بها.. بل ولن أفكر بعد ذلك فى لقائه.. على الأقل هذه الفترة.. إذ لو حدث ونشرت قصصى وكتاباتى، فسيعتبر هذا النشر

بتوصية من الحاكم والسلطة. وما أسوأها من بدايةَ. فلتكن كلماتي - بنفسها - هي تزكيتي.. وإذن فالأفضل أن أبتعد تماماً عن بيت النمر.. ولأطرق الأبواب المعتادة.. أبواب الجرائد والمجلات المعروفة.. فلمن أذهب؟!

وعفوياً.. قفز إلى رأسي إسمان: محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام.. ومصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم!

لماذا هذان الأسمان بالذات؟!

كان قد بلغني من زوجتي فتحية وأنا في السجن أيام الإضراب عن الطعام أن الاثنين قد أبديا تعاطفا نحو وفود العائلات التي كانت تمر على الصحف بقصد إثارة مطالب المضربين. ومع وعدهما بتبني مطالب المضربين القانونية، فقد أضافا دليلاً ماديا على هذا التعاطف، بأن تبرع كل منهما بمبلغ خمسة جنيهات (وكان مبلغاً محترماً في ذلك الزمان) رمزاً للتعاطف والرغبة في المساعدة. (وإذن فالاثنان لديهما فكرة عن الوضع، ولسوف يتفهمان وضعي سريعًا.. وعمومًا فقد أصبحنا جميعاً نقف على أرضية واحدة، هي ثورة ٢٣ يوليو.. ومن ثم فمجال النشر في هذه الجرائد يصبح حقًا مكفولا للجميع.. هكذا قلت لنفسي.. وإذا حدث وثارت ثمة تحفظات نابعة من الحكم الصادر ضدي، فإن مركزهما الكبير كفيل بأن يجب هذه التحفظات والتخوفات!

بمن أبدأ؟!.. وخطر لي على الفور «هيكل».. المعروف بصلته الوثيقة بعبد الناصر.. الأمر الذي يمنحه بالتأكيد سلطات غير مخولة لغيره، كما تجعله أيضا فوق أي اتهام أو شبهات!

كان مبنى «الأهرام» أيامـها ناهضـا كـقلعة رمـادية قديمة ممسكة بناصيتى شارع «شريف» و«الساحة».. لم يكن واجهتها مشجعة ولا تسر الناظر إليها.. اتجهت مباشرة ـ بعد السؤال ـ إلى مكتبه.. قدمت نفسى لسكرتيرته بصفتى كمحام.. تفاءلت إذ لم أنتظر سوى دقائق معدودة وعادت لتصحبنى بابتسامة طيبة كريمة وأدخلتنى إلى مكتبه!

تفاءلت بترحيبه، ومخاطبته إياى باسمى مقرونا بلقب الأستاذ.. كما سرنى فيه أن ملامحه وتقاطيع وجهه تنبىء بأنه مثلى من الريف.. وأن بيننا أصولا مشتركة !! إن هى إلا لحظات وفوجئت بإحساس آخر يداهمنى ، إحساس برسمية اللقاء. وقد داخلنى هذا الإحساس من «رتم» الكلام.. وإيقاعه القافز السريع.. وفهمت أن علىّ أن أدخل مباشرة فى الموضوع.. غير أنى ماكدت أشرع فى حكاية القصة، حتى فوجئت به يقول باسطا كفه: أنا دلوقت فهمت الوضع.. وأحب أقول لك حاجة.. بمنتهى الصراحة والوضوح: عنى أنا شخصيًا.. ما عنديش أى مانع تشتغل معانا هنا فى الأهرام.. بصرف النظر عن حكاية القصص دى.. الصحافة مجالها واسع.. لكن وضعك زى أنت ما حكيت.. مش بسيط.. وعشان كده أعطنى مهلة أسبوع.. زى النهاردة.. تعال لى وإن شاء الله يكون خيرا!

محملاً بروح الأمل خرجت.. ومحملاً أيضا بنفس الروح عدت بعد أسبوع.. إلا أننى، وأنا داخل من الباب، إذا بى ألمح ابتسامة غريبة مرتسمة على شفتيه وهو ينهض ليسلم علىّ ثم يقول وهو يشير لى

بالجلوس: ياراجل ده انت طلعت شخص خطير جداً.. ومراتك أخطر منك!

قالها بلهجة من اكتشف حقيقة خطيرة فات عليه أن يكتشفها فى لقائنا الأول، وكان من الممكن أن يقع فى ورطة كبيرة لا يحبها لنفسه لو لم يكتشفها! لا.. لم يكتشفها.. بل هو أخذ بكلام البوليس السياسى الذى ذهب إليه يستطلع أمرى.

قلت وأنا أنهض واقفًا - معلهش آسف إذا كنت تعبتك معايا.. ولا أذكر أن كنت قد سلمت أم لم أسلم.. وجدتنى فى الشارع أجرجر قدمى وقد انتشرت فى جسدى تنميلة يأس خشيت معها أن أصاب بدوار، فجلست على مقهى الأنجلو القريب.. وبه بار مشهور.. وفكرت أن أعب من أردأ خمر موجودة عنده حتى أتوه عن نفسى وعن العالم.. غير أن وجهى إيهاب وصلاح لاحا لى... لست أنت يابابا الذى تفعل هذا. ووجهها الأخرى.. فتحية.. ليس الوجه فقط، بل والبطن أيضاً.. البطن التى كبرت وأصبحت تزداد استدارة يومًا بعد يوم.. حاملة فى الجنين الذى كنت أنا المصر على مجيئه لحظات الأمل والتفاؤل! ترانى كنت مخطئا.. واهما!

وعزت علىّ نفسى.. ورأيت أن الضعف أمام هذا الذى حدث تهافت منى وخلوّ من الرجولة والإحساس بالمسئولية!! وقفز أمامى الاسم الآخر: مصطفى أمين.. فلأذهب إليه.. وأجرب.. ربما!! ومن «الأنجلو» توجهت مباشرة إلى «أخبار اليوم»!

وأنا سائر في الطريق، داهمتني الكآبة مرة أخرى.. وعدت أفكر: إذا كان الصحفي الكبير الذى يصاحب عبدالناصر، ويكاد يكون صديقه قد تصرف معك هكذا.. كأنما نجا بنفسه منك، وعلى نحو صريح جسم من خطورة وضعك.. فكيف سيتصرف الرجل الذى ألقى القبض عليه هو وأخوه ليلة حدوث الثورة على سبيل التحفظ وتأمينا للثورة.. باعتبارهما مواليين للملك.. ولأمريكا الضاحكة، كما كان شائعًا في الأربعينيات؟!

وتباطأت خطواتي.. وتولاني إحساس كالدوار احتل رأسي.. غير أني سرعان ما قاومت حتى استرجعت نفسي.. وقلت: لقد أصبحوا كلهم رجال عبدالناصر.. أعطاهم رقم تليفونه المباشر.. والجرائد جميعها باتت تنطق حسب توجيهاته.. كلها الآن جرائد مصر، وجرائد الثورة.. وحكاية الاتهام بالأمريكية هذه لم ينج منها عبدالناصر نفسه.. بل الثورة ذاتها.. أجل يجب أن ألقي بكل هذه التخوفات خلفي.. وأمضي في طريقي.. معتمدا على صدق إحساسي التلقائي.. وحتى إذا فشلت التجربة، فلن أخسر شيئا.. ولتكن مغامرة في الوقت الضائع.. وأتعرف على هؤلاء الذين يتربعون فوق قمة عالم النشر.. عالم صاحبة الجلالة!

الآن.. وأنا أكتب عن هذا اللقاء.. لقائي الأول بالأستاذ مصطفى أمين.. أحس بموجة رقيقة تشمل كل روحي، وأنا أسترجع ذكرى تلك اللحظة الحافلة بالبهجة والضياء.. بهجة الروح المتفتحة دوما للعطاء، وضياء حجرة مكتبه التي تقع في الدور الثامن مطلة على أعلى

المدينة.. ومازلت أذكر همسة الدهشة والإعجاب لنفسى حين وقعت عيناى عليه لأول مرة وهو ينهض من على مكتبه ليتقدم نحوى بكل هيلمانه الجسدى ويستقبلنى.. يا إلهى.. ما كل هذه الضخامة والعظمة فى الجسم، وماكل هذه الطفولة والبساطة فى الروح؟!

والحق أنى لأجدها فرصة لى - بعد أربعين عاما من ذلك اللقاء - أن أوفى ولو بشيء من الدين الكبير الذى طوقنى به هذا الرجل الكريم.. وإنى لآسف أن تكون كل إمكانيات الوفاء عندى هى بضع كلمات لا غير.. كلمات شكر وامتنان.. لا أملك سواها، ويجيء إعلانها متأخرا جدا.. ولعل هذا التأخير هو الدليل الأكيد على الصدق.. وأن الصنيع الجميل حقا هو الذى يبقى حيا فى الضمير.. ولا ينسى أبدا بمرور الزمن!

لقد كان رائعا ومدهشا أن أجده مشوقا وعلى نحو يكاد يكون طفوليا لأن أحكى له عن تجربة سجنى.. وأنه يحترم هذه التجربة، بل ويكاد يهنئنى عليها.. فالكوارث فى حياة الكاتب سرعان ما تتحول إلى كنز يغترف منه «كما لازلت أذكر قوله: أنا لست شيوعيا، بل إنى ضد الشيوعية وعلى خط مستقيم، لكنى فى نفس الوقت أحترم حرية العقيدة، كما أدعو إلى تكوين حزب شيوعى فى مصر.. ذلك يظهر الأشياء على حجمها الحقيقى»!

ولقد أحسست وكأنى صديق له من زمن طويل، وأن حجرته هذه يمكن أن تكون ملاذا ومقصدا فى أية لحظة أحتاج!! وفكرت فى نفسى أننى لو لم أخرج من هذا اللقاء بغير تلك المشاعر الحلوة التى غمرتنى، لاكتفيت، ولما همنى أبدا الموضوع الأصلى الذى جئت من أجله، وهو

نشر قصصي.. إلا أنه لم يلبث أن دخل فى الموضوع وقال: هات لى قصة.. وتأكد لو وجدتها جيدة، فسأنشرها فى صفحة القصة بأخبار اليوم!

ويا إلهى على السعادة التى تأججت بها روحى وهو يقول لى بعد أسبوع من تقديمى القصة له: قرأت القصة.. وستنشر فى العدد القادم!

وقد بذلت جهدا جبارًا كى لا أنهض من جلستى وأشد على يده معبرا عن فرحتى.. إلا أننى فوجئت به يقول بهدوء: ولكن هناك نقطة أحب أن نتكلم فيها.. لا أريد أن ننشر هذه القصة على نحو يحمل معنى التحدى.. أنا أفكر أن تختار لتوقيعك اسما غير الاسم الحقيقى.. وهو عرف متبع ومشهور فى العالم كله.. حين تجبر الظروف الكاتب على ذلك فى بعض المراحل!

قلت صائحا وقد تحمست جدا للاقتراح، بل ووجدتها لعبة طريفة يدعونى إليها، فاتحا بها الباب أمامى بالتدريج، وصحت به: أنا موافق. أنا لايهمنى الآن إلا أن تنشر كلماتى ويقرأها الناس. والمهم أن تراها صالحة بالفعل للنشر!

قال: جهز قصة أخرى.. واستمر.. خل عندك صبر.. حتى تتحسن الظروف!.. والآن ما الاسم الذى تحب أن توقع به على قصتك؟!

قلت على الفور، وقد ندت عنى ضحكة صافية سعيدة: «صلاح عبدالله».. صلاح هو ابنى.. وعبدالله هو أنا.. وبهذا فالحكاية فى بيتها.. «ماراحتش لحد غريب»!! وتلاقت ابتساماتنا!!



انفجار التناقض

أسابيع قليلة ورأيت قصتى الثانية منشورة فى نفس الموقع الساطع، محتلة المساحة الكبرى من الصفحة الأخيرة لأوسع الجرائد الأسبوعية انتشاراً في الشرق الأوسط: أخبار اليوم. كان النشر فى هذا الموقع بما فيه من حسن صنعة وإبهار فى الإخراج، يوحى للكاتب فيه أنه نجم فى مهرجان.. الأمر الذى أعطانى الثقة فى جودة قصصى.. إلا أننى سرعان ما انتابنى الإحساس بالظلم وبالقهر وأنا أرى قصتى منسوبة إلى اسم وهمى لا وجود له فى الواقع.. وأن شيئا ما ثمينا لا يعوض يسلب منى.. هو اسمى الحقيقى.. يبدو كعورة أو لعنة يجب حجبها والتخلص منها.. وسيطرت علىّ كآبة مختلطة بالغضب: ها هو نظام عبد الناصر يحرمنى من ثمار عملى وسهرى وكفاحى.. رغم أنى لم أعد عدوا.. بل صديقا إلى حد الفرح والإعجاب.. فلماذا.. وإلى متى سأظل أدفع ثمن خلافى السابق فى الرأى معه: ممنوعا من العمل .. ممنوعا من النشر باسمى.. وأنه لا وسيلة لإلغاء هذه المحاذير إلا أن أذهب شخصيا إلى رجاله فى تلك المنطقة التى يمتلئ قلبى بكراهيتها .. منطقة «المباحث».. حيث كلاب الصيد وشمامى الأثر اياهم.. وأولهم رئيسهم الذى شهد ضدى كذبا فى المحكمة ، وفضحت كذبه للقاضى!

من المستحيل بالطبع أن أفعل هذا..

وشددت من عزيمتى، وراجعت مشاعر غضبى وكآبتى.. وقلت مشجعا نفسى: إن هذا يعنى أننى لا أزال أسير على طريق النضال.. وأننى أصنع ثورتى وحريتى بطريقتى.. وأننى لكى أصبح كاتبا حقا ومجيداً لابد أن أتحلى بأخلاق المناضلين الكبار! أن أكون صبوراً. ولا أتعجل الأمور.. ولأدع الزهور تنبت على مهل!.. وساعدنى على تقبل هذا المنطق، أننى فوجئت بالجريدة تدفع لى مقابل نشر القصة الأولى مبلغ ثمانية جنيهات، وياله من مبلغ جد محترم فى ذلك الزمان، الأمر الذى قضى تماما على ذلك الإحساس العنكبوتى بعقم البطالة ومهانتها.. وأن الفراغ الحر الخالى من أى ارتباط يمكن أن يكون للإنسان نعمة كبرى إذا استثمره فى إنجاز عمل يرتجيه ليقيم به مستقبله!

كما كان السر الأكبر لفرحى بهذه النقود أنها أول مبلغ يدخل جيبى من عملى وعرقى بعد الخروج من السجن، وليس من بيع قطعة أرض جاءتنى بالوراثة دون أدنى مجهود أو تعب!.. وما أجمل أن يكون الفن الذى أصبح مهنتك وعملك الرئيسى وتنعم حتى بما فيه من ضنى وشقاء وتوترات.. ما أجمل أن يصبح هو مصدر دخلك وقوام اعتمادك المادى فى الحياة!

ولا أنسى الفرحة التى أطلت من عينى فتحية وأنا أقدم لها المبلغ داخل مظروف أبيض قائلا: ده ثمن نشر قصة «أم مدبولى».. قاصداً إحاطة الوضع بهالة عظمى.. وتحديداً لكى تدرك أن مهنة زوجها الجديدة، مهنة الكتابة والأدب بالذات التى استبدل بها مهنة المحاماة

ليست كما هو شائع مهنة الكسالى العاطلين الفاشلين.. بل هى عمل راق رفيع المستوى، يمكن بالإخلاص وبالمثابرة أن يوفر للكاتب هو وأسرته حياة آمنة جديرة بالاحترام والحماية.. ومن ثم تصبح مسئوليتها الكبرى بجوار مسئوليتها عن البيت والأولاد، أن توفر لى كل ما تحتاجه حياتي ككاتب.. تفعل هذا كزوجة وحبيبة! ولم يكن يخطر ببالى لحظتها أننى ألقى فى أرض حياتنا ببذور أخطر دراما ستنفجر ذات يوم بينى وبينها!

ذلك أنها بكل حماسها وفطريتها، وبكل الحب العارم الذى جمع بيننا، كانت تستقبل أحداث الحياة بطريقة استقبالى وممارستى لها.. انخرط فى دنيا السياسة والنضال السياسى فتنخرط هى فيه وتتمنى لو تصبح مناضلة سياسية: أحب الفن والكتابة فتهيم حبا بهما.. حتى تكاد تحفظ غيبا كل قصة أكتبها، وكأنها هى التى كتبتها.. متمنية لو تصبح كاتبة. أى شيء أكونه، تتمنى لو تكونه هى أيضا.. وتلك حالة غريبة نادرة سوف تنتهى فى المستقبل بأخطر النتائج: مرة هى العاصفة والطوفان المدمر والمغرق لسفينة حياتنا... ومرة هى الدورة الأساسية داخل خلية الحياة الأولى: أنا «الذرة» المركزية، وهى الألكترون الدائر حولى بغرام الاحتضان والتكامل الحى الأبدى بيننا.. وأنها بدونى لاشيء، وأننى بدونها غبار هائم متناثر فى الفضاء.

ولكن.. أصدقائى وصديقاتى.. دعونا لانقفز فوق الأحداث.. إذ كيف حدث هذا، وكم من الوقت وكم من العناصر احتاج لكى تهب العاصفة أو الطوفان.

هذا هو الآتي. وبالتعبير المسرحي: هذا هو العرض القادم.. متى؟.. هناك مسرحية شهيرة عنوانها: سوف يأتي الوقت!

ونعود إلى تلك اللحظة، وفتحية تكاد تضم إلى صدرها ذلك المظروف الذى يضم ثمن القصة، ثم تقبلنى مهنئة بحرارة: عارف الفلوس دى بتفكرنى بإيه.. بفلوس أول قصة اتنشرت لك وأنت فى الجامعة وأخذت عنها جايزة اشتريت لى بها هدية.. فاكر؟! أيام الخطوبة؟!

- إلا فاكر.. هى دى حاجة تتنسى؟!

ثم.. وأنا أضع كفى، بغاية الرفق على بطنها المتكورة بحملها الذى يكبر يوما بعد يوم، ويقترب وئيدا من شهره التاسع: يعنى كان عندى حق، لما قلت لك بعد ما خرجت من السجن أنى متفائل للأيام اللى جايه.. وأن أجمل الأطفال.. هو..

فأسرعت تكمل بسعادة، وهى تضع بمنتهى الرفق كفها فوق كفى الموضوع على بطنها : هو الذى لم يولد بعد!!

واهتزت أعطافنا نحن الاثنين بالفرح وبالجذل، وقلت بحماس: ما رأيك... فلنحتفل الليلة بهذا المبلغ التاريخى.. ولننفقه كله.. فرحا بأنفسنا.. وبالحياة.. وبالفن.. ولنشرب نخب القصة الثانية التى نشرت، ولم أقبض ثمنها بعد.

والتقت رغبتى تلك، بحسها الاحتفالى الدائم، والمتفتح دوما بحب الحياة والإحساس بنشوة صحبتنا معا.. فى هذا العالم!

فى تلك الفترة كنت قد ارتبطت بإحدى دور النشر التقدمية والتابعة أصلا من تنظيم «حدتو» السابق، إلا أن ارتباطى بها كان متحررا تماما - وكما أسلفت - من أى قيد أو توجيه تنظيمى.. وقد جذبتنى إلى العمل بها شخصية فياضة بالحب وبالفن وبالإنسانية.. هو الفنان التشكيلى «حسن فؤاد».. كان اسمها «دار الفكر» ومديرها هو «إبراهيم عبدالحليم» الذى يستمد ثقته فى عالم النشر الأدبى والسياسى، من كونه عضوا سابقا فى اللجنة المركزية لتنظيم «حدتو» الذى تبدد وانتهى بتكوين الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وكذلك من قصة طويلة له منشورة فى كتاب اسمها «أيام الطفولة».. أقرب إلى السيرة الذاتية القائمة على تمجيد الروح العصامية المناضلة داخل الأسرة الشعبية المصرية!

فى هذه الدار عشت أول تجربة عملية لى فى عالم الطباعة والنشر والتوزيع، تجربة بدا لى سحرها من مراحلها الأولى، وأنا أتتبع تطورات حياة الحرف، وهو يبدأ رصاصا مصهورا.. ثم آخذا شكله الهندسى المستقل، والخاص به.. ثم مندمجا فى أحرف أخرى ليصبح كلمة.. والكلمة جملة والجملة فى النهاية كتابا.. أو مجلدا.. كيانا موحدا.. نابضًا حيا بين دفتين!! إنها أحد الانجازات العظمى للإنسان عبر مسيرته الحافلة الطويلة فى هذا الوجود!.. ومن خلال معايشتى لهذه التجربة الحية، ولد الحلم فى نفسى.. أن يكون لى كتاب يضم بين دفتيه مجموعة من قصصى القصيرة.. تتجاور وتتضام فى وحدة تعلن عن ميلادى ككاتب.. وأن يكون الناشر لها هى هذه الدار التى أعمل بها!. واحتفظت بالحلم فى نفسى حتى يأتى أوان تحقيقه!

وقد كان أول الكتب التى شاركت فى عملية إصدارها، طباعة وتوزيعا، هو كتاب «باندونج» لمؤلفه الشاعر عبدالرحمن الشرقاوى الذى سبق أن أصدر فى أوائل الخمسينيات - عشية حدوث الثورة - ديوانه الشهير حينذاك، «من أب مصرى للرئيس ترومان».. وكان ذلك الديوان إحدى مطبوعات جماعة مناضلة جديدة اسمها: أنصار السلام!!.

كان الكتاب يحمل روح الديوان: الحنين إلى السلام وإلى التعايش بين الشعوب، وبين الأنظمة رغم اختلافها.. وأن تكون مأساة «ناجازاكى» و«هيروشيما» نذيراً رهيبا لما يمكن أن يحدث للعالم لو تناطحت القوتان العظميان بالسلاح الذرى أن تنهض قوة جديدة محايدة بين القوتين، تضمن حفظ التوازن بينهما.. وبهذا تصبح قوة رئيسية جديدة ثالثة.. كان ذلك هو جوهر روح مؤتمر باندرونج الذى سافر إليه عبدالناصر، ولعب فيه دوراً حيويا ومجيداً ورائداً أيضا لم يسبق لحاكم مصرى قبله أن يقوم به!!

وقد كنت متهيئا للاقتناع وللانتشاء بهذه الفكرة وأنا فى سجن القناطر.. فى الشهور الأخيرة قبل خروجى.. كنت أرى فى سفر عبدالناصر إلى هذا المؤتمر المنعقد فى جاكارتا... عاصمة أندونيسيا... كنت أرى فيه الخروج التاريخى الأولى لمصر من عزلتها التاريخية القديمة الطويلة.. كنت أراه نقطة تحول.. نقطة انطلاق... ليس فقط على المستوى الدولى.. بل والمحلى.. وكذلك الشخصى أيضا!!

ولقد فوجئت ذات يوم بمدير الدار، الأستاذ إبراهيم عبدالحليم، يدخل عليّ في ركني الصغير، ثم يمد لي يده بظرف صغير أبيض عليه خاتم النسر.. وقال: ده من الريس عبدالناصر.. كارت شكر!

تلقيت منه الكارت بفرح جارف.. تلقيته بيدى الاثنتين!!

الغريب أنى لم أتشكك لحظة في الموقف، بل صدقته.. كنت أحس، رغم تلك العلاقة الدرامية بيني وبين النظام، والتي لا أستطيع في ظلها حتى الآن نشر كتاباتي موقعة باسمي، كنت أحس أن ما بيني - روحيا - وبين عبدالناصر.. شيئاً نقيا.. خالصا.. عميق المحتوى.. وأننا أصدقاء بل أحباء.. وأنه مهما حدث بيننا من سوء تفاهم، فذلك شيء طبيعي بحكم فترة الصراع الوطني والطبقي الذي نحياه!! فلأتحل معه دائما بروح التسامح واتساع الأفق.. وأننا قد أصبحنا - ولو بشكل غير معلن وصريح - شركاء في صناعة المصير!

الغريب أنني في نفس ذلك اليوم الذى وصلتنا فيه بطاقات الشكر من الرئيس، فوجئت وأنا أدخل من باب البيت، بساكن الطابق الأولى ينادى عليّ، ثم يهمس في أذني منبها، أن أحد المخبرين السريين أصبح دائم الانتظام على المجيء والسؤال عنى وعن تحركاتي.. وأيضا عمن يأتون لزيارتي!

داهمني إحساس بالانقباض وبالغضب وفكرت أنهم بالقطع لم يعرفوا بعد أنني ودعت عالم التنظيمات السرية.. أو أنهم عرفوا لكنهم لا يثقون بهذه الشكليات بدليل ارتباطي الجديد بتلك الدار الخارجة أصلا من معطف «حدتو»!!

لقد دخلت قوائمهم السوداء، ومن يدخلها لا يخرج منها إلا بالقبر.. قبره أو قبرهم!

ما العمل؟! وخطر لى والغيظ يملأ صدرى، أن أتربص بهذ العميل حتى أمسك به ولا أتركه إلا فى قسم البوليس وأحرر له محضراً.. متحديا بذلك أسياده الذين كلفوه بهذه المهمة، إلا أن الوجه الأصفراوى الممصوص، وجه رئيسهم الذى شهد ضدى كذبا ذات يوم فى المحكمة، وجدت شبحه فجأة أمامى.. باسما وساخرا ومكشراً عن أنيابه: أتظن أنك ستحرجنى مرة ثانية بعد أن أحرجتنى أمام المحكمة؟!.. هيا.. ولسوف أوجه لك هذه المرة الضربة القاضية... الضربة التى ستطيح بك إلى ما وراء الشمس.. أنت وأهلك؟!.. ثم هل تظن أنى أصدق لعبة أنك استقلت حقا من التنظيم إياه؟! هاها.. إن هى إلا لعبة فاشلة منك ومنهم.. أبداً لن تستطيع أن تفلت منهم.. إنهم أخطبوط.. وأنت حالم رومانسى.. وسوف بالتأكيد يستخدمونك بوضعك الجديد هذا، أما إذا كنت حقا تريدنا أن نقتنع بأنك بالفعل تركتهم إلى غير رجعة، فلم لا تأتى هنا أيضا وتخبرنا.. ما الذى يضيرك فى هذا؟! وحينذاك نرفع اسمك من القوائم ونريحك من هذا القلق إلى الأبد!! أما وضعك المتميع هذا، فنحن لك بالمرصاد وفى أية لحظة يمكن أن نلتقطك كما التقطنا الكثير.. رغم تأييدكم للثورة ولجمال عبدالناصر.. لأنه تأييد مزيف وموقوت وفى أية لحظة تنقلبون.. إن تاريخكم يؤكد هذا!!

وإذا بكراهية عارمة ممزوجة بالغضب تشتعل فى صدرى: يا أولاد (....) تريدون أن تجعلوا منى لعبة جديدة تؤكدون بها سيطرتكم

وسلطانكم على البلاد وعلى العباد.. بل وعلى الثورة نفسها! وإنى لأعرف طبيعتكم جيداً التى تربيتم عليها.. طبيعة كلاب الصيد بوظيفتها المشهية والمثيرة للعاب والقائمة على تشمم أثر الفريسة، واقتفاء هذا الأثر حتى تنقض عليها وتشل حركتها تماما ثم تحملها بين أنيابها.. وتقدمها لأسيادها.. ليس هنا ثمة فرق بين أن يكون كلب الصيد المفترس هذا كلبا حقيقيا، أو إنسانا كلبيا معداً وموجها للقيام بمهمة الافتراس! (وعاودتنى روح التحدى) إنها لعبتهم الشهيرة.. لعبة التخويف، حتى تنهار معنويات المرء فيذهب إليهم قائلا: أرجوكم. اتركونى فى حالى!.. وحينذاك تبدأ خطتهم الثانية.. خطة التطويق ومحاولة الاستخدام.. ويتحول المكافح الشريف إلى عميل.. وتتم مأساة السقوط!!

بل تشل قدماى ولا أذهب. ولسوف أفسد عليهم خطتهم.. مثلما أفسدت على رئيسهم «حسن المصيلحى» خطته للإيقاع بى أثناء المحاكمة! ولقد تحررت من هذا الجو وأصبحت أحيا وضعا جديداً متحرراً خاصاً بى.. فلأ فرضه عليهم وعلى العالم كله.

وقلت لجارى بلهجة قاطعة باترة: اسمعنى جيدا أيها العزيز.. أنا شاكر لك حرصك على إبلاغى بهذا، ومع ذلك.. فلى منك رجاء: من الآن ـ من هذه اللحظة ـ لا أريدك أن تبلغنى أى شىء عن هؤلاء الناس.. هؤلاء حرفتهم التجسس ولا عمل لهم إلا خراب البيوت.. فمهما جاءوا ومهما قالوا أو فعلوا، لا تخبرنى بأى شىء.. وإننى لأحذرك

منهم.. فلاشيء وراءهم غير المصائب.. فاحترس جيدا أنت شخصيا من أن يستدرجوك لأى عمل.. بذلك تسلم منهم.. ألا تعطيهم وجها أو ريقا حلوا.. المقاطعة الكاملة هى الوسيلة الوحيدة لتجنب آذاهم.. وإفساد مرماهم!!

وقد صحت خطتي.. فبعد أن استجاب الجار الشهم لما قلت، ولم يعد يلقاهم إلا باللامبالاة الواصلة حد التجاهل والتهرب، أخذت زياراتهم تقل بالتدريج حتى انعدمت تمامًا!.. وقد أدركت هذا دون حتى أن أتحرى من الجار، بل من رقابتى الخفية الخاصة.. ومات الموضوع وبات كان لم يكن.. وداخلنى نوع من السعادة والإحساس بالثقة وبالنصر.. أنى لم أسقط فى قبضة الخوف الذى حاولوا تهديدى وتطويقى به.. ومضيت فى حياتى وقد تعمق إحساسى بحريتى التى أصنعها بيدى.. مرحلة بعد مرحلة!

غير أن تلك التناقضات الحادة التى كانت تحفل بها نفسى إزاء الثورة: الحب والكراهية.. الولاء والمطاردة.. الثائر وكلاب السلطة.. كل ذلك كان يظلل نفسى بغيمة من الأسى تولدت منها فكرة أو موضوع مسرحيتى الأولى «طيور الحب»، والتى حين عرضت بعد ذلك فى أوائل الستينيات، كانت من أولى المسرحيات - إن لم تكن أولها - التى تعبر عن أزمة المثقفين الثوريين وثورة ٢٣ يوليو!!

فى نفس تلك الأيام.. وبينما أنا أحاول استيعاب هذا التناقض انطلاقا من كونه من طبائع الثورات، أن كل ثورة كما هى محاطة بأعداء

شرسين يتربصون بها الدوائر، فهى أيضا محكوم عليها بأن تكون بنفس الشراسة بل وأعتى.. الأمر الذى لابد يوقعها فى كثير من التجاوزات والأخطاء.. وكذلك انطلاقا من حكمة سابقة تعلمتها من أخطاء اندفاعاتنا السابقة، ألا أقع برد فعل الغضب من هذا التناقض فى هوة التطرف ومعاداة حكم عبدالناصر من جديد.

أقول بينما أنا أحاول استيعاب ذلك التناقض على هذا النحو، إذا بى، وأنا عائد ذات يوم إلى بيتى بعد الظهر، أفاجأ بولدى إيهاب وصلاح واقفين أمام باب البيت، وما أن لمحانى حتى اندفعا علىّ جرياً وما أن بلغانى، حتى همسا فى أذنى، وقد ارتسم على وجهيهما القلق والتوتر: البوليس قبض على ماما يابابا.. وهى دلوقت فى قسم قصر النيل!!

تسمرت واقفا للحظة.. تجسمت أمامى بالجنين الذى تحمله، فى بطنها: آه يا أولاد الكلاب.. خرجت الصرخة منى بلا وعى.. ثم للولدين: عرفتم إزاى؟! مين قال لكم!

أخرج إيهاب من جيبه ورقة صغيرة وقدمها لى: ماما بعتت لك الورقة دى مع شاويش.

8

مخاض الزمن الآتى

تناولت الورقة بلهفة. أيقنت من النظرة الأولى أنها بالفعل منها... هذا هو خطها السريالى الملهوج السريع. استحضرت قدرتها على التصرف الفورى فى المواقف الصعبة.. ها قد أقنعت أحد العساكر سراً بتوصيل الورقة لنا.. ودلتنا على مكانها.

عبدالله الحبيب.. لا تقلق على.. فالأمر ليس جديداً علىّ، إنهم يكشفون عن جبنهم وحقارتهم فلا يخجلون من القبض على زوجات حوامل، وأمهات بل وجدات في الستين والسبعين (أم زهدى وأم العطار) ، والحكاية أننا ذهبنا ـ كما أخبرتك بالأمس ـ إلى رياسة مجلس الوزراء لنتقدم ببعض المطالب للمعتقلين السياسيين.. هتفنا مطالبين بالإفراج عنهم، وفى لحظة كنا محاطين بالعسكر وأركبونا البوكس وساقونا ونحن نهتف إلى قسم قصر النيل، ومعنا أيضا زميلان أدخلوهما معنا فى نفس التخشيبة.. الكل يرسل لك السلام. نحن جائعون جدا. ياريت تسعفنا بكمية من الطعام ولتكن سندوتشات فول وطعمية.. وياريت أيضا أسمع صوتك تنادى على من خلف التخشيبة.. أنا مطمئنة على الولدين معك، مثلما أنت مطمئن على من هو ـ أوهى ـ فى بطنى.. وأجمل الأيام هى التى لم نعشها بعد.. حبك وقدرك: فتحية..

كان واضحا أنها جد سعيدة بما هى فيه. وأنها تعيش دوراً تحبه وتزهو به.. دور المناضلة التى تتحدى وتتصدى.. تعيشه لأول مرة مستقلة عنى، غير مرتبطة بموقف يخص شخصى! واستوقفتنى جملتها: ياريت أسمع صوتك تنادى علىّ من وراء القسم.. وابتسمت للصورة والمعنى، تريد أن ترانى أفعل معها ما كانت تفعله معى، وأنا فى السجن.. أصبحت هى المسجونة وأنا المنادى عليها.. ورأيت أن ذلك شىء مثير ولطيف، وأن على أن أتقبله بحب.. مثلما أعطتنى ذات يوم فى الشدة، أعطيها أنا الآن.. أرد الدين.. وإن كان الموقف هذه المرة بسيطا وحالما سيفرج عنها، فلأسرع بشراء الطعام لهم.. ولتكن «أكلة» تاريخية.. استبعدت تماما فكرة الفول والطعمية، وجازفت بكل ما معى من نقود وتوجهت إلى «أبو شقرة الكبابجى» واشتريت كمية كباب محترمة وانطلقت بها إلى القسم، وقبل أن أقابل الضابط النوبتجى، ناديت عليها من الخلف: فتحية.. أم إيهاب.. وجاءنى على الفور صوتها، مشعا برنين الفرح والابتهاج: أيوه يا عبد الله.. أيوه ياروحى.. سامعاك..

- جبت لكم كباب سخن.. حيدخل لكم حالا..

وإذا بصوت قوى أجش ينادى على من قلب التخشيبة: متشكرين يا زميل عبدالله.. أنا «على الشريف».. اطمن على الزميلة.. دى بألف راجل.

ولم أكن يومها أعلم، ولا حتى «على الشريف» هذا يعلم أنه سيكون هو ذلك الفنان الكبير والممثل الشهير المتميز بطعمه ولونه فى عالم

السينما العربية، والذى ماكنت التقى به بعد ذلك حتى نتذكر تلك الواقعة الطريفة التى حدثت، وهم يخرجون من القسم للذهاب إلى النيابة.. حين هتفت فتحية وبطنها الكبيرة أمامها قاصدة الإثارة والتشهير بالنظام الحاكم من حيث أنه يعتقل الحوامل: نريد أن نولِّد.. نريد أن نولد، وإذا بالباقين.. وبينهم على الشريف يرددون الهتاف نريد أن نولد.. نريد أن نولد!! وانفجر الكل ضاحكين رجالا ونساء.. معتقلين وحراسا!!

وقد ظلت أكلة الكباب فى التخشيبة، والهتاف بالمطالبة بالولادة. هى حدوتتنا الضاحكة الطريفة كلما التقينا أنا والراحل العزيز الفنان على الشريف!

إلا أن شعورا آخر مناقضا سرعان ما داهمنى حيال واقعة القبض عليها.. ذلك أننى فوجئت. بعد أن أفرجت عنها النيابة بعدد من الرفاق والرفيقات يتوالون تباعًا على زيارة البيت لتهنئتها.. هنا داهمتنى الفكرة: تراهم استغلوا حماسها المشتعل على الدوام فاحتووها بالكامل وجندوها، وأصبحت عضوة عاملة فى تنظيمهم السرى.. تأتمر بأوامرهم وتتلقى التوجيهات منهم دون أن أدرى أى شيء عن ذلك.. والأدهى أن هذا يحدث فى الوقت الذى أعلنت فيه خروجى من هذا التنظيم واستقلالى التام عنه!! هل يمكن؟!

لقد كانت فكرتى العامة عن نشاطها بعد خروجى من السجن، أنها مرتبطة بتلك الأشكال الجماهيرية العلنية مثل مؤازرة أهالى المسجونين

والمعتقلين، ومثل فتح فصول لمحو الأمية.. وهكذا.. فلا يعقل بالطبع أن يتوقف نشاطها هذا بمجرد خروجي من السجن.. أنا نفسي لم ولن أتوانى عن المشاركة في أي عمل نضالي جماهيري أقتنع به، ولكن دون أن يكون بتوجيه صادر من ذلك التنظيم السري الذي خلعت نفسي منه!! فهل يمكن أن يكونوا قد نجحوا في احتوائها بالكامل؟!.. إنها لتصبح ضربة كبرى بالمقابل للانتقام مني.. وإنهم بهذا يأخذونها مني.. يبتلعها الحوت الذي ابتعلني ذات يوم ولم أستطع الإفلات من جوفه إلا بمعجزة.. وأنى لها بمعجزة أخرى شبيهة تخرجها هي أيضا؟! هل يمكن أن تكون قد وقعت بالفعل في المصيدة؟!.. ومتى؟! وكيف؟!

وفكرت أنني المسئول الأولى في كل هذا.. أنا الذي جعلت لها من الكفاح أغنية.. فكيف أسحب منها الأغنية... بل إنني - أنا نفسي - لم أكف عن التغني بها، ولكن بطريقتي.. بعد أن رأيتهم يفسدون الأغنية ويعبثون بها.. كيف أقنعها بهذا؟!

إنني أعرف طبيعتها: ستقول لي: ولكنني أنا لم أقتنع بهذا بعد. أنا من حقي أن تكون لي تجربتي!

ألم يكن هذا هو ما اتفقنا عليه ونحن نجلس على ضفاف بحيرة اللوتس في حديقة الأورمان.. اقرأ لها في كتاب «النبي» لجبران خليل جبران وهو يتحدث عن الحب والزواج: لا تأكلا من رغيف واحد.. فليأكل كل منكما رغيفه.. كونا مثل عمودي الهيكل.. لابد من مسافة بينهما لكي يقدرا على حمل السقف جيداً.. اجعلوا بينكم فسحات ترقص

فيها بسعادة رياح السموات.. ألا تقتلا باسم الحب ثنائيتكما المقدسة التى خلقكما الله بها!!

أجل.. هى لها فى ظل الحب كيانها وشخصيتها.. وأنا أيضا لى فى ظل الحب شخصيتى وكيانى.. هذه هى النظرية المثالية.. فهل يمكننا تطبيقها عمليا على أرض الواقع الذى نحياه ؟!

ورأيت أنها ـ هى ـ تطبقها بالفعل معى.. فما تعرضت لحريتى بأى شيء فى أى يوم.. فهل يمكننى معاملتها بالمثل ؟! أن أتركها تعيش حريتها كما تشاء؟! أن تدخل هذه المنظمات السرية وتعيش تجربتها دون علم منى؟! وإذا بى أحس بالدماء.. دماء الرجل الشرقى تغلى فى عروقى، وأننى أفرط فى أقدس ممتلكاتى، وتذكرت ذلك «الديوث» الذى لا يغار على أهل بيته. وأن لعنة ستحيق بى إذا ماتركتها تسرح فى مجهول أنا الذى كنت فى الأصل المحرض والمشجع الأول لها على دخوله!

وشممت رائحة عاصفة تتجمع عناصرها لتهب فجأة على حياتنا وحبنا.. وقد زكى هذا الشعور فى نفسى معرفتى بطبيعتها الجانحة نحو التمرد والعنف، كرد فعل للقهر الذى عانت منه فى أسرتها وهى صغيرة باسم الحرص والخوف عليها.. فماذا لو أن المحظور قد وقع بالفعل أثناء غيابى فى السجن وارتبطت هى بهم على نحو عضوى؟! ستكون بالقطع مشكلة كبرى.. وتصورت فيما لو وضعت أنا القضية على شكل خيار حاسم: بين ارتباطها بى، وارتباطها بهذه المنظمات.. وعليها أن تفاضل!

وفكرت بأنى هكذا أضع الأمر على نحو تراجيدى.

ماذا أفعل؟!.. كيف أتصرف؟!

غير أن الليالى كانت حبالى فى تلك الفترة بأحداث وطنية وإنسانية أكبر وأخطر وأعظم إثارة.. أحداث لا تقع فى حياة الشعوب والأوطان إلا مرة واحدة كل عدة عقود من الزمان.. فقد تجمعت فيها كل احتشادات الماضى الثورية، ولم تلبث أن تحولت عبر السنين وبفعل قانون التحول من الكم إلى الكيف إلى شىء أشبه بالانفجارات الكونية التى لا قبل لأية قوى مضادة أو مناهضة أن تحول دونها أو تعترض طريقها.. فبضربة واحدة تم طرد الملك وأنهى النظام الملكى وأعلنت مصر جمهورية! وبضربة واحدة أيضا ترنح النظام الإقطاعى وصدر قانون الاصلاح الزراعى.. كما تم إجلاء قوات الاحتلال الإنجليزية وتطهر التراب المصرى منها بعد أن دنسته ثمانين عاما.. كما أعلن بعد السفر إلى باندونج - شعار الحياد الإيجابى فى العلاقات الدولية.. واعترفت مصر بالصين الشعبية الشيوعية، ثم جاء القرار الأخطر، كسر الاحتكار فى شراء السلاح من الغرب، وشراؤه لأول مرة من الكتلة الاشتراكية بل قل الشيوعية!!

أحداث هائلة الوقع، ساطعة الدلالة، تعنى أبسط ماتعنى.. نهاية عصر، اسمه عصر التبعية، وبداية عصر آخر جديد اسمه عصر الاستقلال والحرية.. الأمر الذى كان طبيعيا معه أن يختفى إحساسى بتلك الهواجس الشخصية التى تملكتنى باحتمال أن تكون زوجتى فتحية

قد ارتبطت بإحدى المنظمات السرية!.. هواجس بدت مع الوقع الهائل والمدوى لهذه الأحداث والتحولات الكبرى شيئا تافها وسطحيا وغبيا.. فها هم القادة الكبار لهذه المنظمات الذين عرفتهم أو سمعت عنهم وأنا في السجن يخرجون من مكامنهم تحت الأرض ويتحركون في النور بأسمائهم الحقيقية، وليس الحركية! كما رأيتهم يعلنون ابتهاجهم بتلك الضربات الوطنية والثورية المتوالية، ويعلنون تأييدهم الصريح لعبدالناصر.. وإذا كان هناك ثمة خلاف أو تناقض بينهم وبينه، فهو تناقض ثانوى يجب التغاضي عنه حتى ينتهى التناقض الأساسى المشتعل بين جبهة الثورة وأعدائها التاريخيين!.. وقد كان أخطر ما في هذا التطور الحادث في العلاقة بين الثورة وتحديداً تيار عبدالناصر، وبين الشيوعيين.. والمقتربة من شكل الجبهة غير المعلنة، أن تراجعت من كفاح الشيوعيين ظاهرة السرية.. ولم يعد لها مغزى أو حكمة.. وبدا أن الأصل في النضال المثمر والحقيقي أن يكون في النور علنيا ومباشراً في قلب الجماهير.. أما السرية فهي الاستثناء الناجم جبراً عن ظروف القهر والاستبداد.. وهو ماليس بحادث الان.. فهاهم الشيوعيون يسمح لهم كأفراد ـ بالعمل وتولى وظائف ومراكز رسمية كبيرة.. وكذلك تفتح لهم جريدة يومية اسمها «المساء» تصبح لسان حال اليسار المصرى بل العربي.. رئيس تحريرها كان كادراً قياديا كبيراً في «حدتو»، وفي نفس الوقت رفيقا وصديقا حميما لعبد الناصر.. هو خالد محيى الدين.

تحولات وتطورات ثورية كبرى، بقدر ما كانت تدعو إلى الاستبشار والثقة والأمل، كانت في نفس الوقت تدعو إلى ضرورة اليقظة والتنبه

لاحتمالات الخطر.. فإذا كان أعداء الثورة، بفعل المباغتة قد تقهقروا وانكمشوا فإنما ليعيدوا حساباتهم.. ويدبروا مؤامراتهم العظمى استعدادا للانقضاض الأعظم على الثورة ليمحوها محواً من الوجود! غير أن الثورة كانت، بذلك المخزون التاريخى، وبذلك الطوفان الهائل من التأييد الشعبى، كانت ماضية فى طريقها الذى التزمت به من أول يوم، بفرح وعزم.. وحذر أيضا.. رافضة كل نظريات وتحايلات دهاقنة السياسة القدامى الذين كانوا يرفعون شعار التعقل، داعين إلى فرض الضرائب التصاعدية بدلا من نزع الملكية ومن إصدار قانون الإصلاح الزراعي!!.. كان ثمة صوت عظيم... صوت جديد وشجاع ينطلق عبر البحر الزاخر بالبشر المحيطين به، مفندا ذلك الرأى.. هوصوت جمال عبدالناصر: «إننا لانريد نقوداً للخزانة .. إننا نريد تحرير الإنسان.. نريد للفلاح أن يتملك حتى يصبح حرا ويستطيع أن يقول نعم.. أو.. لا.. فطالما هو يتملك الأرض يشعر بالحرية.. فالحرية ليس معناها برلماناً وقبة برلمان وشعارات ديمقراطية.. الحرية هى حرية الفرد.. إذا استطاع الفرد أن يقول نعم، إذا استطاع الفرد أن يقول لا. هنا يكون حرا.. ولكن الفرد الذى يشتغل فى الأرض عند الإقطاعى، يسير وفق هواه وليس لإرادته أية قيمة. ومن هنا.. كان إصرارنا على إصدار قانون الإصلاح الزراعى، والذى كان من أعنف المعارك التى دخلتها الثورة.. والتى تعلمنا منها كيف أن الثورة السياسية أسهل بكثير من الثورة الاجتماعية!»

كنت أنصت إلى كلماته المرسلة بصوته من خلال الإذاعة عبر الأثير وكأنها سيمفونية ثورية عظية نابعة من القلب مباشرة، وليست

مقروءة من ورقة جاهزة مكتوبة.. وكنت أفكر وأنا أسمعه أو أقرأه في الجرائد وهو يقول: رأيت الشعب.. رأيت العمال الزراعيين.. رأيت عمال التراحيل.. رأيت الفلاحين.. فأحس أن هذا هو ابن مصر الذى عاشت تنتظره عبر عصور القهر والصمت والظلام الطويلة!

ثم كلماته في ذلك اليوم التاريخى العظيم.. يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦ .. والتي كان يبعث بها من مدينة بورسعيد بعد أن رفع علم مصر على مبنى البحرية بعد جلاء آخر جندى من قوات الاحتلال البريطانى، وأنا جالس على المقهى بميدان السيدة زينب قاصداً سماعها وأنا بين الناس: «إن هذا الجيل من شعب مصر على موعد مع القدر.. فمنذ أكثر من ألفى سنة، ووطننا يحكمه الغزاة، والحلم الضائع لأبنائه أن يعود وطنهم إليهم يوما.. ولقد قدر لهذا الجيل أن يعيش ليرى عودة الحلم الضائع.. فها هى آخر فلول قوات الاستعمار قد حملت متاعها ورحلت وتطهرت الأرض منها إلى الأبد».

في تلك اللحظة، وأنا جالس بالمقهى أتفحص خلسة وجوه الناس وقد كساها الفرح والإنشراح، تمنيت لو أجده أمامى فأندفع عليه وأحتضنه حبا وإعجابا وامتنانا.. شاعراً من أعماقى أن مصر قد أصبحت به أغنى وأعظم، والحياة نفسها.. حياتنا.. أجمل وأبهج وداعية للاستبشار والأمل!! وسرعان ما رأيت مصر تترجم هذا الشعور إلى واقع مجسد حى، فأصبح بفضل إجماع ملايين الشعب رئيسا منتخبا لجمهورية مصر.. ثم إذا به يفتتح عصر رئاسته الرسمية الأولى بمعركة خطيرة،

بل قل أخطر المعارك التى قادها ضد قوى الاستعمار العالمية: إعلان تأميم قناة السويس، واعتبارها شركة مصرية تؤول ملكيتها وإدارتها، وكل ما يتعلق بها خالصا تماما لمصر وشعبها!

مَن مِن معاصرى ذلك الحدث الفذ ينسى هدير صيحة الفرح والانبهار والإعجاب التى انطلقت من ملايين الصدور، لا على المستوى المصرى وحده، ولا على المستوى العربى أيضا فحسب.. بل على مستوى شعوب العالم الثالث كلها.. تلك الشعوب التى عاشت القرون مقهورة وها هى ترى بطلا.. إنسانا.. مصريا... يتحدى قوى الظلم والظلام الغاشمة.. ليس بالكلمات والشعارات المجردة، وإنما بالفعل المجسم الحقيقى انطلقت فى صيحة واحدة، تحولت بها ملايين الحناجر إلى حنجرة واحدة.. بهتاف واحد: ناصر .. ناصر.. ناصر.. كرمز للكبرياء.. ولشجاعة التحدى والتصدى.. ولبدء مرحلة جديدة وخطيرة من مراحل النضال.. فالغيلان بعد هذا القرار الخطير بالتأكيد لن يسكتوا على هذه اللطمة.. بل سيعتبرونها الفرصة السانحة التى كانوا يبحثون عنها ويترقبونها كى ينقضوا على الثورة لكى يخلعوها خلعا من جذورها ويسحقوها..

وبالفعل.. لم تمض أيام قلائل على إعلان هذا القرار بالتأميم، حتى كانت البوارج والطائرات قاذفات القنابل الإنجليزية والفرنسية تحتل وتحاصر مدينة بورسعيد.. وارتال الدبابات الإسرائيلية ناشرة قنابل النابالم الحارقة تحتل صحراء وممرات سيناء!!

معارك وتحديات استفزتنا جميعا لكى نتراص ونتوحد ونضع ذلك البطل المقدام في سويداء القلب، وفى حبة العين!.. لقد بات مصيره مع الخطر هو مصيرنا ومصير الوطن كله.. بل ومصير قضية الحرية فى كل مكان!!

فى مثل هذا الجو، كان طبيعا جداً أن تتلاشى وتتبخر تلك المشاعر الغاضبة بل والكارهة التى تولتنى حياله ذات فترة حين سجننى نظامه لمدة عامين.. وأن تنسى أيضا فتحية غضبها مما لقيته من رجاله حين قبضوا عليها أكثر من مرة!.. وهكذا وحدّنا الخطر.. أصبح الكل فى واحد.. والواحد فى الكل!!

إننى الآن أكتب عن تلك الفترة بمنتهى الفرح والانتشاء، واجداً سعادة كبرى فى استعادة تلك اللحظات العامرة بالزهو والثقة بالنفس، ويقدراتنا الروحية على المواجهة والتصدى.. بعد حقب وقرون دُمِغنا فيها نحن المصريون بأننا شعب صناعته الأولى الصبر، وفلسفته العظمى هى التسليم بالمكتوب!

ها نحن بروح الثورة، نمزق كل هذا التراث.. تراث الصبر والتسليم مندفعين ضد التيار.. مستثارين بوقفة البطل على منبر جامع الأزهر صائحا متحديا البوارج في البحر، والطائرات فى الجو، والدبابات فى الصحراء: «سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل.. وإنى لأعلنها على الملأ.. لقد أصدرت أوامرى بتوزيع السلاح على الشعب.. وسنحاربهم من قرية إلى قرية.. وشبرا شبرا!!

وإذا بالقدرات الكامنة والمحبوسة تنفجر والبلاد كلها تموج بكتائب المتطوعين تنشد السلاح والاستشهاد!

ولقد كان رائعا وطريفا، أن تصر فتحية، وهي الحامل في الشهر الثامن أو التاسع أن تنضم إلى إحدى لجان الحرس الوطني التي تكونت في الأحياء الشعبية لتتدرب على استعمال السلاح وعلى مهنة التمريض، والدفاع المدني، لمواجهة أي عدوان مقبل على القاهرة، كما انضممت أنا إلى كتيبة المحامين المتطوعين التي أعلنت النقابة عن تشكيلها شأن كل النقابات الأخرى!!

وبدأت قصص البطولة الشبيهة بالأساطير تأتينا من مدينة بور سعيد التي استبسل شعبها في محاربة القوات الغازية.. وإذا بي أعلم أن مجموعة من كوادر «حدتو» الشيوعية قد نجحت بالمغامرة في عبور بحيرة المنزلة متخذين شكل صيادين، ودخلوا مدينة بورسعيد، وأخذوا بخبرتهم الطويلة في التنظيم يشكلون حركة جادة ومنظمة للمقاومة الشعبية ضد الاحتلال.. ولحظتها انتابني إحساس بالغيرة وبالإحباط.. وفكرت: ربما لو لم أعلن انفصالي من قبل عن تنظيمهم السري، ربما كنت الآن واحداً من هؤلاء الذين انطلقوا في السر ونجحوا في عبور البحيرة ودخول مدينة المقاومة المجيدة.. والتي أصبحوا في كل الجرائد والمجلات يشبهونها بمدينة ستالينجراد التي صمدت لهجوم النازي وردته مدحوراً على عقبيه!! وقد عانيت في تلك الفترة من إحساس عميق بالخجل وبالغضب، أني لا أقوم بفعل يرتفع إلى مستوى خطورة

المعركة.. فماذا تعنى تلك التدريبات العسكرية التى كانت طلقاتها تذهب طائشة فى الفراغ.. وفكرت حينذاك فى الكتابة.. ألا يمكن كتابة شيء.. قصة أو مقال يكون له قوة وفعالية السلاح الضارب والمؤثر فى تحقيق النصر، وبذلك أرضى عن نفسى ويستريح ضميرى!

ولا أطيل فى ذكر تفاصيل تلك الفترة التى تبدو الآن، بعد أن مضى عليها أربعون عاما، خاطفة كومض البرق، لكنها فى الميزان.. ميزان التاريخ هائلة القدر والوزن.. لاتبهت قيمتها بمضى الوقت بل تزداد لمعانا وبريقا مع الأيام.. فلم يكد يمضى شهر ونصف الشهر على اشتعال المعركة حتى كان النصر قد تحقق.. بفضل مساندة أحرار العالم، وفى مقدمتهم الاتحاد السوفيتى للنضال المصرى.. وانسحب الغيلان الثلاثة: إنجلترا وفرنسا وإسرائيل.. مرغمين!!

وبينما كانت مهرجانات الفرح بالنصر تغمر البلاد، كان ثمة شعور رائع آخر يغمر الجميع.. شعور هو خليط من العذوبة والرقة والجلال والتطهير.. أن مصر تولد من جديد، وفى ظل هذا الشعور، يولد لها بطل آخر جديد كانت ترتجيه!!

ثم إذا بحادثة ميلاد أخرى تتم فى نفس الفترة، فقد جاء فتحية المخاض ذات صباح، وكانت عند أمها.. ولم يأت الضحى حتى كانت قد وضعت ابننا الثالث: شريف. وبالجماله وهو يخرج إلى نور الوجود.. كان مستدير الوجه.. مضيئا جميلا كالبدر ليلة التمام!.. وبدا لى أننا فى زمن الميلاد وزمن الانتصارات لا زمن السراديب والظلمات وأننى كنت

على حق فى تفاؤلى يوم حلمت بمجيئه مفكراً بل وموقنا بأن الاشتراكية قادمة قادمة.. وقوى العدل والحرية والسلام هى التى ستسود.

وإذن.. لم لا نعمر عالمنا الجديد المنتصر بأطفال جدد!!

وتطايرت تماما كل الهواجس، من رأسى، مثلما يتطاير الضباب عن الحقول بقوة شمس الصباح..!!

٩

تحولات عاطفية

ومن طرائف تحولاتي العاطفية نحو «عبدالناصر» في تلك الأيام.. أني لاحظت أو قل اكتشفت بفرح من خلال المتابعة والمقارنة، أنه أطول أعضاء مجلس قيادة الثورة قامة، وأوسعهم عينين، وأحدهم في النظرة!!

وبدا لي أن ذلك من تدابير القدر، حين يؤهل الإنسان المختار للقيادة والزعامة، منذ لحظة مولده، بصفات عضوية ينفرد بها.. تساعده وتعينه وتجعل قبوله عند الناس حسناً!!

كما رأيت أيضا أن في اسمه نوعاً من الجرس الموسيقي، والرمزية الواضحة في المعنى.. بالذات اسم الأب: عبدالناصر «المشتق من النصر» وأن الله ناصره!

وحدث ذات ضحى، أن قادتني قدماي إلى المتحف المصري، ومضيت أتجول في أبهائه وأقسامه على مهل.. وإذا بي أتوقف مأخوذاً أمام تمثال لرجل مصري قديم، يتقدم في السير، ممسكاً بعصا.. عاري الرأس، ويرتدي جلباباً فلاحياً قصيراً بعض الشيء يكشف عن مساحة

من ساقيه الطويلتين.. وياسبحان الخالق الناطق.. هو عبدالناصر مائة في المائة.. وجهاً وقامة وعزماً ومهابة.. ولحظتها ترسخت في نفسي مصرية عبدالناصر على نحو أنثروبولوجي.. وأنه منحدر من سلالة فرعونية قديمة.. لاتزال تضرب بجذورها في الأرض المصرية.. يزكي هذا أن أصول عائلة أبيه نبتت في الصعيد.. في قرية أسمها «بني مر».. قريبة جداً من جبل عتيد اسمه «جبل المعابدة» قرب أسيوط!! ويالها كلها من أسماء ومواقع تدخل في باب الرموز!!

أجل.. كنت في تلك الفترة مهيئًا لقبول هذا النوع من الفكر الأسطوري.. معجبًا أشد الإعجاب به، رابطًا بين انتصارات الثورة بقيادته، وبين رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم التي كتبها بوحي ثورة ١٩١٩ .. حالمًا بثورة مصرية جديدة تحقق ما عجزت الثورة الأولى من تحقيقه وإنجازه!!.. ثورة يكون شعارها الأول: «الكل في واحد.. والواحد في الكل.. وليصير الكل بعد ذلك إلى خلود!!..» وتلك كانت على ما أذكر جملة تصديرية للرواية.. جملة افتتاح!!

ولقد أبهجني أيامها أن أعرف أن جمال عبدالناصر قد قرأ هذه الرواية في شبابه الباكر وتأثر وجدانياً بها، إلى حد أنه عكف على كتابة رواية على شاكلتها.. اسماها: «في سبيل الحرية».. محورها واقعة تاريخية حقيقية، هي غزو الإنجليز لمدينة رشيد البحرية، ثم معارك الشعب الملحمية ضدهم.. حتى تم الجلاء وتطهرت الأرض والمياه المصرية منهم!!

الطريف أيضا - على ما أذكر - أنه أسمى بطل روايته بنفس اسم بطل رواية «عودة الروح»: محسن!!

لم أبتهج فحسب لهذا الاكتشاف، بل داخلني شعور بنوع من القربى الخاصة والحميمة معه، إذ رأيت فيه - بجوار أنه محارب ومناضل سياسي - يعيش فيه الفنان والروائى.. وأنه رجل حالم مثلى.. حالم بجلائل الأعمال!!

ولقد عكف عبدالناصر على هذه الرواية وقطع فى كتابتها شوطاً، ثم لم يكملها!!.. الذى أكملها بعد ذلك على الورق كاتب وقصاص مصرى، هو الصديق عبدالرحمن فهمى.. فى إطار مسابقة عامة أجريت لذلك.. وكان هو الفائز الأول فيها.

أما المؤلف الأصلى - جمال عبدالناصر - فقد أكملها.. ولكن على نحو آخر.. لم يكملها بكلمات على الورقة.. وإنما بالسلاح.. سلاح الفدائيين المصريين الذين اندفعوا بقيادته وهم يخوضون معركة التحرير ضد ذلك الغزو التترى الجديد.. العدوان الثلاثى.. حتى تم الجلاء بالفعل.. وعادت مصر حرة مستقلة!! .. وتألقت فى نفسى روح الأسطورة.. فها هو حلم أبينا الكبير «توفيق الحكيم» أو قل نبوءته الروائية تتحقق: فالكل أصبح فى واحد.. هو عبدالناصر.. والواحد أصبح فى الكل.. محتضنا بين الضلوع.. ضلوع أحرار مصر والعالم أجمعين!!

وبينما الروح مترعة بذلك الإحساس البهيج.. إذا بقرار ثورى جديد يعلنه عبدالناصر كان بمثابة ضربة الإجهاز الأخيرة على الإمبراطورية

الآخذة شمسها فى الأفول!!.. فقد أعلن على العالم كله إلغاء البند الذى سبق أن ارتبط به وهو يوقع اتفاقية الجلاء ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ .. والقاضى بأن مصر ملتزمة بالدفاع المشترك مع انجلترا فى حالة أى هجوم مسلح من أية دولة على أى بلد يكون طرفًا فى معاهدة مع انجلترا.. مثل تركيا.. ذلك البند الذى أثار غضبى يومها واعتبرته تخاذلاً وتفريطاً من عبدالناصر، وكان أحد الأسباب الأساسية التى بنيت عليها إدانتى له وهجومى عليه!!

ها هو يلتقط الفرصة.. فرصة عدوانهم الغادر وفشلهم فيه، فيعلن التخلص من هذا الالتزام.. وبهذا مزق آخر خيط كان يربط مصر بالأسد البريطانى العجوز!!

لحظتها - مازلت أذكر - امتزج الفرح فى نفسى بالخجل، فقد بدا أن هذا القرار هو فى نفس الوقت صفعة لى ولكل الذين هاجموا عبدالناصر واتهموه فى وطنيته وهو يقبل بذلك البند كشرط لتوقيع اتفاقية الجلاء!! يومها عرفت أن النضج فى السياسة مثل النضج فى الحياة العامة ليس اكتسابه أمراً سهلاً.. بل يحتاج التجربة والتأمل العميق الهادىء، والعقل الكبير المتفتح والقادر على نقد الذات من أجل الوصول إلى الكمال، والسير على الطريق المؤدى إلى تحقيق المثل الأعلى.. وعاهدت نفسى أن أعى الدرس جيداً: أن السياسة حقاً هى فن الممكن.. وأن ما هو غير ممكن فى لحظة، يمكن أن يكون ممكناً فى لحظة أخرى إذا ما تغيرت الظروف.. وأن أبشع ما يرتكبه المرء هو الإسراع بتسديد الاتهام للغير بالردة والخيانة والعمالة إذا ما خالفونا فى الرأى.. وهو مابدر منى

حين وقع عبدالناصر على الاتفاقية، متضمنة ذلك البند الذى مزقه فى أول فرصة وبات فى ذمة التاريخ!!

فى هذا الجو الفياض بالفرح وبالتفاؤل العام، اصطحبت فتحية والأولاد وذهبنا إلى «ميت خميس».. لننعم بحنان الأم وخيرها العميم وهناك تأكد لى صدق الأسطورة على وجه اليقين: وهم يمدون أنابيب المياه النقية إلى قريتنا بعد الاف من السنين عاشها المصريون يشربون ويغتسلون بمياه الترع والقنوات.. وهاهم أيضاً يقيمون أبراج الكهرباء العالية ويمدون شبكة هائلة عبر الحقول والجسور لإضاءة سائر القرى والكفور والنجوع.. وآه.. وألف آه.. من تلك الظلمة التى كانت ومازالت تكفن قريتنا بالسواد ولا نعرف من الليل بسببها غير الخوف والأشباح ومطاردة العفاريت!!

وفى تلك الزيارة، وزيارات أخرى أعقبتها، تفجرت فى نفسى أشجان حياتى الماضية، بالذات أيام الطفولة والصبا، وتحولت إلى قصص قصيرة انصبت منى على الورق، حاملة فى مجموعها نبض الثورة وروح الأمل والدعوة إلى التغيير.. وأن الثورة إذا كانت تقوم بعملية إضاءة المكان، فالقصص لابد أن تكمل الرسالة بإضاءة الوعى والروح.. وبهذا الإحساس انبثقت منى قصة «الفانوس».. رمزاً لارتباط الظلمة.. ظلمة الليل، وظلمة القرون، بظلمة الجهل وسيطرة الخرافة.. وارتباط النور.. نور الكهرباء. بنور العقل والوعى الحضارى!!

وفى إطار هذا الرمز أيضا «كتبت قصة» الأرنب «الأرنب الأسود» التى أوحت لى بها فتحية وهى تحكى لى إحدى وقائع القهر التى

شهدتها تقع على المرأة فى الريف.. وكانت المرأة المقهورة هى «أختى سكينة».. أما القاهرة فكانت «أمى» التى تمثل فى تصرفها كل سيطرة القديم بما يحمل من تسلط وجبروت!!

كما جاءتنى فكرة قصة «جفت الأمطار» التى تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائى أنتجته الدولة، ويدور الصراع فيه بين روح الجمود والثبات على القديم، وبين روح التمرد والانطلاق إلى أرض جديدة.. نعمرها.. ونتنفس هواءها الجديد!!

كانت فكرة التغيير والتمرد على القديم الراسخ هى الدينامو الثورى المولد والمفجر للطاقة الإنسانية الكبرى التى تدفع بالحياة دفعًا إلى الأمام.. ملقية بكل أشكال الماضى، دون خوف من عقاب أو إحساس بندم آت!! كان وجه القرية وهواؤها وملامح بشرها.. الرجال والنساء اللاتى نلن حق الانتخاب والترشيح أيضا لأول مرة.. كنت أرى الملامح البشرية، وقد أخذت خطوطاً ومعانى أرقى وأجمل، وأنا أشاهد السكة الزراعية كل صباح وهى تموج بأولاد الفلاحين صبيانا وبنات وهم يذهبون أفواجًا أفواجًا إلى مدارس البندر.. بعد أن كان أبناء عائلة واحدة فقط هم وحدهم الذين يتعلمون!!

كما أذكر أيضا، من واقع تلك الفترة، أنى لاحظت، وبسعادة كبرى، أن ظاهرة «الحفاء»، وظاهرة «التسول» قد اختفتا تماماً من كل البلاد.. كأنما كان ذلك استجابة وتطبيقا لصيحة ناصر العظيمة بممارسة الكبرياء والعزة: ارفع رأسك يا أخى، فقد مضى عهد الاستعباد!.. ولم أعد أرى الفلاح يهبط خاشعًا من فوق دابته وهو يمر فى طريقه على

أحد الأسياد.. فالألقاب ألغيت، وأصبحت رمزاً بغيضاً لعصر الاستعمار التركي، تماماً مثل الطربوش الذي قذف به إلى حيث ألقت «أم قشعم»!!.. وأن تكون فلاحاً أو عاملاً ذلك شرف عظيم، وانتماء إلى السادة الجدد. الذين يسودون بالكدح، وبالعمل وبالمشاركة في خلق وطن جديد يكون مثلاً أعلى لأبناء أوطان العالم الثالث الأخرى.

كان ذلك هو الحال في القرية، وإذا به يتأكد على نحو أرقى وأوضح حين عدنا إلى القاهرة العاصمة.. مدينة تتيه وتزهو بنفسها وبانتصاراتها، ولا مثيل لها في الشرق الأوسط.. تموج بالأحرار الآتين لها من كل بلاد العالم.. فرادى ووفوداً يحجون إليها.. وآه لو يتم لقاء مع ذلك الذي بدأ يأخذ شكل الأسطورة: عبدالناصر!!

وها هو اليسار الماركسي العلني ممثلاً في جريدة المساء اليومية، وكذلك اليسار الوطني والقومي ممثلاً في مجلة «روزاليوسف»، أضحى هذا اليسار بمختلف أجنحته هو النغمة الشرعية العفية الملائمة لحياة ما بعد الانتصار.. في القصة، في المقال، في الأغنية، في المسرح، في السينما.. وفي كافة المجالات.. وبدا، بما يحمل من روح التمرد والتحدي والطموح، أنه الضمان لتأكيد الانتصار وبقاء الثورة مستمرة!!.. وتكون تلقائياً ما يشبه الحلف الضمني غير المكتوب بين أقسام واسعة من اليسار وبين الثورة بقيادة عبدالناصر.. وكان أجمل حصاد جنيته من هذا الحلف الجديد، أني وجدت المجالات كثيرة ومفتوحة لنشر قصصي وباسمي الحقيقي.. وانتهت المرحلة إياها.. مرحلة النشر باسم مستعار، محتفظاً منها في نفسي بأجمل ذكرى

للرجل الشهم الطيب، الفنان والإنسان «مصطفى أمين» الذى أعطانى دفعة ثقة كبرى وقت الشدة!!

وتوالت قصصى المنشورة فى «روزاليوسف» و«المساء» و«الجمهورية» ومجلة «الإذاعة».. خرجت كل القصص التى كتبتها فى فترة التشرد والبطالة من ظلمات الأدراج وأخذت طريقها إلى النور بيسر وسهولة.. وبدا لى فجأة أن المشكلة لم تعد فى النشر، بل إن النشر ذاته بإغراءاته أصبح يشكل الخطر الأكبر: أن أستسهل وأدفع بالعمل قبل أن ينضج.. وعرفت معنى الخوف على اسمى.. وأن كرامتى وكبريائى مرتبطان بتجويدى لعملى.. فلأظل على روحى النضالية الصبورة، محولاً الجهاد والضنى فى الفن إلى إحساس عميق بالمتعة والفخر.. حالماً وداعياً بأن يهبط الوحى علىّ ذات يوم، ويلهمنى القيام بعمل لم يأت بمثله فى مصر كاتب من قبلى!!

فى تلك الأيام، كانت فتحية ماضية فى حياتها فرحة مرحة، تستمد سعادتها من سعادتى، ونجاحها من نجاحى، وكذلك من إحساسها بأنها مقدم سعد وبركة علىّ.. فها هى قصصى يتوالى نشرها واسمى عليها.. فتضعها أمام الأولاد وتشير لهم على الكلمات والرسم والتوقيع: شايفين.. أهى دى قصة بابا.. هو اللى كاتبها.. وده اسمه.. شايفين شكل أسمه جميل إزاى!!

ولأن القصة القصيرة الجيدة فى تلك الأيام التى لم يكن قد ظهر فيها التليفزيون بعد والكلمة الأدبية اللامعة هى المرموقة والمحسوب

حسابها على أعلى المستويات.. لأن القصة القصيرة هذه كان لها وزنها ودورها ودويها المسموع على البعد، فقد كانت تقيم لنشر كل قصة احتفالاً صغيراً ندعو إليه الأصدقاء الجدد من الكتاب المصريين بحب هذا الشكل من الفن مثلي: شوقي عبدالحكيم، وصبري موسى، وصالح مرسي، وفهمي حسين، وعبدالرحمن فهمي، وفاروق منيب، وعبدالقادر حميدة، وبدر نشأت.. ومحمد صدقي، ونعقد مناقشة حولها!!

ولم تكن تحتفل بنشر قصصي وحدي، بل وبقصص الأصدقاء أيضًا.. وكان كل حفل يضم مائدتين.. مائدة الفن والمناقشات.. ثم مائدة الطعام التي كانت فتحية تتفنن فن إجادتها، حتى أصبحت أمنية كل واحد منهم أن يحظى بعشاء عندنا مع مناقشة قصة له!

وسمعت أيامها بندوة يعقدها نجيب محفوظ في كازينو أوبرا كل يوم جمعة فساورني الفضول لرؤيتها.. ولم أكن قد قرأت بعد ثلاثيته الروائية (بين القصرين)، فقررت ألا أذهب إلى هذه الندوة إلا وقد انتهيت من قراءتها.. ونقلت الفكرة لفتحية فتحمست جداً لها، وأبدت رغبتها في مشاركتي قراءة الثلاثية.. انتهى من جزء فأعطيه لها، وأبدأ في الثاني.. وهكذا.. حتى انتهينا منها في سرعة قياسية!! وذهبنا إلى الندوة!! أصبحت أنا عضواً أساسيًا ومنتظماً فيها.. أما هي فنظراً لكونها أما لأولاد ثلاثة، فلم يكن في إمكانها المواظبة على الحضور.. إلا بين الحين والحين!!

وفي البدء كانت تجلس صامتة.. تنظر وتسمع وترقب فحسب، ثم تدريجياً جعلت تشترك في مناقشة القصص التي كان أصحابها يقرأونها في الندوة.

كانت فرحة بهذا النشاط، وبهذا اللون من الحياة ، يظللها إحساس بالرضا العميق عن النفس.. إنها هي التي لم تكمل تعليمها الابتدائي، أضحت تشارك ضمن أعلى المستويات فناً وأدباً وثقافة.. مسلحة بوجهة نظر يسارية علمية اكتسبتها أساساً من كتب «سلامة موسى» الذي وهبناه الشهور من عمرنا.. وبات صديقاً دائماً في مكتبتنا.

كما تعالت ثقتها بنفسها حين نشرت لي قصة «الأرنب الأسود».. وحققت نجاحاً كبيراً وسريعاً.. إذ نوه بها الدكتور رشاد رشدي رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية اداب القاهرة، كما ترجمها الدكتور لويس مرقص إلى الإنجليزية، ونشرها في إحدى المجلات المصرية التي تصدر بالإنجليزية ، والذي يرأس تحريرها رشاد رشدي.. ثم فوجئت بأنه قرر تدريسها لطلبة القسم، كنموذج مثالي لكتابة القصة القصيرة!

أحدثت هذه الواقعة فرحة كبيرة في حياتنا نحن الاثنين على نفس المستوى.. ذلك لأن لقطة هذه القصة كانت هي التي أوحت لي به!!

يالها من مرحلة وردية كانت على مستوى الوطن، وعلى مستوى الحياة الشخصية.. فقد فوجئت بذلك الخطاب الذي أشرت إليه من قبل، يأتيني من روما.. من فنان ومناضل كبير استطاع الهرب من مصر بعد أن سجنه نظام عبدالناصر فترة.. يهنئني على قصة قصيرة لي

قرأها بالصدفة فى جريدة المساء.. اسمها داود الصغير.. ويحلم بالتلاقى والعودة إلى الوطن.. وأن هناك ثمة تباشير تعطى إمكانية تحقيق هذا الأمل!!

كما حدثت واقعة جديدة أبهجت قلبى وقلبها.. فقد التقيت مصادفة باللواء «يوسف صديق» عضو مجلس قيادة الثورة السابق» والذى لعب دوراً شجاعاً وحاسماً فى نجاح ليلة ٢٣ يوليو.. بل وإنقاذ عبدالناصر نفسه ومعه عبدالحكيم عامر» من مأزق خطير وجدا نفسيهما فيه.. قابلنى صدفة وإذا به يشد على يدى مبدياً إعجابه بقصة قرأها لى فى «المساء» اسمها «أو نجلش» تدور حول عملية اختطاف كلب يملكه أحد الرعايا الإنجليز يقوم بها بعض أولاد الفلاحين مستعينين بكلبة يملكها أحدهم وينجحون: البسمة مع رمز الانتصار!!

وانتقلت إليها بالطبع فرحتى.

كان هذا هو النبع الأكبر لفرحها ورضاها واستبشارها: نجاحى فى الكتابة.. وكونها راعيتى وقارئتى وملهمتى وناقدتى الأولى.

وبينما الحياة تمضى بنا أنا وهى على هذا النحو.. إذا بها ذات مساء تدخل علىّ حجرتى واجمة شاردة النظرات على غير عادتها.. كانت عائدة لتوها هى والأولاد بعد يومين قضتهما عند أمها.

- مالك يا فتحية؟

- ولا حاجة.. (وأشاحت ببصرها عنى) عن إذنك أغير هدومى.

واستدارت لتخرج، غير أنى أمسكت بها مستبقياً إياها.

- لازم تقوليلى فيك إيه.. أنا واثق أن فيه حاجة مزعلاك.

وأغلقت باب الحجرة علينا كى لا يسمعنا الأولاد.

وما أغرب ذلك الذى حكته لى، فقد رأيت الشر يتحرك ويسعى خلفنا.. فى المرة الأولى.. كان «خطاب الفتنة» الذى جاءنى بعد خروجى من السجن ليزعزعنى فى حبها، وفى هذه المرة يجيئها هى مجسمًا على شكل خطاب شفهى.. كلمات مباشرة غاية فى الخبث والدهاء.. قالها لها، بل قل طعنها بها، قريب لها إثر مناقشة عامة دارت بينهما: على فكرة.. أنت ما عدتيش فتحية.. أنت بقيت عبداللايه!!.. مش بس فى أفكارك.. حتى كمان فى حركاتك ولفتاتك.. لكن فتحية الحقيقية.. فتحية البسيطة الذكية التلقائية.. ما عادلهاش وجود.. معلهش.. من النهاردة حاسميك عبداللايه!

ورغم أنها أفحمته فى أول الأمر بردها.. أنها سعيدة بأن تصبح عبداللايه.. بل وتفخر بذلك.. عبدالله الزوج والأب والحبيب وخريج الجامعة والكاتب والمفكر المنتمى لقيم ثورية شجاعة.. إلا أنها فجأة.. وهى تستعيد الحوار فى الليل وهى نائمة عند أمها.. إذا بالجملة المسمومة الغريبة تعاودها.. ترن حروفها فى رأسها: أنت ما عدتيش فتحية.. أنت بقيت عبداللايه.. فتحية الحقيقية.. ما عدلهاش وجود!!

وإذا ثمة رعشة تصيبها.. ورأت أن المعنى، حتى إذا كان صادرًا منطلق الحقد والخبث، فإن فيه قدرًا من الحقيقة ومن الصدق... وإذا بها تسأل نفسها: نعم.. من أنا الآن؟! من أكون؟! من أصبحت؟!

أنا لم أعد أستمد حياتى وكلماتى إلا منه.. لم أعد غير أسطوانة لا تدور إلا بما يقـوله هو وأحـفظه منه!!.. هل يمكنني تصـور المعنى الحقيقى لهذا؟!

وإذا بمشاعر غريبة ومخيفة تنتابها. إنها لم تعد حقيقة. بل انعكاس لصـورة آخـر.. حـتى كـادت ترى وجـهـها فى المرآة على شكله.. وساورتـها لأول مـرة مـشاعـر تدخل فـى باب العداء والكراهيـة نـحو حبيبها.. فاستهولت الأمر.. أين الحقيقة؟! وأحست بالدوار.

- أنا دايخة.

تلقيتها على الفور فى صدرى، كما يتلقى الأب ابنته ويعطيها القوة والأمان.. ورغم كل الكلمات التى مضيت أطيب بها خاطرها.. أن فى الحب العظيم لا أحد يلغى الآخر.. بل نحن نتكامل.. نحن نصفان فى واحد.. وإذن لابد أن نتوحد فى الرؤية وفى المشاعر.. و.. و.. رغم هذا .. رغم ما بدا لى فى لحظة أنها استعادت طمأنينتها النفسية، إلا أنها لم تلبث أن سقطت مـريضـة، ولزمت الفراش.. تارة فى بيتنا، وتارة فى بيت أمها.. وبدأت مرحلة صعبة وشاقة فى دنيا الأطباء.. لكنى كنت الوحيد الذى يعرف سر مرضها.. ويعرف أيضاً سر الشفاء.

١٠

أفتح القمقم..
أم لا أفتح؟!

تلك كانت واحدة من أخطر وأقسى المراحل التى مرت بحياتنا أنا وفتحية.. مرحلة مرضها!!.. وأقول مرحلة، ذلك لأنه استغرق فترة زمنية كادت تبلغ عامين أو ثلاثة، وإن كان على آماد متقطعة.. ولأنه أيضًا - كما أدركت فيما بعد - كان شيئًا حتميًا لابد أن يكون.. فهو لم يكن مرضًا عادياً، وإنما - فى صميمه - أعراض حمل من نوع جديد يحدث ويتكون بداخلها، دون أن تعلم ماهيته ولاتصدق إمكان حدوثه!!

ويمكن الاستشهاد، هنا ببيت الشعر القائل:

وإذا كانت النفوس كباراً..

تعبت فى مرادها الأجسام..!

وما أكثر ما عز على أن أراها، هى التى كانت البسمة قرينتها منذ أن تفتح عينيها فى الصباح إلى أن تغمضهما فى الليل.. آراها والنضرة التى كانت تكسو وجهها، تغيض وتنطفئ، وثمة دمعة جامدة ثابتة فى عينيها تقاومها حتى لاتنزل، وهى ترى أنها أربكت حياتى، وأرهقتنى بمرضها.. بالتنقل بين الأطباء والمستشفيات لإجراء الأشعة والتحاليل،

وبين بيتنا وبيت أمها الذى استقر قرارنا أخيراً أن تقيم فيه كى تحمل أمها عنها عبء مسئولية الأطفال الثلاثة.

ينتابنى الشجن لذكرى تلك الأيام.. افتح أحد الأدراج حيث ترقد بعض أوراقى القديمة.. أقلب فيها لعلنى أعثر على ورقة أذكر جيداً أنى كتبتها في هذه الفترة.. يخفق القلب فرحاً إذ أجدها.. بلونها الحائل بفعل الزمن.. والرائع أنها تحمل عنواناً أعلى الصفحة: كما عشنا صبانا معاً! كأنى أسجل لحظة للزمان!!

تجرى عيناى على السطور:

بعد منتصف الليل..

دخلت بيتى..

كنت وحدى.. والبيت خال

زوجتى مريضة عند أمها..

والصغار الثلاثة وراءها..

رحت أدور حول نفسى..

لا شىء غير أشباح وذكريات..

وطنين صمت

فجأة..

أحسست بسكون البيت هو سكون الموت..

ماذا لو خلا البيت من حبيبتى..

وأحسست بقلبي ينفطر من البكاء..

انتفضت مفزوعاً أبعد الكابوس..

لا.. لا.. إنها تعيش.. حبيبتي تعيش..

وصغارنا الثلاثة حولها..

يا حبيبتي السمراء..

يازهرتي في الصيف يازهرتي في الشتاء..

إنني أدعولك بالشفاء..

وبطول العمر..

لنعيش شيخوختنا معا..

كما عشنا صبانا معاً..

وكأنما الرسالة وصلتها، عبر ذبذبات وتموجات الروح، تلك الشفرة السرية المتعارف عليها بين الأحبة، فيدرك الواحد بالإلهام ما يحدث للآخر.. يصله النداء رغم المسافات، وفي الحال يبعث بالجواب.

وعادت فتحية إلى البيت.. وبعودتها انهزم الشر.. فقد أصبحت أكثر إشراقاً وحماساً.. ولم نفتح ذلك الموضوع ولو من بعيد، بل حرصنا على تناسيه.. وبدا الود منها مضاعفاً، كأنما تعتذر عن تلك الزوبعة الكئيبة التي آثارتها متأثرة بكلمات قريبها.. قاصداً زعزعة علاقتنا.. وأنها للأسف حملتني ذنباً لم أقترفه.. وأنه ماكان عليها أن تعبأ بمثل ما

قال.. وألا تدع أى شيء بفتح أمامها أبواب السخط على حياتها.. ألا تفقد أجمل خصيصة فيها: الرضا!

ولم أكن قد أطلعتها على تلك السطور التى كتبتها فى غيابها.. أنستنى الفرحة بعودتها أنى كتبت شيئًا.. إلا أننى فوجئت بها تمسك بالورقة.. عثرت صدفة عليها، وإذا بها تصيح فرحًا، وقد عاد إليها دلالها: دى وثيقة خطيرة يا أستاذ.. سجلتها على نفسك.. وثيقة حب.. حاحتفظ بها عشان أطلعها لك فى الوقت المناسب.. (ثم بعد لحظات ومن أعماقها) عارف أجمل ما فيها إيه؟!.. اخر سطرين.. (ورددتهما بإيقاع) لنعيش شيخوختنا معاً.. كما عشنا صبانا معاً.

واندفعنا تواصل حياتنا بحماس أعظم وبهجة أكثر!!

لم يكن شيئاً غريباً عليها، أو غير مألوف منها، أن تندفع فى إحدى الحكايات بمنتهى الحماس وهى بالكاد تدلف من الباب عائدة لتوها من الخارج وقبل أن تغير ملابسها: أما النهاردة وأنا راكبة ترماى ٤ سمعت حكاية لكن فى منتهى الغرابة.. ولا الأفلام.. ومضت فى الحكى كأنما تخشى أن تنسى هذا الذى سمعته ورأته، أو أن يبرد إحساسها به.

وإذا بى، منفعلاً بما حكته، وجدتنى أقول لها، بنفس حماسها:

- هل تقدرى تكتبى اللى حكيتهولى ده؟! تكتبيه زى ما حكيتيه بالظبط بالظبط؟!

- طبعاً أقدر.. جاء ردها الفورى وبثقة شديدة

- إذن وريني.. المهم تكون الكتابة بنفس التلقائية اللى حكيتيلى بها.. بنفس البساطة اللى الناس كانوا بيتكلموا بها.. بنفس الجمل والتعابير الشعبية اللى قالوها.. التعابير اللى تعطى طعم الشخصية وإيمانها العميق بالخرافة. وياريت كمان أحس بالجو اللى الحوار داير فيه.. أسمع صوت الكمسارى وهو بيطلب التذاكر.. أسمع جرس الترماى وهو ماشى.

لو حققت ده، تبقى حطيت الأساس الكافى لتمثيلية إذاعية فى منتهى الظرف والجمال.. تدخل فى باب الكوميديا.. الهادفة.. وأراهنك أنهم حيقبلوها فى الإذاعة.

اتسعت نظراتها شغفًا ولهفة وطموحاً بحلم مجهول لم تجرؤ على الاقتراب منه حتى الآن!! ومضيت أعطيها الشجاعة أن تجرب.. تقتحم المغامرة: ليه لأ؟!.. أنت عارفة أن العمل الإذاعى قايم أساسًا على الاستماع.. على مخاطبة الأذن.. وأن الدراما فيه قايمة على الحوار.. وأنت بالسليقة بتجيدى الحوار.. بالنسبة للدراما.. ممكن وضع اليد عليها.. إنك تحددى اللقطة الأساسية لموضوع التمثيلية.. المقدمة المنطقية.. زى ما بيقول «نيكولا الاراديس» فى «أشهر المذاهب المسرحية».. طبعاً فاكرة.

كنت واثقاً - وأنا أحرضها وأقنعها بهذا، أنى لا أحرث فى البحر، بل فى أرض خصبة وعفية وعطاءة.. كنت دائم الإحساس طوال سنوات عشرتنا، أن فى أعماقها ونسيجها قدرات كامنة مكبوتة يجب استخراجها وتوظيفها.. وأن أعظم هذه القدرات تتمثل أساسًا فى

امتلاكها موهبة التعامل مع البشر.. أية حركة لها مع الناس ووسط الناس لابد ناجحة مرموقة.. وكثيراً ما فكرت أيام فترة البطالة والتشرد، أن أبيع قطعة الأرض الباقية لي من تركة أبي، وانشيء بثمنها مشروعاً تجارياً ما.. يحقق ربحا يغطي احتياجاتنا المادية!!.. فكرت ذات مرة أن انشئ دار سينما صيفية.. وتديرها هي.. وفي مرة أخرى خطر لي أن نأخذ الأولاد ونقيم في القرية، ونقيم مشروعًا لتربية المواشي والدواجن.. وتتولى هي الإشراف عليه!!

ولم أكن وحدي الذي يحس فيها بتلك الطاقة الخفية الكامنة على الإبداع والإنجاز.. فقد سمعت زوجة عمها، صاحبة شاليه المندرة، تصفها ذات مرة بقولها: دي الباتعة!

بما يعني تلك القدرة الإنسانية غير العادية على إنجاز اثقل المهام بيسر وسهولة وانسيابية.. بما يوحي أن مختلف العناصر الظاهرة والخفية تساعدها على ذلك.

الأمر الذي تذكرت معه تلك الواقعة الشبيهة بالمعجزة، والتي تحققت مع أمي على يديها.. معجزة شفائها من آلام الروماتيزم الرهيبة التي كانت تعاني منها لسنوات طويلة.. حكاية طريفة تدعو للابتسام وتستحق أن تحكي.

كانت أمي في زيارة لنا.. تكاد تكون الزيارة الثانية بعد خروجي من السجن.. وإذ رأت فتحية الألم الهائل الذي عانته حتى صعدت إلى شقتنا بالدور الثالث، تذكرت ثمة وصفة سمعتها ذات مرة، ومن فرط

غرابتها لم تنسها، بل أحست بأن من الممكن جداً أن يكون فيها عنصر الشفاء.. فلماذا لا تجرب؟!

وقررت أن تفعلها.

كانت الوصفة في ظاهرها تبعث على الضحك والسخرية، فكيف يمكن أن يكون «نخاع الحمار» هو إكسير الشفاء، ولماذا الحمار بالذات دون سائر الحيوانات؟! ثم تلك العملية الغريبة التي يتم بها الحصول على هذا النخاع؟! أمر عادي جداً.. وسهل جداً.. في حديقة الحيوانات، في أحد أيام الأسبوع، يوم يذبحون فيه عدداً من الحمير، يقدمون لحمها وعظامها طعاماً للأسود والنمور، لكنهم يحتفظون من الحمير بتلك المادة النادرة التي تشكل عصب القوة والاحتمال في الحمار وهي النخاع.. يتعاملون معها باحترام وحساسية شديدين.. فيضعونها في زجاجات تكون من حسن حظ أي مريض يشتريها..

تلك هي الحكاية كما سمعتها فتحية.. ثم كما نفذتها بالفعل.. ذهبت إلى الحديقة في يوم الذبح المحدد، والتقت بمدير الحديقة ورجته أن يساعدها في الحصول على النخاع.. وسرعان ما اكتشفت أن الأمر لا يحتاج إلى رجاء.. فالزجاجات متوافرة لمن يريد.. واشترت زجاجتين.. عادت بهما إلى البيت، دون أن تعلم أمي بحقيقة الأمر!!

مازلت أذكر ذلك اليوم.. كانت تفيض حماساً وحيوية واستبشاراً.. وتوجهت إلى أمي: نينة.. لقيت لك دوا عظيم للروماتيزم.. تسمحي تعطيني رجليك.

وكنا فى فصل الشتاء.. والشمس فى ذلك اليوم ساطعة والحجرات دافئة.. ومدت لها أمى ساقيها بصعوبة وهى تئن.. وراحت هى تصب من الزجاجة.. فى كفها.. مادة تلمع وتبرق كالبهريز.. ومضت تدلك لها بكلتا يديها.. بذلك النخاع.. مرة واحدة فى ذلك اليوم.. ثم مرتين فى اليوم التالى.. مرة فى الضحى.. والثانية فى الليل قبل أن تنام.

وما أغرب ما فوجئت به فى اليوم الثالث.. فى الصباح الباكر.. إذا بمنظر لم أره منذ سنوات.. أمى واقفة أمام حوض غسيل الوجه... مشدودة القامة.. ترفع ساقيها إلى الحوض دون أدنى ألم وتتوضأ.

يا إلهى.. هل يمكن هذا.. وبكل هذه السرعة؟!

وأسرعت جريا إلى فتحية النائمة فأيقظتها وصحبتها على أطراف أصابعها لترى المنظر.. وإذا بها تقفز من الفرح، بل وتكاد تزغرد وهى ترى أمى تسير بخطوات ثابتة، وتصلى وتلهج بالشكر لله على الشفاء.

ولم نكد نتشارك فى الفرحة، حتى فوجئنا بها تخبرنا بأنها ستعود اليوم إلى البلد.. فما أسعدها أن تعود إليها سائرة على قدميها.. ومضت تدعو لها من أعمق الأعماق.

أجل.. فتحية البائعة.. بحبها الفطرى للعطاء.. بقدرتها على الإنجاز.. وإذن من يدرى .. قد تنجح هذه المرة وأنا أطرح عليها هذا الاقتراح بحماس.. أن تكتب ماتقول.. كما تقول.. فربما.

وتركتها.. ومضيت لحالى!!

ماكدت أستيقظ صباح اليوم التالى، مبكراً كعادتى، حتى فوجئت بها جالسة فى الشرفة الصغيرة، واضعة أمامها منضدة صغيرة وتكتب..

بالمنظرها.. وهى ممسكة بالقلم تكتب.. (وفى سرى) ما أجملك كاتبة يافتحية.. (وجالت بخاطرى فكرة انتشيت لها) مثلما أبدع قصة، هل يمكننى أن أبدع كاتبة؟! إنه لشىء رائع أن يحدث هذا.. وأكاد أراهن على نجاحه.. فهى تملك القدرة على التخيل.. وكذلك الشجاعة على التعبير بحماس ودون وجل!! ثم بعد ذلك الدربة والخبرة واكتساب أسرار المهنة بأصولها العلمية!

وأحست بى فرفعت رأسها عن الورق ملتفتة نحوى، وقد سطع وجهها وتوهج بفرح غريب: خلاص.. كتبتها.. زى ماقلت لى بالضبط.. سهرت عليها طول الليل.. يارب تعجبك.. بس بعدما أبيضها.

فى تلك اللحظة، وأمام ثقتها الغريبة هذه، انتابنى شعور جد غريب ومخيف: أنى إزاء جان أو مارد فى قمقم ويتوق للخروج والانطلاق.. وأننى فى اللحظة الحاسمة.. لحظة القرار الخيار حيث الأمر بيدى.. فبمنتهى السهولة، ودون أدنى مجهود يمكننى أن أخنق هذا الجان أو المارد وانتهى من احتمالات مخاطره إلى الأبد.. أو.. أفتح له الغطاء فيندفع طليقاً بكل عنفوانه وطاقاته فى أرجاء العالم.. ولقد فعلتها معها مرة من قبل فى عالم السياسة.. فهل أفعلها مرة أخرى فى عالم الفن.. عالم الكتابة؟!

أجل سأفعلها.. وأنى لأدرك جيداً أنى أفتح على نفسى أبواباً قد تندفع علىّ منها الرياح والعواصف.. وهأنا أرى الكتاب أصدقائى وزملائى وأساتذتى.. كلهم.. المرأة فى حياتهم، إما ربة بيت وأم أولاد.. أو عشيقة فى السر.. أما أن تكون كاتبة وممارسة للفن، فذلك يدعوهم بالتأكيد لو علموا بما أفكر فيه أن يضحكوا منى ساخرين راثين!!

وتعاودنى مرة أخرى كلمات «موروا» فى «قوت الأرض»: إن لم تكن المغامرة محفوفة بالخطر فما جدواها ومغزاها؟!.. إن لم يكن الشهد عصيراً مُصفى لآلام لذع الإبر.. فما طعمه؟!

وإننى بذاك لا أحبس إنسانة، بل أقتلها!!.. ولماذا أعتبرها جاناً أو مارداً.. إنما هى إنسانة تفيض حباً وحناناً وإخلاصاً بكل المعانى الجميلة التى اجتمعنا عليها، وازدهرنا بها.. وتميزنا بها.. أفرادا.. وثنائيات.. وجماعات.. لا.. لن أحبس قيمة حلوة فى نفسى.. لن أبخل بقطرات ماء لزهرة عطشى.

لسوف أفعلها. أجل يا مبدع قوت الأرض.. يا ابن تراث الثورة الفرنسية العظمى.. إن أنا لم أفعلها.. فمن يفعلها غيرى.

وفعلتها!!

وما حدث بعد ذلك ملحمة رائعة بكل المقاييس الإنسانية.. ملحمة درامية شقت طريقها بالأمل وبالألم وسط أحداث بالغة الخطورة والغرابة.. هى تفجرات ثورة جاءت لتهدم كى تبنى.. تدمر لتخلق بعد

ذلك وتشيد.. تنكا الجراح وتسيل الدماء ولو أنهاراً وبحوراً حتى يتطهر الجسد تماماً، من تلك القابعة المتمكنة عبر العصور: تلك اللعينة التى أسمها: أم القيح!!

كنت أدرك كل هذا على نحو غامض وعام، وأنا أتخذ القرار.. ثم وأنا أصطحبها إلى دار الإذاعة بشارع الشريفين، حاملة صورة من تمثيليتها المكتوبة.. بالآلة الكاتبة، لتذهب إلى مخرج صديق لى: هو الراحل العزيز مصطفى أبو حطب.. وقلت لها ونحن فى الطريق، مستريحاً لثيابها الحشمة، وشعرها الملموم كما طلبت منها، قلت لها: هذه أول وآخر مرة أصحبك فيها.. بعد ذلك ستكونين وحدك.. وأنا كلى ثقة فيك!!

ثم حين وصلنا باب الإذاعة.. قلت لها: هى دقائق.. سأبقاها معك.. أعرفك على مصطفى.. ثم أمضى أنا لعملى.. ليس لى طلب غير ما أوصيك به .. ألا تطيلى فى الجلسة.. كونى مختصرة وحساسة لما يحيط بك من عيون.. أنت تعرفين نوعية الناس فى هذا المجال.. وما يمكن أن يدور من كلام.. لا أريد أن أبعث فى نفسك الخوف.. وإنما الحذر.. واليقظة.. أنت تدخلين على طريق طويل.. المجهول منه أكثر من المعلوم.. ومع هذا.. فأنت لها.. أنت فتحية.. (وضغطت على يدها): أنت قدها وقدود..

١١

أنا والحكيم..
تحت الشجرة!

في تلك الأيام، بدا والقلب مفعم بالتفاؤل والأمل. أن الأوان قد آن ليصدر كتاب يضم قصصي التي كتبتها ونشرتها بعد خروجي من السجن.. يجمعها من التناثر والشتات في وحدة مترابطة اتقدم بها إلى الحركة الأدبية!

وقد استبدت بي هذه الرغبة على نحو جارف كاسح وكان تنفيذها أصبح هو الدليل الحق على وجودي.. هل أشبهها بتلك الرغبة الحميمة التي انتابتني فور زواجي ليكون لي طفل من صلبي يؤكد وجودي وازهو به وسط أهلي وعشيرتي؟!

إلا أنني أن بعد دخلت معركة صدوره وظهر الكتاب وداخلني الإحساس من الوهلة الأولى، وأنا أحمل أول نسخة منه بين يدي، إنني والد يحمل مولوده الجديد، إذا بي بعد قليل أحس أنني أنا الذي ولدت به من جديد!.. كنت به الوالد والمولود معاً!

تلك هي مجموعتي القصصية الأولى: «داود الصغير».

ولا شيء يكشف عن حقيقة مشاعري وقت ظهوره أكثر من كلمات «الإهداء» التي افتتحت بها الصفحة الأولى من الكتاب:

إلى جيلنا الجديد الصاعد..

الجيل الذى يملك مصير الغد بين يديه.

ويعيش حياته بالحب والثورة معاً».

وأعتقد أن تلك النبرة الخطابية العالية، كانت تعكس نوعاً من الحرص على إضفاء الثورية على أعمالى وكلماتى بل على وجودى بأكمله بعد أن استقللت تماماً عن عالم التنظيمات السرية.. عقدة خفية ظلت تلازمنى لسنوات طويلة!

وقد كان أملى، كما أشرت من قبل، أن يصدر كتابى الأول عند تلك الدار التى أرتبط بها على نحو مبدئى وعقائدى، معتزاً بوجهها التقدمى! وكانت الدار فى تلك الفترة مشغولة بإصدار كتاب «مشاكل الأدب والفن» للزعيم الشيوعى الصينى الآخذ شكل الأسطورة آنذاك ماوتسى تونج.. وكنت سعيداً - بل فخورا أنى واحد من المسئولين عن متابعته فى المطبعة، وأننى أشارك فى عمل تاريخى.. وأنتظرت حتى صدر الكتاب ووصلت كميات النسخ إلى الدار.. وجاء «المعلم» مدبولى (لم يكن قد أصبح معلماً بعد) بجلبابه وشبشبه ورأسه الضخم العارى ليحمل حصته المعتادة على كتفيه.. نفس الشكل الذى حافظ عليه حتى بعد أن أصبح «معلماً كبيراً» - وواحد من أكبر الموزعين والناشرين فى الشرق العربى!.. وإذ رأيته خارجاً يحمله من كتاب ماوتسى تونج تصورته يوم يأتى ويحمل كتابى الأول.. ويولى توزيعه - من أجل خاطرى - رعاية خاصة!

وضج صدرى بالرغبة، ففاتحت ـ مستبشراً ومتعشماً ـ مدير الدار.. وإذا بتعبير وجهه يصدمني.. فقد بدا عليه الضيق ـ وهو الذى بطبيعته ضيق الصدر ـ وقال وهو يهز رأسه دون أن ينظر فى عينى: إن شاء الله.

وأنا لا أضيق بشئ فى العالم قدر ضيقى بإنسان يحدثنى دون أن ينظر فى عينى، قلت متحكماً فى مشاعرى: يعنى إيه إن شاء الله ؟!

قال بعصبية، ناظرا هذه المرة فى عينى: يعنى مش على طول كده بعد ماوتسى تونج! استغربت الرد، شاعراً بنوع من الإهانة: وهل أنا طلبت كده ؟! إن كتابى يبقى على طول بعد ماوتسى تونج ؟!

وإذ شعر بالغضب والمرارة فى صوتى، راح يعطينى ـ أنا وجيلى ـ بصوت هادئ رقيق ـ محاضرة فى الصبر وعدم التعجل.. وأن.. وهنا انتفضت واقفاً باسطا كفى فى وجهه: أرجوك.. انتهينا.. فلنقفل هذا الموضوع.. وإذا كان لى فى هذه الدار مكتب أو كرسى، فلتعطه من الآن لمن يستحقه أكثر منى.. واندفعت خارجاً من الباب.. ومن الدار كلها.. إلى الأبد!

بشحنة من الغضب والإحباط التى كانت تملأ صدرى، وجدتنى أسرع إلى ناشر بسيط فى شارع محمد على كنت قد تعرفت عليه بالصدفة منذ أيام، وأعطانى عنوانه فى كارت صغير مطبوع: محفوظ إبراهيم ـ دار النشر المصرية.

واستبشرت إذ وجدته فى محله الصغير الضيق.. بوجهه القمحى الباسم الطيب، وشعره الأسود المجعد المرسل إلى الخلف.. تحيطه الكتب المطلة من الجدران الأربعة.. ودخلت مباشرة فى الموضوع.. أخبرته برغبتى فى طبع مجموعة من قصصى على نحو عاجل.. فما هو المطلوب؟!.. وداريت فرحتى وهو يخبرنى بأن كل المطلوب ثلاثون جنيها لاغير.. وسوف يطبع ثلاثة آلاف نسخة نتقاسمها أنا وهو بالنصف.. وسيكون الكتاب فى السوق خلال شهر على أكثر تقدير!

خرجت من عنده طيراناً إلى فتحية وأخبرتها بكل ما جرى.. وإذا بالفرحة ترتسم على وجهها وتقو لى ل من تلقاء نفسها: ليس غير السفر وبيع قطعة من الأرض.. نفس ما كنت أفكر به!

وانطلقت فى اليوم التالى إلى ميت خميس!

وإذ كان التاكسى منطلقا بى على الزراعية، مفكراً فيمن يمكن أن يكون المشترى.. هبطت على فكرة تفتح لها قلبى وتشبثت بها لضمان سرعة البيع.. أن أطلب من أمى أن تقوم هى بالبيع.. ولديها التوكيل الذى يخولها هذا الحق والذى كتبته لها، وأنا فى السجن. ولا حرج الآن فى هذا.. قلت لنفسى: فبعد أن جاءت إلينا، وإقامت معنا بالقاهرة مدداً متفاوته رأت على الطبيعة كفاحنا لكى نعيش ونربى الأولاد بالعرق وبالضنى، وأننا لا نبيع من الأرض إلا لضرورة الضرورة. كما رأت أيضا أن كفاحنا بدا يثمره فيها هى السجلات والجرائد تنشر لى قصصى وباسمى.. وأن الأبواب المسدودة بدأت تفتح لى.. وأن كفاحها فى

الحياة من أجلنا لم يضع هدراً.. والآن يا أمى.. لدى مشروع لو تحقق فسيفتح لى أعظم طريق ويدر علينا الخير العميم.. أريد أن أطبع كتاباً أجمع فيه كل قصصى.. ليقرأها الناس فى كل البلاد. فياليتك يا أمى تساعدينى هذه المرة بأن تعفينى أنا من عملية البيع وتقومى أنت بها.. أنت تعرفين البلد والناس أكثر منى.. هل تفعلين، ؟!

وبالابتسامتها الرائعة رغم إطباقه شفتيها.. ابتسامة أعرفها منذ أن كنت أرضع اللبن من ثدييها.. حين يحل بروحها طائف الرضا.. ومع اللبن كان الحنان العميق الناعم بلمس وتحسس اطراف الأصابع حتى يأخذنى النوم العميق، وثديها بين شفتى.

هى نفس الابتسامة الأزلية التى وجدتنى معها طفلاً وصبياً يحملها كل المسئوليات وكل الهموم.. وانطلقت أجوب مشتاقاً بالشوارع والحوارى والمقاهى والجسور!!

ويا إلهى على اللفتة الرائعة التى فاجأتنى بها حين عدت إلى البيت وجعلتنى أضمها إلى صدرى وأنا أقاوم دموع الفرح، فقد استجابت فعلاً لطلبى واندجزت عملية البيع هذه خلال ساعات، ولكن المفاجأة الكبرى بل قل العظمى، أنها لم تبع من أرضى أنا، بل من أرضها هى القليلة التى ورثتها عن أبيها.. وكفانى بيعاً فى أرض الحبيب الراحل: محمد حمزة!

وأنا أضمها برفق، مقاوماً تأثرى البالغ بموقفها، أحسست وهى فى صدرى بأنها ازدادت نحولاً.. وصوتها أيضا ازداد ضعفاً ووهنا ..

فلعبت برأسى ثمة خيالات كئيبة نفضتها عنى بسرعة وقد شعرت ـ مع الفرح ـ بالرغبة فى البكاء خفية. إلا أننى افقت عليها وهى تقول لى: يكون فى علمك، والصراحة حلوة. أنا مابعملش ده علشانك أنت بس.. لا.. وعشان فتحية كمان.. أم إيهاب ـ الأصيلة.. عمر ما أنسى جمايلها علىّ.. وأخرها رجعتى البلد ماشية على رجلى! (وأمسكت بطرحتها من فوق رأسها) أنا باعرى رأسى، وأدعى لها، يسترك يا بنت زينب ويا بنت محمود دنيا وآخرة!

ولاح وجه فتحية والدموع تنزل من عينيها فرحاً وأنا أنقل إليها هذه الكلمات.

●●●

وصدر داود الصغير..

جميلاً أنيقاً ووقوراً أيضاً، بفضل تلك اللوحة الدرامية العالية المستوى التى رسمها الفنان الموهوب حسن فؤاد بالأزرق والأصفر والأسود غلافاً للكتاب.. جامعاً بين الواقعية والرمزية، موحياً بطعم الكاتب ونوعية موضوعاته الإنسانية والجادة، والممجدة لبطولات الناس الشعبيين البسطاء.. وكذلك بفضل تلك اللوحات الداخلية التى أبدعتها ريشة الفنان الصديق مصطفى حسين.. وأهدانى إياها تشجيعاً ومحبة!

لم تكن عيناى تشبعان من النظر فيه.. مثل الأب الذى ما أن يبتعد قليلاً عن مولوده الصغير، حتى يعود مندفعاً إليه بالوحشة وبالحنين ليحمله بين ذراعيه ويتملى تفاصيل ملامحه من جديد!اواكتشفت سعيداً

الفرق الكبير بين الابن الطفل والابن الكتاب!!.. الابن الطفل جنين يولد رقيقاً هشاً، يخشى عليه من هبة النسيم ومن ضغطه البنان.. أما الابن الكتاب.. فهو المولود بعد أن نضج واكتمل واكتسب كل مراحل وشحنات قوة الحياة!!

وكنت أنظر إلى الفهرست وأمر بعيني على أسماء القصص وأهمس لنفسي: هذا الكتاب ليس مجرد كلمات.. بل هو حياة.. عشته وكتبته بدمي.. فماذا أفعل.. أو قل ماذا أفعل من أجله.. ولدي منه ألف وخمسمائة نسخة؟!

وكان الصديق.. المعلم «حسن فؤاد» قد قدم لي نصيحة ذهبية: لا تشغل نفسك بتوزيع الكتاب وبيعه في السوق.. انس تماماً هذا الموضوع.. اعتبر هذا الكتاب هو جواز مرورك من الحركة الأدبية.. لا تتطلب منه أكثر من هذا.. وزعه هدايا على أوسع نطاق.. بادئاً بجميع الكتاب والنقاد.. في الصحف والمجلات!! وشرعت بالفعل في تنفيذ وصيته.. وبمنتهى الحماس!

وياله من صباح رائع لا ينسى، حين استيقظت على همسة من فتحية: عبدالله.. اصح.. كتابك مكتوب عنه في الجرايد.

قفزت واقفاً وتناولت منها الجريدة.. كان الراحل «سامي داود» وهو من نجوم الصحافة الأدبية والسياسية في تلك الفترة يشيد بالكتاب.. وبكتابه قائلاً في آخر المقال: هذا كاتب يولد كبيراً.. انتظروه!

دخلت الكلمات قلبي.. عمدتني.. شفتني.. «لو لم أنل من هذا الكتاب غير هذه الجملة من كاتب لا يعرفني ولا أعرفه على المستوى

الشخصي، لاكتفيت.. ولبذلت كل جهدى على أن أحقق نبوءته غير المباشرة وهو يختم مقالة: انتظروه،، أشكرك أيها العزيز.. وإنى لأعدك من الآن أن أقدم لك - وسريعا - الكتاب الثانى!

وأذكر - أنى من فرط الفرح «الحماس. وارتديت ملابسي - فى نفس ذلك اليوم، وذهبت إلى ذلك الكاتب فى مكتبة بجريدة الجمهورية.. قدمت نفسى: أنا «فلان» الذى... ونهض واقفا مرحبا.. هازا يدى بقوة ومحبة فياضة: آه.. هو أنت.. كنت فعلا أريد أن أراك: وأعرف شكك.. ابتسم ضاحكا يود: أنت حقا تشبه قصصك.. يبدو أن هذه النظرية سليمة.. أن الكاتب هو صورة طبق الأصل من قصصه، ومن أسلوبه.. لقد بكيت وأنا أقرأ قصتك عن تلك البنت الصغيرة التى تلعب بهلوانة، وتساعد أباها فى الحصول على الرزق.. «فى شارع السد».

- كم أنا سعيد.. (وبسطت له ذراعى علامة العجز عن التعبير).

●●●

كان ذلك كافيا جدا لكى امتلئ ثقة بنفسى ككاتب.. وأننى ما أخطأت حين تركت المحاماة ونذرت نفسى لهذا الطريق!

وبهذه الثقة المشبعة بالنشوة، ذهبت - ومعى عدة نسخ من داود الصغير - إلى ندوة الأوبرا.. وكالعادة وجدت الأستاذ نجيب محفوظ.. هو دائما أول الحاضرين.. وقدمت له نسخته المهداه!!

وباللابتسامة التى أضاء بها وجهه، وهو يتلقى النسخة بين يديه.. أجل.. يديه الأثنين.. لكأنما يتلقى رغيفًا دافئا طازجا خارجا لتوه من

الفرن.. كان ذلك بالضبط هو إحساسي.. بينما الكلمات تخرج مهنئة من القلب: كتاب جديد؟! عظيم.. عظيم.. ألف مبروك.. فليكن موضوع ندوتنا القادمة.. هل معك نسخ أخرى منه..

-معى بالطبع.

فلتختر من تحب أن يناقشه.. نقاداً أو قصاصين! أذكر نجوم الندوة فى تلك الأيام: د. عبدالمحسن طه بدر الذى لم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد.. د. نظمى لوقا وزوجته الكاتبة الشهيرة صوفى عبدالله.. فاروق منيب القصاص والمسئول مع الدكتور على الراعى المشرف على تحرير الصفحة الأدبية فى جريدة المساء.. الناقد توفيق حنا.. والشاعر جيلى عبدالرحمن.. والقصاص بدر نشأت.

ولا أظن أن كاتبا مصريا شابا أو مخضرما لم يمر بهذه الندوة وإن اختلف مدى الانتظام عليها بين كاتب واخر.. ، أذكر أنى تعرفت - أول ما تعرفت - على «إدوار الخراط».. فى هذه الندوة.. وفيها تبادلنا الكتاب الأول: أهديته أنا داود الصغير.. وهو أهدانى «حيطان عالية».

كيف تمت مناقشة كتابى.. لا أكاد أذكر.. إلا أنه كان احتفالاً أكثر منه نقدا وتقييما!

تتسع إبتسامة الذكرى أكثر وأكثر.. فبهذا الداود الصغير.. وجدتنى أدخل عرين الأسد.. دون أدنى خوف أو وجل!!

فمن كان ذلك الأسد؟!

كان هو «توفيق الحكيم».. لا بتوحشه وطبيعته المفترسة، بل بما هو أشد واعتى من هذا.. بتعاليه واعتزاله الناجم عن إحساسه بتفرده وأنه مختار لأداء رسالة - وأنه يجب يلجو أن بنفسه من تفاهات الحياة العادية الدارجة!

أريد أن أخذ منه نظرة.. أن اقتحم عرينه.. فأنا أيضا من أعماقى اتمنى لو يصبح لى عرين أنا الآخر.واتجهت إليه ذات ضحى.. أخذت طريقى إلى الشارع حسن صبرى بالزمالك، حيث مبنى المجلس الأعلى للثقافة والآداب الذى انشاته الثورة حديثا.. ونصبته رئيسا فخريا له.. أما الرئيس الفعلى والتنفيذى فكان الأديب الضابط أو الضابط الأديب، «يوسف السباعى».. وما الطف المفاجاة.. فما كدت أدخل من باب المجلس إلى الحديقة التى تتقدمه، حتى وجدت الأسد، ليس فى عرينه - بل جالسا فى الهواء الطلق تحت شجرة وارفة الظلال.. ممددا ساقيه على كرسى آخر.. سارحاً فى الملكوت.

اقتربت منه سائرا فوق العشب على أطراف دباديب أصابعى - آسف جدا إن كنت باقطع الخلوة على عصفور الشرق.. ونائب الأرياف.

نظر لى بعينيه الجاحظتين الواسعتين، بينما أرتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة فرحت بها وأكملت: ورمش عين الحبيب يفرش على فدان.

اتسعت النظرة والابتسامة.

- دانت حافظ كمان مش بس قارئ.. انت مين؟!

ـ أنا ده .. (وقدمت له نسخته المهداة) أول كتاب لي.. قلت أهديه لأعظم فنان ف مصر.. عشان أعرف رأيه .. استمر في الكتابة .. ولا ما استمرش؟!

ـ أنت بتشتغل إيه ؟!

آه ها قد جاء على الجرح .. فلأ فجر القضية معه.

ـ أنا مابشتغلش حاجة .. باكتب بس .. لكن قبل كده كنت محامي.. وبعدين ماحبتهاش .. سبتها.

ـ تبقى لازم غني.. عندك فلوس!

ـ أبدا هما كام فدان.. بابيع فيهم.. وأوشكوا على الإنتهاء.

وأطل الجزع فجأة من عينيه .. قال كأنما ينهرني ـ لأ .. لأ .. دور على شغله أحسن.. كفاية بيع في الأرض.. الأرض ماتتعوضش.. وما أغرب ما حدث في تلك اللحظة، فقد اختلط شكله بشكل أمي..مثلما أختلطت كلماته ـ ألا أبيع الأرض،.

فجأة .. كف تماما عن الكلام.. فتح الكتاب.. لم يتوقف عند الإهداء.. مضى يقلب في صفحاته.. وصل إلى الفهرست.. مر بعينيه على أسماء القصص.. ثم عاد إلى أول قصة.. استغرق في سطورها الأولى..

تمنيت لو يواصل حتى نهايتها.. إلا انه لم يلبث أن رفع عينيه لي وقال.. وقد أدركت أنه يريد العودة سريعا إلى خلوته تحت الشجرة.

باين عليه كتاب كويس.. حاقرأه ضرورى.. إن شاء الله.. شد حيلك فى الكتـابة. بس برضـه لازم تدورلك على شـغله.. وكـفـاية بيع فى الأرض.

وسلمت عليه.. ومضيت وقد داخلنى إحساس بهيج بانى أعرفه من زمن طويل.. وأنه دخل حياتى ولن يخرج منها ولا بالموت.. الكتاب يعيشون بكلماتهم.. وبقوة تاثير أرواحهم.. وإنى لعائد إليه يوما ومعى كتاب جديد.. فياله من لقاء سيكون!

وانطلقت فى أرجـاء القـاهرة.. لن أذهب بعـد ذلك وأهدى داود الصغير؟!

●●●

ـ عقبال الكتاب الأربعين ـ

لا تزال حـتى الآن رغم مـضى عـشـرات السنين ترن فى جنبـات روحى وتسكن قلبى.. فـقـد كـان قـائلهـا لـى هو نجم النجـوم فى دنيا الصحافة آنذاك وكذلك دنيا الرواية.. وأيضا دنيا الخبطات والحملات الصحفية المدوية الكبرى.. إحسان عبد القدوس المستغنى عن أى القاب.. وأنا أقدم له الكتاب. ، باللهجته الجميلة ،كأنها موسيقى.. خاصة وهو ينطق الراء.. ياء.. (الكتاب الأيبعين) دخل من لحظاتها قلبى، ولم يخرج رغم كل ما وقع بعد ذلك من أحداث.. وإذ أحـببت طريقته الجميلة هذه فى التهنئة، اندفعت قائلا بكل الود وكل العشم يا ريت يكون لى نصيب واشتغل معاكم هنا.. فى روز اليوسف!

قال ببساطة: الدار كلها مفتوحة لك.. وعلى كل حال أنت حظك كويس.. ممكن تشتغل في صباح الخير.. وهي داخله على عهد جديد، دلوقت اللي ماسكها فتحي غانم.. روح له.. حيرحب بك أكيد.. (وابتسم) مستني إيه.. قوم على طول روح له.. هو موجود دلوقت في مكتبه!!

خرجت من عنده مباشرة إلى فتحي غانم.. فإذا بالباب مفتوح.. ليس حتى مواربا.. فلا سكرتيرة ولا استئذان.. والابتسامة على الوجه تعلن الترحيب!.. منذ لحظتي الأولى معه، أدركت أن نجم سعدي الفني سيكون مع هذا الإنسان.. منجذبا بذلك الجوهر الكامن والمشع من داخله: الطفولة والحياء!! وما تصورت أبداً أني سأجد منه في هذا اللقاء الأول كل هذا الكرم .. وكل هذه المساحة من التلاقي الفني والإنساني.. فقد قال بعد دقائق من بدء اللقاء: عندنا اليوم اجتماع لمحرري المجلة.. يمكنك لو أحببت أن تشارك فيه. نحن نبدأ.. فلتكن معنا من البداية.. وتعالت فرحتي بالعمل معه حين سمعته يقول ونحن في الاجتماع: اتعرفون فيم أفكر.. إنني أتمنى لو نحرر المجلة كلها بأسلوب القصة.. يصبح الفن هو طابعها.. حتى الموضوعات السياسية الصرفة.. ليتنا نكتبها بالأسلوب الأدبي.. أسلوب القصة.. وكأنني كنت في قمقم.. وانطلقت.

ولم تمض عليّ بضعة شهور في العمل معه بصباح الخير، حتى كنت - بتشجيعه واستشارته، انطلق في أعظم وأخطر رحلة.. هي رحلتي في نهر النيل.. بمركب شراعي.. ضد التيار

١٢

بدر البدور ..
والباب المحظور..!

تلك الأيام بالذات، كانت مرحلة الربيع الزاهية فى عمر الثورة المصرية.. أيام المجد وأيام الأغانى.. بهيجة ومجلجلة وجماعية ونابعة من القلب: «والله زمان ياسلاحى..» .. و.. قلنا حنبنى وادى أحنا بنينا السد العالى» ..و «صورة.. صورة.. كلنا كده عايزين صورة» .. و«الجنة هى بلادنا». وغيرها وغيرها. أغنيات مقتطعة ومقتطفة من جوانح ذلك الفتى المصرى السمين الضحوك المعجزة.. معبراً ببساطة مذهلة عما يجيش فى أعماق جيلنا وشعبنا من حنين وشحنه تاريخية.. ما أحلاه - صلاح جاهين - وهو يترنم.. ينشد.. مدبدباً بقدميه على الأرض.. فارداً ذراعيه فى الهواء:

ح أجرى كأنى فوق حصان

وح أطير كأنى بأجنحة..

جملية جداً الغيطان

والفسحة فيها مُفرحة..

...

...

لو كنت رسام كنت جيت

ومعايا شنطة فيها زيت

ورسمت كل غيط وبيت

لو كنت شاعر كنت أقول

عن الجداول والحقول

قصيدة فيها ألف بيت

...

...

لو كنت ده .. أو كنت ده

مش حافرح أكثر من كده

مفيش لزوم أقول ياريت

...

...

والنسمة بتمر بحنان

والشمس حلوة مصحصحة

جميلة جداً الغيطان

والفسحة فيها مفرحة

تلك كانت صورة مصر كما عشتها فى تلك المرحلة.. أذكرها الآن بكل الاعتزاز وكل الحنين إلى تلك المشاعر الفياضة بالفرح وبالثقة بالنفس وبالغد.. مرحلة إخضرار الحياة وتألقها وقمة قدرتها على الميلاد والعطاء، وإن كانت بحكم قوانين الطبيعة مصحوبة بصرخات وآلام الحمل والميلاد.. على المستوى الوطنى العام، وكذلك على المستوى الشخصى الخاص.

أذكرها - تلك الأيام - بل احرص على تسجيلها وأود الوقوف طويلاً عندها، قبل أن تقبل مرحلة العواصف والطوفانات، ويدلهم الجو وتكتئب الصورة، وتنسحب طيور الفرح والمجد باغانيها العظيمة إلى أركان الصمت المظلمة!!!

ولقد كان من المدهش والمثير للزهو فى نفس تلك الفترة، ونحن خارجون لتونا من جحيم وملحمة العدوان الثلاثى، وداخلون فى ذات الوقت على معركة تاريخية جد خطيرة ومثيرة، هى تحويل مجرى نهر النيل، وإقامة السد العالى، كان مدهشاً ومثيراً ان نتصور بكل الثقة أن فى إمكاننا أيضاً - بل من واجبنا - أن نتصدى لحماية بلد عربى شقيق.. هو «سوريا» الذى بات هدفاً لمناورات الأسطول السادس الأمريكى الذى راح يستعرض هيلمانه وجبروته معلناً نواياه ببدء العصر الامريكى الاستعمارى الجديد للمنطقة خلفاً للمرحومتين: إنجلترا وفرنسا!!

ذلك ادعى للتصدى والتحدى.. لم لا؟! فمثلما - فى تلك الأيام، كانت الروح الأممية والإخوة النضالية متجلية فى علاقتنا بالاتحاد السوفيتى الذى تصدى بإنذاره التاريخى الحاسم لدول العدوان الثلاثى..

فارتعدت فرائصهم، واعلنوا عن تراجعهم، وانسحبوا عن الأرض المصرية.. إذا كان هذا قد حدث على المستوى الدولى، فلم لا يحدث مثله على المستوى القومى.. بين دولتين عربيتين.. مصر وسوريا الشقيقة؟!.. ولقد نالت مصر بالكفاح استقلالها وانتصرت.. وإذن فعليها، مثلما فعل الآخرون «الأجانب» معها، أن تفعل مع ابناء قوميتها.. أبناء اللغة الواحدة والدين الواحد والتاريخ المشترك.. تساندهم. تؤازرهم.. تربط مصيرها بمصيرهم. وخاضت - بكل الثقة - مغامرتها الرائدة الكبرى.. وأعلنت الوحدة بين مصر وسوريا!!

من كان يتصور أن منطقتنا هذه العائشة فى الغيبوبة.. تحت الوطء.. ممزقة مشرذمة، لمئات بل آلاف السنين، من كان يتصور أن بالإمكان أن يظهر فيها رجل حالم، وفى نفس الوقت قادر على أن يضع أخطر الأحلام وأعظم الشعارات موضع التحقيق والتنفيذ، ويتم على يديه الإعلان عن الوحدة بين مصر وسوريا.. بينما فى نفس الوقت يقدم لثوار الجزائر اقصى ما يستطيع من سلاح ومال ورجال!

فى ذلك الجو الحافل والاحتفالى بقدرة الإنسان المصرى البسيط على إتيان أعظم الأعمال وأمجدها.. جاءتنى فتحية ذات يوم، وهى تتأجج سعادة وفرحًا، وتلقى إلىّ بالنبأ التاريخى: أن تمثيليتها التى قدمتها للإذاعة قد قبلت وتحدد موعد لتسجيلها بالاستوديو، وأن اختيار الممثلين والممثلات لها قد تم.. وأن البطلين هما: سناء جميل، وصلاح سرحان!

فى تلك اللحظة، رأيتها وقد انطلقت من القمقم، وأنه لا قوة فى العالم عند فى إمكانها أن تعيدها إلى داخله مرة أخرى!! وللحظة تخوفت

وارتعدت، غير أني تذكرت انى ـ وباختيارى ـ الذى فتحت لها القمقم.. وأننى الذى اقترحت عليها وشجعتها أن تخوض تجربة الكتابة.. وهاهو حلمى الرائع كما تخيلته وتمنيته قد تحقق.. وعلىّ إذن أن أفرح.. أن أعيش الإحساس باننا حقا أيام الربيع.. أيام العطاء والإخصاب.. وأن المجد للمقهورين والبسطاء!!

فردت لها كل ذراعى وأخذتها بالأحضان كانى أحضن نفسى.. أهنئها، وفى الحقيقة أهنىء نفسى!!

وما حدث بعد ذلك كان اشبه بانفجار النبع فى أرض عطشى من قديم الزمان.. فقد توالت أعمالها، حتى أنى كنت لا أكاد الاحقها!! وكنت أدرك سر تلك الحيوية، وذلك الفيض المتدفق منها.. إنها لا تكاد تصدق هذا الذى يحدث فتؤكده بمزيد من الفيض، ومن التدفق، ولسان حالهايقول : حرمتونى وأنا صغيرة من التعليم.. هانا أريكم ما تعلمته من مدرسة الحياة.. وأن موهبة التأليف لا تحتاج بالحتم إلى مدارس أو جامعات واكاديميات.. إنما هى منحة ربانية طبيعية توهب احياناً على غير القاعدة واستثناء من القانون المعتاد، مثلما تمنح بعض المناطق الصحراوية والصخرية أروع الينابيع والآبار، محققة التوازن والعدل فى الحياة.

ومازلت حتى الآن أذكر بالابتسام وبالرضا، اسم أول تمثيلية أذيعت لها وهى: «عزيزة».. وموضوعها قصة حب بسيطة تدور أحداثها وحواراتها ونداءاتها القريبة من الأغانى الشعبية فى أحد أسواق الخضروات بحى السيدة زينب.. وما ألطف ذلك الفتى البائع وهو ينادى

على (القوطة) مشبهًا حمرتها ونضارتها بخدّ الحبيبة الواقفة بعربتها قريبًا منه.. هذا في أيام الرضا وصفاء القلب، ثم في أيام الغضب أو الشك أو التمرد: مجنونة ياقوطة.. وكل يوم بحال ياقوطة. فتبادله النداء بنفس الرمز الطريف!!

إلا أن ذلك لم يكن غير المستوى الأول والبسيط في التمثيلية، والذى كان يمهد للمستوى الثاني.. وهو المستوى الدرامي الذى يفجره الصراع بين هؤلاء الباعة البسطاء، وبين المعلم الكبير، حوت السوق الشره بمجموعة البلطجية التي تعمل لحسابه.. والذى لم يكن يبغى التهام الأرباح المادية فقط، بل التهام أجمل وأشهى البائعات في السوق: عزيزة!!

في تلك الأيام، لم يكن عصر التليفزيون قد بدأ!! كانت الإذاعة هى لسان العصر، ومصدر سلطة الحكام، ومطمح نجوم الفن والسياسة سواء بسواء!! وكان ثمة مسلسل يومى يذاع مباشرة بعد نشرة أخبار الخامسة مساء.. اسمه «سمارة».. بطولة تحية كاريوكا.. ومحمود إسماعيل والمليجى أيضًا على ما اذكر.. ومثلما نرى الآن - في عصر التليفزيون - الشوارع تكاد تخلو مع عرض إحدى مباريات بطولة الدورى لكرة القدم، أو حلقة من مسلسل درامي ناجح ومثير.. كذلك أيامها.. مع مسلسل «سمارة».. كانت الشوارع - وخاصة الشعبية - تكاد تخلو.. وينصب الكل في المقاهى، أو يلزمون البيوت ليتابعوا أحداثه المثيرة.. حيث يدور الصراع الرئيسى بين ضابط بوليس متخفٍ، ورئيس عصابة لتهريب المخدرات.. وبينما نرى رئيس العصابة متولهًا في حب

سمارة، نرى سمارة هذه تقع فى غرام الضابط دون أن تعرف أنه ضابط مدسوس على العصابة وينتهى المسلسل بمصرعها بيد رئيس العصابة الذى يلقى بدوره مصرعه بيد الضابط الذى انكشفت اخيراً شخصيته!!

ولاشك أن فتحية قد كتبت تمثيليتها الأولى «عزيزة».. متأثرة بسماعها لمسلسل «سمارة».. مجذوبة بما فيه من حوار شعبى بسيط ومثير يغلب عليه روح الفولكلور...ومن قصة حب يدور الصراع فيها بين الخير والشر.. والجريمة والأمن.. وهو البعد الذى تجاوزته فتحية.. بوعيها السياسى الذى اكتسبته من ارتباطها بالحركة السياسية والنضالية، ومن أكثر المواقع تطرفًا.. فقد استبدلت الصراع التقليدى بين الضابط ومهرب المخدرات، بالصراع بين العمال الكادحين فى السوق، وذلك الحوت الرأسمالى الكبير المستغل.. وهى النغمة التى قامت الثورة أساسًا عليها.. وفى هذا الإطار، شقت التمثيلية طريقها، ونالت من النجاح ما جعل مخرجى الإذاعة كلما قابلوها، يمتدحون لون كتابتها، ويطلبون منها.. أن تكتب لهم!!

ليس اروع من أن يمتلىء قلب الكاتب ـ خاصة فى بداياته ـ بالفرح وبالثقة.. وبانه مطلوب.. حينذاك تتفجر أعمق الينابيع الكامنة فيه، ويعطى أقصى إمكانياته!! وقد كنت أنا نفسى أتامل نجاحها فى اختراق عالم الكتابة بيسر وبساطة.. وبدا لى أنه مثلما يحظى بعض الناس بقبول حسن وجاذبية ربانية خاصة، فإن ذلك يتحقق أيضًا فى عالم

الكتابة، وهو ما لاحظته مع أعمال فتحية التى راحت تتوالى، مستمدة قبولها وجاذبيتها من استلهام التراث والأمثلة الشعبية!!.. وقد كان نبعها والمحرك لخيالها فى ذلك الوقت كتابين: الأول هو قاموس خاص بالأمثلة والعادات والتقاليد الشعبية لأحمد أمين.. والثانى: سندباد مصرى.. وهو رحلة مثيرة وغنية فى تاريخ مصر القديم.. للدكتور حسين فوزى!!

ولهذا لم يكن غريباً أن يكون من أهم أعمالها فى تلك الفترة، تمثيلية بعنوان «حسن الذوق».. استلهمتها من واقعة غريبة حدثت لها بالصدفة.. حين وجدت نفسها جالسة ذات يوم فى أحد الأحياء الشعبية بجوار أحد الأضرحة، اسمه: ضريح سيدى حسن الذوق.. فتحرك فضولها لاكتشاف أصل هذا الاسم.. وإذا بها تضع يدها على أصل المثل الشائع، والمذكور فى الكتاب: الذوق ماخرجش من مصر، حكاية جد طريفة وذات مغزى.. فقد كان يعيش فى هذا الحى رجل كريم الصفات. أهمها صفة الذوق الحسن، والشعور المرهف.. ومع هذا فقد وجد نفسه متهماً بانه خائن للأمانة!!

وحينذاك، ومن فرط الإحساس بالمهانة والألم، يقرر الهجرة وترك البلاد.. وبالفعل يشد الرحال سرا. لكنه، وهو لايزال على الحدود، يبلغه الخبر بان براءته قد ظهرت.. وأن الحكم قد صدر ببراءة حسن الذوق.. ومن شدة الفرح يقع ميتاً: ومن هناك شاع المثل: الذوق ماخرجش من مصر!

وأذكر أن من أكثر الذين فرحوا بهذه التمثيلية هو عمنا الكبير الحبيب يحيى حقى.. الذى كان فى ذلك الوقت يرأس مصلحة الفنون ويجرى عملية بحث واسعة عبر أرض مصر كلها عن كل ماله صلة بالتراث الشعبى.. الكاشف عن أعماق الشخصية المصرية.. وما تميز به من قيم وقدرات إنسانية!

وقد طارت فتحية من الفرح وهو يقول لها: يسعدنى جداً أن أزور ضريح سيدى حسن الذوق هذا.. قريبا.. وقوله أيضًا: جميل جداً أن يكتب عمل فنى يؤكد خلة الذوق واعتبارها من صميم الشخصية المصرية!

هذا الرجل بصدقه وطيبته وطموحه الإنسانى والفنى، كانت كلمة المديح منه تنفذ إلى القلب وتبهجه أكثر من ألف جائزة رسمية!

ولهذا، لم يكن غريباً أن تكون التمثيلية التالية لحسن الذوق، هى «بدر البدور. والباب المحظور» التى استلهمتها من حكايات ألف ليلة وليلة.. حيث القصر المهجور الذى به أربعون حجرة.. مباح لمن يدخل القصر أن يفتح أبواب كل الحجرات ويدخلها. إلا حجرة واحدة.. هى الحجرة الأربعون.. دخولها محظور.. محظور!!

هذا التاكيد على الحظر هو نفسه الذى يحرك «بدر البدور» ويستثير فضولها لمعرفة السر.. وتخوض المغامرة الكبرى. مغامرة فتح الباب المحظور. وتنجح فى ذلك .. وحينذاك تبدأ الدراما المثيرة.. دراما اكتشاف الأسرار الرهيبة.. ذلك أن الحجرة الأربعين هى مليئة بالشهداء الذين ماتوا ضحية النضال ضد الظلم ومن أجل الوطن وسعادة الإنسان!

إلا أن هناك جانباً آخر فى موضوع كتابة فتحية لابد من ذكره، تأكيداً للحقيقة من جهة، ومن جهة أخرى لما سيكون له من آثار كبيرة وخطيرة بعد ذلك على علاقتنا!.. وهو أنها.. من فرط فرحها وإحساسها باننى الروح الدافعة لكل هذه الاعمال وهذا النجاح.. كانت تبدو وكانها تريد أن ترفعنى من على الأرض رفعًا وتضعنى لو تستطيع على رأسها وتسير بى هكذا.. معلنة عن اعترافها وتقديرها لدورى، وفى نفس الوقت تعبيراً عن إحساسها بدوام احتياجها إلىّ.. إلى أن يمكنها الوقوف على قدمها وحدها وتعتمد بالكامل على ذاتها!

وكنت أدرك ذلك جيداً، بل أنى أنا نفسى كنت حريصاً على تحقيقه أن أظل بالكامل بجانبها فى فترة البدايات هذه، كى تخرج كتاباتها على أحسن مستوى ممكن.. أن أكون فخوراً بها حين يذكر اسمها ككاتبة.. وكنت أحياناً اتصور عملاً فاشلاً يذاع لها، فيتهامس الناس فيما بينهم بضيق! ماهذه التى بلانا بها..؟!

كنت حريصاً الا تتقدم بأى عمل، صغيراً كان أو كبيراً، إلا إذا اطمأننت على جودته!!

وكان ذلك يعنى ازدياد العبء علىّ.. بت أحمل همّ كتاباتها، بجوار هم كتاباتى الشخصية.. ومع هذا، فما احسست من أعماقى بأى ثقل أو معاناة.. بل اننى كنت جد سعيداً.. أنى اقدم لها شيئاً تحتاجه.. شيئاً.. سينفعها طول العمر.. وكنت أقول لنفسى: لكم اعطتنى هى أيضاً.. فما أكثر ما استمعت وقرأت لى.. كنت ـ ومازلت ـ اعتبرها قارئتى وناقدتى الأولى.. وياما ناقشتنى فى خواطر وأفكار وطارت معى باجنحة الفن

وألهمتنى معانى وقصصاً بأكملها!.. أجل.. ألا أكون أنانياً.. وأن يظل العطاء المتبادل هو إكسير حياتنا.. ومصدر قوة حبنا وارتقاء فننا!

كان ثمة روح من الثقة والإصرار تدفعها إلى المضى فى الطريق.. طريق النجاح.. طريق الصعود.. أجل لا شيء اسمه «الباب المحظور».. وها هو صديقنا عبدالرحمن الخميسى، الكاتب المشهور العملاق. لم يحصل على «شهادات». ومع هذا فرض نفسه.. وها هو لا يكتفى بكتابة القصص والمقالات، بل يقتحم أيضًا عالم السينما ويخرج أفلاماً.. ويكتشف نجوماً جدداً.

أجل.. لابد أن نكون ثواراً على أنماط الحياة التى جمدتنا فى صناديق معلبة.. ولابد من الخروج عليها!

وإذا بالحياة تستجيب لها.. فها هو المخرج الإذاعى الشهير: سيد بدير يلتقى بها ويطلب منها بحماس شديد أن تكتب تمثيلية لبرنامجه.

وهاهى نجمة الإذاعة الأولى أيامها، صفية المهندس، وكنت أكتب لها قصصاً قصيرة تقرأها فى بابها الصباحى اليومى «إلى ربات البيوت» تسألنى ذات يوم: ما رأيك لو تكتب لنا فتحية برنامجا مدته نصف ساعة.. مرة كل أسبوع.. وليكن اسمه: من تجاربى!!

وقد كان.. المفاجأةالكبرى والرائعة بعد ذلك.. أن صفية المهندس وهى تقدم الحلقة الأولى. قدمت المؤلفة باسمها.. يسبقه لقب «الأستاذة».

١٣

أمّي

وبينما نحن نحيا مرحلة الربيع ، والنشوة تملأ القلب بفرح التحقق والانتصار على المستوى الشخصى - أنا وفتحية - وعلى المستوى الوطنى - الثورة وعبدالناصر - وكذلك على المستوى الأممى - جبهة التحرر بين الاتحاد السوفيتى والشعوب المكافحة من أجل استقلالها - بينما نحن فى عز النشوة أنا وفتحية بتلك الانطلاقة .. فهى قد خطت وحققت إنجازات عديدة فى كتاباتها للإذاعة، ولم أعد بالضرورة أقرأ أعمالها قبل أن تقدمها للمخرجين، فقد اكتسبت الحد الأدنى من الخبرة الدرامية القائمة على ضرورة توافر الصراع بين الأضداد، طلبًا لتحقيق مثل أعلى يبشر به الكاتب.. كما أنها هى نفسها أصبحت تائقة ومتطلعة إلى استقلاليتها فى الكتابة، وهو ما سعدت به، فقد ارتفع عنى عبء وإحساس ثقيل بالمسئولية .. وهو ما كنت فى أشد الحاجة إليه، وقد أخذتنى اهازيج وطموحات الخلق الفنى إلى عالم جديد هو عالم المسرح الذى سقطت فجأة صريع عشقه .. وشرعت أكتب مسرحيتى الأولى «طيور الحب» .. كما تم تعيينى رسميًا فى دار «روز اليوسف» . كاتبًا ومحررًا فى مجلة «صباح الخير» . أى رضا .. وأية سعادة!!

وما اغرب ما تفعله الاقدار احيانا. ففى نفس ذلك اليوم الذى وقعت فيه عقد العمل فى «روزاليوسف» منهيا بذلك فترة تاريخية طويلة وكئيبة فى حياتى.. فترة بطالة وتشرد دامت لسنوات طوال.. فى نفس ذلك اليوم - يوم الفرح والانتصار، وأمى بالذات هى المحيطة بى والمسيطرة بطيفها علىّ.. أود إبلاغها بالخبر لكى تفرح بى.. تفرح بالولد الذى مات أبوه وهو فى بطنها ستة شهور.. تفرح به وتفرح بنفسها أيضا. فهى التى وراء هذا النجاح.

وإذا بتلغراف ياتينى من أخى : احضر حالاً.. أمك تريد أن تراك.

ارتسم أمامى على الفور طائر الموت.. ذلك الذى يحمل الأحباب على أجنحته ويرحل بهم إلى الضفة الأخرى.. تلك الضفة التى لم يعد أحد أبدا منها، وبالتالى لم يعرف أحد من الأحياء ما شكلها.. وجوها..

غص حلقى بالدموع.. إلا أننى استنكرت من نفسى هذا الشعور.. ربما هى أزمة مرض وتجتازها..

وناولت التلغراف لفتحية.. فإذا بشفتيها ترتعشان والدموع تنعقد فى عينيها.. دون أن تنطق بحرف.. وهى تبحث عن الثوب الذى ترتديه وهى مسافرة معى..

قلت لها: الأفضل ألا تلبسى السواد.. من يدرى.. ربما!!

وانفجرت باكية وهى ترتدى ثوبا فاتح الألوان.. كأنه دعوة للأمل والتمسك بالحياة!!!

●●●

حين وصلنا القرية وجدنا الأهالى متحلقين حول البيت واجمين صامتين، لم يعزنى أحد بالكلمات.. لكن النظرات كانت ناطقة بالرثاء ورجاء التجمل بالصبر.

دخلت عليها.. فى الحجرة البحرية الكبيرة التى شهدت كل طفولتى وصباى وسنوات من شبابى معها.. كان كورس الأحزان بالملابس السوداء حولها.. وهى ممددة بظهرها على السرير ذى العمدان، الوجه كما هو طول العمر وجه محارب.. أنفها المستقيم الحاد.. والوجنتان الناتئتان المحددتان.. ونظارتها البيضاء، لم يجرؤ أحد على أن يخلعها، وطرحتها الجورجيت السوداء لا تزال حول الرأس، إطاراً مهيباً للموت، كما كانت إطاراً رائعاً للحياة.. لم يهن على أحد أن يمس اللوحة العظيمة بشىء!!

وما إن رأتنى رئيسة الكورس حتى خاطبتها هامسة برفق تعلنها بخبر وصولى.. وأن عليها إذن أن تستريح وتهدىء من تلك الانفاس الرائحة الغادية التى تنتزعها من داخلها ببسالة ومعاناة هائلة.

ـ يومان والروح تريد أن تطلع.. أى عذاب.

ـ وشوشها يا ابنى فى أذنها.. قل لها إنك جئت لتستريح.

ولم أصدق مع الأنفاس اللافحة القوية إنها الأنفاس الأخيرة.. أنها النزع الأخير.. ملت على أذنها، متحكماً فى دموعى: نينا.. نينا عزيزة.. أنا جيت من مصر ومعايا فتحية.. وحنقعد معاك مدة طويلة.. وفيه خبر كمان حتفرحى به.. أنا اتعينت يا نينا فى المجلة.. وبقى لى

وظيفة.. ومرتب ثابت كل شهر.. نفسى أرد لك الدين.. شدى حيلك. أوعى تسيبينا..

أدركت لماذا يسمونه «النزع الأخير» باتت الانفاس مجهدة.. تربعت فتحية بجوار رأسها محاولةً أن تسقيها قطرات ماء من قطعة قطن مبلولة تعصرها قطرة قطرة بين شفتيها.. تحجرت الدموع بداخلى.. والكلمات أيضًا.. خرجت من الحجرة مطرقًا.. وقفت أمام البيت.. الوسعاية.. ملاعب الصبا والطفولة. والكتكوت الصغير يجرى.. فى عز شمس الظهيرة.. والدجاجة الكبيرة تتبعه.. تشجعه تارة، وأخرى تحذره من الغرق فى النيل.. ومن ذئاب الحقول.. حرّ يونيو شديد.. وحول البيت لا ظلال.. والرجال واجمون.. مع الوهج رحت فى غيبوبة لم افق منها إلا على «حلاق القرية» يأتى مهرولاً ومعه حقنة.. وقفت انظر إليه وهو يغرس الحقنة فى الذراع الصغيرة.. ضمر وتراخى اللحم الذى كان يوماً بضا ومدملجا أبيض.

- ياناس حرام.. ماتعذبوش جسمها.

- الحرام.. إنكم ماترحموهاش من العذاب اللى بتتعذبه.

واحتشد صدرى بصرخة: أيها الوحش: إبعد عن ذراعها سن الأبرة.. ! لكن تحجراً كاملاً أصابنى.. وأنا أرى الرجل يغرس سن الإبرة في الذراع.. ومضيت اتوجع.. بلا صوت بلا آه.. واحتوتنى رغبة شاملة عميقة فى التلاشى.. بعد دقائق سينتهى كل شىء.. كيف ستكون حياتى؟!.. بدونها لأول مرة فى الحياة؟!

وأخذتني قدماي مرة أخرى إلى الوسعاية.. قرص الشمس جبروت. رهيب ومرهوب. لا نسمة هواء.. حركة الأشجار ميتة. كل ما في الأرض والفضاء والسماء هامد وغير قادر حتى على الأنين..

ـ ماتت..

وانطلقت الصرخات.. بالتياع وجنون..

انفجر قرص الشمس.. الشظايا متناثرة تملأ جنبات الجو.. انتهى عصر. بدأت أيام اليتم: إجمع شظايا حياتك الثقيلة واحملها وحدك على ظهرك، وأمش محنياً بها.. إلى أن تحل نهايتك أنت الآخر!!

هاهم يخلعون عنها الوشاح المهيب الأسود. يرفعون النظارة الانيقة البيضاء، ملابسها الفضفاضة الغامقة الطويلة، المحفظة الجلدية القديمة المليئة باوراق غالبًا مافات أوانها، ومع هذا تظل محتفظة بها.. كانت تؤمن بالكتابة بديلاً للذاكرة.. وفي معاملاتها مع الآخرين كانت تقول: وهو العقل دفتر؟! الورق والقلم هم الشهود.. وحدّ الله بيني وبين حقوق الناس؟!

ترى: هل في الحافظة نقود؟!

فليأخذها لصوص الموتى لو يريدون!!

وتملكتني رغبة في الهروب. لا أطيق السير وراء النعش وأرى الجسد الرقيق النبيل يغيب في التراب وفي الظلام!!.. لن اتوافق أبدا مع هذه الفكرة.. لسوف تظل أمامي مشعة بالضياء.. ضياء الأحداث

والذكريات وكل ما كان!! سأظل اتعامل معها.. ككيان حى يمدنى بالإلهامات وبالمعانى الزاخرة بالصدق وبالمواجهة.. وبالخجل من الخطأ ومن الخطيئة.. وأن الله أيضاً تواب رحيم..

لو عليّ. لا نطلقت أجرى وأجرى حتى أصل إلى الجسر العالى وأطلق صرخة.. عواء.. أملأ به فضاء الدهر ووجه الحقول.. ثم.. انكفيء على الأرض. تحت الجميزة.. واغمض عينىّ.. واستسلم للأرض.. هامداً.. متحجراً.. بلا أى إدراك أو تفكير.. فالكل باطل.. وقبض الريح!

يبدأ كورس الأحزان أولى مهماته: سيخلعون عنها الطرحة السوداء، وعصبة رأسها السوداء أيضا.. لكنكم لن تخلعوا عنها شعرها الجميل الناعم، ولا «المقصوص» الطويل الرفيع الذى كان ينسدل دائما على جانب الوجه، بجوار الأذن الدقيقة الصغيرة، بقرطها الذهبى الدقيق، المثلث الشكل، والذى كثيراً ما كان يتارجح مع حركة وجهها فاتذكر لحظات خاطفة أنها أنثى.. وكم كان ذلك مدهشاً وغريبا، فقد تعودت عليها جادة ومتحفزة على الدوام للقاء عدو ما. وما أكثر ما كنت ألاحظ أنها فى عز نومها تبدو مفتوحة العينين متيقظة. مات الحبيب والأولاد كتاكيت صغار، وأنا لا أزال فى بطنها جنينا، وهى لم تزل جميلة وبضة وشابة لم تبلغ بعد الثلاثين.. دفنت معه الإحساس بالشباب وبالأنوثة.. وأخذت دور الحارس والمربى، وخاضت مختلف المعارك والصراعات ضد الثعالب والذئاب!

ثم ماذا بعد كل هذا الصراع والكفاح؟! الأولاد كبروا وتزوجوا ورحلوا إلى البندر.. بندر المنصورة. إلا البنت الوسطى. أختى سكينة.. التى تزوجت من فلاح طيب من نفس القرية.. سكينة هذه هى الآن الرابطة الحية الوحيدة لى بالقرية.. ورأيتها تصرخ وتولول بجنون.. تهرع إلى وترتمى على صدرى وتنوح:

- أمك ماتت يا عبدالله.. ماتسيبنيش يا عبدالله..

احتويتها فى صدرى وأجهشت بالبكاء.. انتفضنا نحن الاثنان حين رأينا النعش خارجا من البيت محمولا على الأعناق. أحسست بنفسى شيئا كالرماد.. ليس أول نعش أراه فى القرية خارجا ليوارى من فيه فى التراب .. لكن الجثمان المحمول ليس أى جثمان.. إنها أمى.. وأبى. ولكن الموت حق..

- حق من

- حق الله - وحقى أنا فيها؟!

- أنت من سنوات بعيد عنها هناك. فى مدينة الأنوار.. لم تكن تأتى إليها إلا وأنت مثقل بالأزمات وبالهموم فتمسح عنك، وفى لحظة - كل الهموم!! فليكن لها هى الأخرى حقها فى الراحة والهدوء!

وتحرك النعش، فتحركت كالمنوم وسط الجموع.. أخذتنى الغيبوبة من جديد. تنبهت فجأة اننا عبرنا الكوبرى الخشبى إلى الضفة الأخرى من الترعة.. كانت المدافن وسط الحقول.. كيف ظلت هذه الحقول

خضراء حتى الآن؟! لماذا لم تتلون بلون القبور؟! عند المقبرة توقفوا. فتحة مستديرة ظلماء فاغرة فاها.. وقفت متسمراً أرقب المنظر الغريب المروع في ذهول.. أهو وهم أم حقيقة!! اللحاد الطويل الضخم بجلبابه البني الغامق يدخل المقبرة.. يسوى التراب التسوية الأخيرة.. يضع لرأسها وسادة صغيرة.. أشكرك أيها اللحاد من الأعماق على هذه اللفتة.. ورغيفا أيضا من الخبز.. هل ستستيقظ إيزيس لتأكل ثم تنام من جديد وتستريح؟! أجل.. وربما أعود إلى البيت فاجدها هناك. كالمعتاد. وسدُّوا المقبرة.

انسللت من قلب الزحام. متجها إلى أطراف منطقة القبور.. وجلست.. كانت حقول القمح النابتة الصغيرة تترامى إلى اخر الأفق البعيد.. خيل إلى أن أعواد القمح هى هكذا بنفس الحجم، طوال العمر.. كأنما لم يحدث أى بذر أو حصاد جديدين منذ آلاف السنين!!

تطلعت إلى الضفة الأخرى.. من حيث جاء الموكب.. أشجار الصفصاف، والتوت، وأم الشعور تحجب بيوت القرية.. عاودنى الشعور بالرغبة في الهروب.. فما عاد شيء في هذه القرية يحتم استبقائى.. لكنى تذكرت السرادق الذى سيقام، والكلوبات التى ستضاء.. وأنا واقف اتقبل العزاء.. من كل القرى والبنادر القريبة سياتون ليشدوا على يدى ويعزون انفسهم قبل أن يعزونى. كان لها سمت الرجال الكرام العظماء.. وكانت تفرح إلى حد الطرب حين يكون في البيت ضيوف.. وكانت تسعد بإطعام الغرباء وأبناء السبيل.. بالجملتها البسيطة والبليغة، والتى

تعدل عشرات الصفحات المكتوبة فى الإنسانية والاشتراكية: «كلوها تروح.. فرقوها تفوح».

الآن عطر سيرتك يا أمى هو الذى سيفوح!!. أصمد أيها القلب واحتمل ضنى الليلة.. لسوف ابقى صاحيا حتى يهل نور الصباح، فلم يعد لى هنا مكان أنام فيه.. هذا البيت التاريخى القديم بدونها أصبح خرابة تسكنها الأشباح، رغم أنها هى التى دربتنى على الشجاعة منذ الطفولة، وأنه ليس من جن ولا عفاريت.. إنما.. «البنى أدم يا ابنى هو العفريت»!!

الآن.. هذا البيت بدونها هو الخوف ذاته، محال بعد هذا أن أدخله وأجوس فى أرجائه.. ولو حتى لأستعيد بعضا من الماضى وذكرياته!!

هدأت الضجة وتلاشت الأصوات وانسحب المعزون من منطقة القبور عائدين إلى القرية. وأنا وحيد لا أزال. جالسا على الأرض.. ظهرى للمقابر، ووجهى للحقول.. حقول القمح الشاسعة المترامية حتى الأفق البعيد.. متى زرعت هذه الحقول، وكم مرة زرعت.. وكم مرة حصدت، ثم نبتت واينعت بالخضرة من جديد؟!.. أو.. ربما لم يحدث أبدا بذر ولا حصاد.. إنما هى هكذا خضراء فيحاء تتماوج مع النسيم منذ آلاف السنين!

نهضت واقفا: فليكن الوداع الأخير!

لم يكن أحد غيرى.. وقفت أمام الفوهة المسدودة.. انتصب شعر رأسى وأنا أرى الفوهة وقد انفتحت، ورأيتها ممددة فى سكون تستريح من تعب السنين.. ومع هذا، فقد أحست بوجودى، وإذا بها تنهض فى تؤدة وجلال ثم تجلس نصف جلسة.. على وجهها صفاء عميق، وعلى شفتيها المطبقتين ابتسامة أبدية!!.. هممت بالتحرك والدخول إليها، لكنها بسطت كفها.. تستوقفنى: «لا.. أبق عندك.. وتذكر.. أنا لم اتركك إلا وأنت كبير رجل بين الرجال!! الآن إحمل حياتك على كاهلك وأمض بشجاعة!.. تقول أنك أخيرا وجدت عملا؟! كنت واثقة.. ياما دعوت لك. مبروك ألف مبروك.. سازغرد لك!!».

وانتشر فى كيانى صليل زغرودة ذهبية ملأت جنبات المقابر والحقول.. وانتابتنى رعشة محمومة.. أريد أن أهجم على القبر.

- أمى. أمى

- وعادت تبسط كفيها فى وجهى.

- لا.. لاتتقدم. أنسيت يا ولدى الحرام والحلال. اطمأننت الآن عليك.. إمض الآن.. أنزل الستار: ودعنى استريح.. أنا فى أشد الحاجة إلى النوم العميق.. الطويل.

ومالت بظهرها فى هدوء. وأغلقت عينيها، وعادت إلى رقدتها فى سلام!

السلام عليك يا أمى، وعلى الدنيا معك السلام!

ومن الآن لا دموع!

أعطيت القبر ظهرى. حملت نفسى وسرت وحيدا.. أدب على الطريق الضيق المترب بين الحقول.. ورأيت أمامى، على بعد قليل، فلاحا يسوق أمامه بهيمتين تقودان محراثا، وحد المحراث يشق فى الأرض خطا واضحا ثابتا.. بطول الطريق..

أبطأت من خطواتى. كى اتفادى أى لقاء أو كلام.. أريد أن أبقى فى غيبوبة الصمت. وكانت ظلال المساء قد شرعت تهبط على الحقول، وعلى الطريق. وإذا بى ألاحظ أن قدمى تسيران فوق خط عميق محفور بطول الطريق.

هو الخط الذى حفره فى الأرض حد المحراث المسنون. خط الحياة.. منذ آلاف، بل ملايين السنين!

١٤

النمر إنقاذى!

كان أهم الأحداث التى أعقبت رحيل أمى، هو قيامى برحلتى الأولى فى نهر النيل منطلقا أنا والصديق الرسام حجازى على ظهر مركب شراعى من القاهرة إلى أسوان.. واستغرقت منا ستة وعشرين يوما فى الذهاب، ويوما واحداً فى العودة بالقطار!

كانت الرحلة بشكلها الغريب أو المثير هذا تعبيراً عن رغبتى الكامنة والمتأججة فى الخروج من قبضة أشباح الموت.. موت أمى.. وأشباح السجن التى كانت كوابيسه لا تزال تلاحقنى.. وكذلك أشباح الفن التى دأبت على تأنيبى منذ عينت رسمياً فى «صباح الخير»، وأصبحت معظم طاقاتى موجهة إلى الموضوعات الصحفية، أما الفن الحقيقى. تراجع كل ذلك وتوارى إلى الخلف!!.. وقد ألمنى أنى لم أنشر ما كتبته فى موت أمى متحرجا من اعتباره مسألة شخصية، بينما حولت فكرة االموت إلى تحقيق صحفى أجريته مع بعض النجوم المشاهير عن واقع الفكرة عليهم حين تداهمهم، وهم فى عز لحظات المجد والنجاح والإحساس بالتألق.. وقد تحمس رئيس التحرير للفكرة لحظة اقتراحها فى الاجتماع، وقال وعيناه تبرقان: وسيكون عنوان الموضوع: السؤال الرهيب!

غير أن مثل هذه المواضيع، على بريقها وجاذبيتها الصحفية، كانت مثل الزبد أو رغاوى الصابون سرعان ما تتطاير من نفسي. بل أحس بها تعمل على تفريغ طاقاتي الحقيقية! وبات الإحساس بالذنب يتملكنى، أنى تخليت عن أحلامى الفنية لقاء ذلك المرتب الشهرى الهزيل والذى يغطى بالكاد ضروريات الحياة لأسرتى. الأمر الذى أخذ بالتدريج يظلل علاقتى بفتحية بسحابة معتمة كئيبة.. وأصبح الشجار يثور بينى وبينها لأتفه الأسباب نتيجة لتوترى وعصبيتى. فأى مجد أن يكون المرء زوجاً وحبيبا وأبا ناجحا، لكنه فى الفن متعثر فاشل؟! طائر نتف الزواج ريشه واحتواه قفص الحياة الأسرية المثالية الرتيبة المطمئنة!!. وحيث أنه لم يكن مطروحًا أن أخلع نفسى من العمل بالصحافة وأعود إلى حياة التشرد والبطالة من جديد، فقد وجدتنى مواجها بالتحدى: إما أن أترك الصحافة تطحننى وتدمر حتى حياتى الشخصية، وإما أن اتحايل على أساليبها التقليدية بفكرة باهرة أو فعل خلاق يكون ثورة على مستوى الثورة الوطنية الكبرى السارية فى البلاد. وكانت الانطلاقة في مجاهل النهر العظيم!!

كما سبق هذه الرحلة حدث كان له دويه الهائل والخطير لا على مستوى مصر وحدها، بل العالم العربى كله، وهو وقوع انقلاب عسكرى مضاد فى سوريا أعلن قادته الانفصال عن مصر وأدانوا الوحدة التى تمت باعتبارها غزوة مصرية استولى بها الفرعون المصرى الجديد على سوريا!

وقد أصبت فور سماعي الخبر بما يشبه الزلزلة.. وحملت هم عبدالناصر: هذه أول ضربة تأتيه من العرب.. تأتيه غدراً من نفس البلد الذى اغراه وناشده قبوله وأعطاه الثقة فى المغامرة به!!.. وتذكرت حماسي واندفاعي خلفه تاييداً وفرحاً بإتمام الوحدة، مخالفا رأى الكثيرين من الرفاق القدامى الذين كانوا يفضلون أن تكون الوحدة أولا .. فيدرالية!

ورغم أن الواقع جاء مؤكدا لصحة هذا الرأى، وأن التعجل بإعلان هذه الوحدة كان خطأ، إلا أننى مضيت التمس له المبررات: إن عظمة القائد والبطل ليست فى ضرورة أن يكون متاكداً من النجاح والانتصار فى المعارك التى يتصدى لها، بل أساسًا فى إقدامه على المغامرة واقتحامها.. فى طرح الحلم القومى العظيم ووضعه موضع التجربة والتطبيق، وأنه لا يطرحه على جيلنا فقط، بل على الأجيال القادمة أيضا!

غير أن الأحداث تطورت سريعا بعد ذلك على نحو ملأنى بالقلق وبالتشاؤم! فأمام ذلك الحلف الذى انعقد بين البعثيين والشيوعيين السوريين والعراقيين، كان أول ضحية لذلك هم الشيوعيين المصريون.. فقد استيقظنا ذات صباح، لنفاجا بأن رجال عبدالناصر قد شنوا - فى الفجر - وعلى مستوى مصر كلها، حملة واسعة قبضوا فيها على عدد كبير من الشيوعيين نعرف أنا وفتحية الكثيرين منهم.. وعادت الأحزان تعرف طريقها إلى بيوتهم وذويهم. زوجات وأمهات وأطفالا!!.. ومنذ تلك الليلة، وكانت ليلة رأس السنة، دخل تعبير «زوار الفجر» قاموس

الحياة السياسية فى مصر! وعاودتنى الهواجس القديمة.. فماذا لو جاءوا فى أية لحظة وألقوا القبض على.. ليس هذا أبداً بمستبعد. فانا مازلت مسجلا فى قوائمهم السوداء، ولم أخرج منها! أجل.. بالتأكيد لم أخرج منها، ولم يتحمس أحد ليتقدم ويقنعهم برفع اسمى، فها هى تحولاتى العاطفية نحو عبدالناصر وحماسى لقيادته.. ذلك الحماس الذى لم أغيره حتى مع بعض أخطاء يرتكبها!.. كل ذلك كان يجعل رفع اسمى من القائمة منطقيا وعادلا!!

ولكن أى منطق وأى عدل يعرف هؤلاء؟! لقد خبرت جبلتهم الدفينة والكامنة فى طبيعتهم الافتراسية!!.. وفكرت أن أهرب سراً من بيتى وأختفى فى أى مكان لا يعرفونه حتى تنجاب تلك الغمة، وخاصة أن الأزمة كانت تزداد تفاقما.. إذ بلغ الغضب بعبدالناصر أن اتهم الشيوعيين والبعثيين بالعمالة والعمل لحساب «دولة أجنبية». وأن لا وطنية ولا قومية حقيقية لهم .. وكان بالطبع يقصد بالدولة الأجنبية: الاتحاد السوفيتى. غير عابىء بالدور الذى قامت به هذه الدولة فى وقف العدوان الثلاثى.. وكذلك فى مشروع بناء السد العالى: «إننا لم نكافح من أجل حريتنا واستقلالنا، لكى نفرط فيهما بعد ذلك لآخرين مهما كانوا ومهما كان الثمن!!»

ومست هذه الاتهامات الاتحاد السوفيتى. الصديق فرد عليه «خروتشوف» السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى آنذاك واصفاً إياه بالشاب الأرعن!!

وهكذا أدلهم الجـو، وتضـخم وحش الخـوف فى البـلاد.. هاهو عبدالناصر - بدماغه الصعيدى - يعادى الجبهتين: الغرب الذى يتآمر عليه، والشرق الذى يمد له يد المساعدة.. فهل هى بداية النهاية؟! وها هى فتحية، متأثرة بضربة زوار الفجر، واحتمال ضربات أخرى جديدة.. تعبر عن رأى خطير باتت مقتنعة به، أن حركة الضباط الأحرار هذه ما هى من الأصل إلا حركة مدبرة لتصفية الحركة الثورية الشعبية الحقيقية. وإقامة دكتاتورية عسكرية تبطش بأى نضال وطنى أو قومى حقيقى!! وقد تصورت فتحية أننى وأنا على هذا الحال من القلق والتفكير فى الهروب والتخفى لفترة، أننى سأشاركها هذا الرأى، غير أنى كنت قد وعيت الدرس جيدا: ليس مع كل إجراء لا يعجبنى من الثورة انقلب على عقبى وأعلن إدانتها!! المسألة يا فتحية أشمل وأعقد من ذلك بكثير!!

ولحرج اللحظة أوقفنا أى نقاش سياسى بيننا! كما أتخذت قرارى بعدم الهروب.. وليحدث ما يحدث!!

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل، حتى كنت منطلقا فى نهر النيل، كالهارب من عالم، إلى عالم آخر. أبعث فيه من جديد.. أو ألقى مصرعى.. وأنا فى عز مواجهات الحياة!

ولقد حلّت على بركات النهر العظيم.. فكانت رحلتى فيه ومعايشتى لعالمه ستة وعشرين يوما وليلة، بعثا وميلاداً جديداً لى.. سواء من خلال اجتياز الرحلة كأحداث ومشاق وتحديات، أو من خلال كتابتها ونشرها فى مجلة صباح الخير.. مزينة وناطقة بلوحات الفنان العبقرى حجازى!

ولأننى اعتبر «النهر» من أجمل ما خرجت به من حياتى، وما سوف اتركه بعد مماتى، فمن الوفاء الحق الاعتراف بجميل من كان له الفضل الأول فى تحقيقه وانجازه، وهو الفنان الكبير فتحى غانم، رئيس التحرير آنذاك.. بحماسه واحتضانه العظيم للفكرة عند طرحها، مستثاراً بإنجازه الفنى والروائى السابق: «الجبل». راغبا فى تأكيد هذا التقليد: دفع الأدب والفن إلى منطقة المغامرة وفض أسرار عناصر الطبيعة فى بلادنا.. فكان أن خرج «صبرى موسى» إلى الصحراء. وكتب رائعته: فساد الأمكنة. وخرج صالح مرسى إلى البحر الذى كان يعمل فيه من الأصل بحارا. وكتب روايته: «زقاق السيد البلطى»

كما لا أنسى ابداً أن أول من حيا هذه الرحلة وبشر بها كتابة فى مجلة «روز اليوسف». هو الصديق العزيز.. الكاتب الراهب المتمرد فى نفس الوقت على رهبنته. رجاء النقاش.. حين اعتبر هذه الانطلاقة فى النهر هى السلوك الحق والنموذج الذى يجب أن يقتدى به الكتاب ونحن نحيا مرحلة ثورة.. الخروج من المكاتب والمكتبات وارتشاف المعرفة والتجربة الحقة من كتاب الطبيعة وقوانينها العظمى!

وما خطر أبداً ببالنا ونحن ننشرها فى المجلة على حلقات أسبوعية أنها ستحقق كل هذا النجاح.. فقد انهالت علينا الخطابات.. قراء وقارئات. كانوا يتابعونها بشغف وقلق أيضا، ظانين -معظمهم- أنى اكتبها، وأبعث بها من على ظهر المركب حلقة بعد حلقة.. وذلك من شدة الإحساس بفرط صدقها وواقعيتها وعناصر الإثارة والخطر فيها،

دون أدنى افتعال فى كتابتها!!.. وأذكر أنى فوجئت ذات يوم بفتحى غانم يقول لى مشجعا وفى نفس الوقت محذرا ومستفزاً: خلى بالك. أوع الحلقات تفلت منك!

ومن فرط الإحساس بالمسئولية والخوف من الفشل والسقوط بعد كل هذا النجاح، وجدتنى انتحى ركناً قصيا فى شرفة شقتى العالية بالدور العاشر والدنيا ليل، ولا أحد يرانى.. وأحسست بالدموع تنزل من عينى.. وكنت أهمس لنفسى: وأنا كان مالى ومثل هذه التجربة.. أو مثل هذا النجاح.. إننى الآن أعيش الرعب من الفشل!

وبقوة دفع هذه المشاعر، الهمت الخط الصحيح، واستطعت أن أحقق المستوى الأعلى فى الكتابة!

ولقد اكتشفت حقيقة مثيرة من خلال كتابتى لهذه الرحلة: أن الكتابة عن «الفعل» هى أشق وأكثر إثارة من الفعل ذاته!! فقد كنت فى هذه الرحلة أمضى كالمساق.. تتحكم فى العناصر.. مختلف العناصر.. طبيعية أو إنسانية. أما «الكتابة» فهى «فعلى».. مخططى.. وأنا المتحكم فيها وفق اختياراتى وتوجهاتى.. أنا المسئول الأول والأخير عنها!

ولأن الصدق كان هو بوصلتى ومؤشر أمانى ورضاى النفسى، فقد وجدتنى فجأة وأنا فى عز استغراقى فى الكتابة، مواجها بازمة نفسية بالغة العنف والقسوة. وكانت واحدة من أخطر الامتحانات التى واجهتنى فى حياتى ككاتب، وخرجت منها بدرس عظيم لا ينسى!

حدث هذا بعد أن انتهيت من كتابة إحدى الحلقات بعنوان: «البرنس».. وأخذت طريقها إلى المطبعة فى ذلك اليوم، وأنا شديدُ الرضا عن نفسى، صعدت إلى سريرى، ومن شدة التعب الجميل استغرقت فى نوم عميق، وإذا بهم - رجال المباحث - ينقضون علىّ.. ويحملوننى إلى السجن.. صرخت فيهم: لماذا؟ لماذا؟! وقبل أن يجيبوا علىّ، كانت صرختى قد ايقظتنى من النوم، وأدركت أنى كنت فى قبضة كابوس أو حلم أسود!.. أضأت النور وانتصبت جالسا على السرير، انفاسى تتابع من فرط الجهد النفسى الذى بذل فى الحلم والخروج منه! وأدركت على الفور سر هذا الكابوس أو الحلم الفظيع!!.. كانت الحلقة التى كتبتها وسلمتها للمطبعة تدور أساساً حول شخصية العبانية انتهازية قابلناها أنا وحجازى فى مدينة بنى سويف.. كان مركز سلطة خطيراً. فهو سكرتير عام المحافظة.. والمسيطر الفعلى على تنظيم الاتحاد الاشتراكى الذى أعلن عنه عبدالناصر بديلا عن الاتحاد القومى بكل سلبياته!.. وحين علم منا أننا صحفيان تهلل وجهه، ولم ينتظر حتى نخبره بمهمتنا وصمم على اصطحابنا فى جولة بالمدينة ليرينا عبقريته فى حل أزمة الخبز والمخابز بالمدينة! وإذا بنا أمام طاووس منفوش الريش يمشى أمامنا متعاجباً بنفسه وبصوته وبشعبيته.. فهاهم الناس يتحلقون حوله، ليس فقط من أجل الخبز، بل من أجل مصالح كثيرة معلقة لهم، ولا ينادونه إلا.. بالبرنس: يا سيادة البرنس. يا حضرة جناب البرنس!

وخطر لى لو أن عبدالناصر رآه، لأحضره وجلده فى أوسع ميدان، ليس هو وحده، بل قبله المحافظ الذى اختاره لهذا المنصب الحساس.. فهل ذهب عصر الملوك ليحل محله عصر البرنسات.. يحتلون أخطر المناصب فى أخطر التنظيمات السياسية للثورة؟!

كان هذا هو التوجه العام للحلقة التى كتبتها.. وإذا بالعقل الباطن، بتجاربه المخزونة، يطفو - بعد أن نمت - على هيئة حلم أو كابوس مروع، ينبهنى.. يحذرنى من نفسى، ويدعونى لأن اتعقل؟

فهل أنا مستعد الآن للرجوع مرة أخرى إلى السجن.. أو إلى المعتقل؟!

تعقل يا عبدالله.. وأذهب فى الصباح مبكراً إلى المطبعة واطلب الموضوع إن كان قد تم جمعه.. وارفع كل السطور التى فيها مساس برجل الاتحاد الاشتراكى. وبذلك تنتهى تماما من هذا الكابوس وتتجنب زوار الفجر!!

مازلت أذكر هذه اللحظة البعيدة فى الزمن، أوائل الستينيات، لكنها الآن ماثلة أمامى وكأنها بالأمس.. وأنا سائر فى طريقى إلى المجلة، لكى أقوم وعلى وجه عاجل بالمهمة.. وإذا بى أسمع صوتا يقول لى: أيها الجبان.. ماذا سيبقى لك بعد أن تخفى الحقيقة وتتخلى عن الصدق الذى هو روح كتاباتك؟! كيف ستواصل الكتابة عن النهر الذى منحك بركاته فكشف لك عن الكثير من أسراره وأساطيره وبطولاته.. أنت الذى واجهت الموت غرقا.. وملا.. ومرضا.. ويأسا وتغلبت على كل

ذلك وامتلأت ثقة وشجاعة وأملا فى المستقبل!! إنك لو حذفت فعلا هذه السطور ، فانت متواطىء، وأنت ضالع مع كل العناصر التى تتآمر على الثورة وعلى التقدم!!

وإذا بخطواتى تتباطأ.. ثم تتوقف تماما. ورأيت الدنيا سواداً فى عينى.. وأنى أقلب مجدى وفرحى إلى خجل ونكوص.. لا.. لن افعلها.. ولسوف أترك الحلقة كما هى.. كما كتبتها. لن الغى منها حرفاً واحدا.. وليكن ما يكون!!

وما أروع إلهامات الحياة حين ينبثق النور فجأة من قلب الظلام ، ونصبح الكآبة - كما يقول العزيز جبران - فجراً لذواتنا! لقد نشرت الحلقة كما هى ولم يحدث أى شيء سوى الازدياد فى خطابات القراء الذين راحوا يقرظون شجاعتى النقدية، ويشيدون كذلك بهذه الحرية التى ننعم بها نحن الكتاب فى نقد أخطر جهاز سياسى جماهيرى للثورة! تنظيم الاتحاد الاشتراكى!

حينذاك أدركت أننا نحن الذين نستسلم لوحش الخوف فنتركه يتضخم بداخلنا دون أن نقاومه، على الأقل حفاظا على الإحساس بكرامتنا وكبريائنا الإنسانى!.. وفكرت سعيداً راضيا أنى فى حماية النهر الذى يغمرنى ببركاته ويلهمنى الموقف الصحيح. بل خامرنى الشعور بانه غسلنى غسلا من ذلك الوباء التاريخى القديم المسمى بالخوف، حين نازلته وقاومته، ولم اتركه يبتلعنى ويقضى علىّ!

فى نفس تلك الأيام، وجدت ـ وياللفرح ـ عبدالناصر يتحقق له ميلاد جديد.. لا ـ بل هو نفسه الذى يصنع الميلاد الجديد.. له ـ ولنا.. وللوطن العربى بأكمله!

فما كادت تقع صدمة الانفصال، ويعلن اليمين البعثى السورى إلغاء الوحدة على هذا النحو المهين والذى بدا كأول هزيمة ساحقه يمنى بها البطل المصرى على أيد عربية وليست أجنبية.. إذا به ينتفض واقفا متحديا منددا بتلك المؤامرة الرجعية كاشفا أبعادها الحقيقية .

وإذا بسحر الثورة الذى كان قد بدا أنه خبا بفعل ضربة الانفصال، إذا به يعود بموجاته الضوئية والصوتية.. محركا دورة الدماء فى العروق.. وهو يقول، صاعداً بنا إلى الذروة: فلننتبه أيها الأخوة.. ولنضاعف من يقظتنا.. فالاستعمار غير مكانه.. ولم يعد له مكان فى حربه مع الشعوب غير الاختباء فى قصور الرجعية.

كنت انصت لعبدالناصر وهو يقول هذه الكلمات.. لا.. بل يهدر بها. فأحس منتشيا أنى أسمع إحدى سيمفونيات البطولة.. وأن كتلا من الضباب تتبدد.. وإذا ثمة مشهد من مشاهد رحلة النهر تعاودنى..

يوم طالعنى وجهه ذات صباح.. خارجاً من قلب الجبل. فأسرعت ودقات القلب تسرع إلى قلمى وورقى.. وأنا واقف على حافة المركب أسجل المشهد واللحظة.. وإذل بالقلم يخطّ جملة نابعة من الأعماق: إنه مثل النهر .. يولد يوماً بعد يوم.

١٥

العذاب والشهوة

من مباهج حياتي بعد انتهائي من كتابة «النهر» ونشره، أني حصلت على مكافأة مالية قدرها خمسون جنيها.. (اضرب الرقم في مائة تحصل على قيمتها الآن).. وكان رئيس مجلس الإدارة أيامها يوسف السباعي. وقد طرت فرحاً بها، ثم طرت بفتحية إلى رأس البر، تاركين الأولاد عند أختي كوكب في المنصورة.. وعشنا أربعة أيام أو خمسة في إحدى العشش الصغيرة المطلة مباشرة على امتداد البحر العظيم.. كان العالم سيمفونية كبرى.. وكنا نرى في عيون بعضنا النجاح.. أنا انجزت «النهر»..وهي انجزت «زهرة العمر» أول وأعظم دستور للفن في بلادنا كتبه توفيق الحكيم.. أعدته للإذاعة في سهرة درامية لمدة ساعتين في البرنامج الثاني.. وقد نوه به ركن الإذاعة والتليفزيون بجريدة الأهرام في خبر من أربعة أو خمسة سطور. ومازلت أحتفظ بالقصاصة التي بها هذا التنوية حتى اليوم!

وعلى شاطيء البحر ونحن مستلقيان فوق الرمل، أو نحن نسبح على مهل فوق صدر الموج، راح كل منا يحدث رفيقه عن مشروعه الذي ينتظره بعد العودة إلى القاهرة: أنا تنتظرني مسرحيتي الأولى «طيور

الحب»، والتى كنت قد شرعت فى كتابة الفصل الأول منها قبل الرحلة.. وهى.. فى انتظارها حلم جديد يراودها: الكتابة للتليفزيون.. لم لا؟! وأعطيتها شحنة تشجيع. أجل لما لا تدخل المغامرة فى هذا الجهاز الوليد حيث الكل لايزالون يجربون ويغامرون ويكتسبون الخبرة. فلتغامر هى أيضًا كما غامرت من قبل فى الإذاعة.. وتضاعفت سعادتنا!! وهكذا لم يكن الفن يروى وينعش لحظات حياتنا الحاضرة فحسب، بل كان أيضاً يرسم لنا الحلم والمثال للمستقبل!

ولا شىء فى إعتقادى يعطى للحياة جمالها ويهون من مصاعبها ويجد العزاء لأحزانها والبلسم لجراحها مثل الفن.. وقد كتبت ذات مرة جملة نشرتها على ظهر غلاف أحد كتبى وهو مجلد يحتوى على مختارات من قصصى القصيرة: «عشت حياتى كأنى أكتب قصة.. وكتبت قصصى كأنى أعيش الحياة الحقة».. وهى رؤية شعورية بالغة الدرامية فى جوهرها، ذلك أن الأحداث التى هى عصب الفن إذا لم تكن تأتى لتهز حياتى بقوة مثلما تهز الرياح الشجرة وتسقط ثمارها، سعيت أنا لصنع الأحداث وتخليقها ولوحتى بالخيال والتخيل.. وأن حدث وفشلت، ابتأست وبكيت على افتقادها وخواء والحياة بدونها!

وإذا حصل وجاء الحدث مؤسيًا أو مفجعًا تماسكت وتعزيت عن البلوى والألم بإنه قد يصلح لأن يكون موضوعًا، أو عموداً صلبًا، أو مشهداً حياً فى بناء قصة أو مسرحية!

ولم يكن هناك دليل على هذا أبلغ من ذلك الحلم المروع الذى هاجمنى ذات ليلة عقب عودتنا من المصيف وانخراطنا فى دورة الحياة

العادية، إذ سرعان ما عاودتنى الأزمة إياها.. أزمة الانقسام والصراع بين كونى صحفياً مطلوب منى وعلى نحو عاجل متابعة الأحداث اليومية الجارية وتغطيتها، وبين كونى أديباً يود ألا يكتب إلا فنا خالصا يتعامل مع القضايا الإنسانية والكنية والجمالية العليا!! ولأنى لا أحب أن أبدو في عملى مقصراً، فقد قررت تأجيل المسرحية بعض الوقت، وأغرقت نفسى فى معجنة الصحافة.. وإذا بإحساس بالكآبة يحط علىّ.. وعافت نفسي الإمساك بالقلم.. وبدا لى أنى أفلست، تكاد تكون نفس الأزمة الخانقة التي هاجمتنى قبل رحلة النهر.. وصرت أنام كل ليلة والدموع منعقدة في حلقي.. وإذا بى أرى نفسى فى الحلم.. أننى مت.. وأننى محمول على الرؤوس فى نعش.. وأننى فى نفس الوقت أمش مع المعزّين وراء نعشي.. سائرا فى جنازة نفسي.. وما أن اقتربنا من المدافن حتى وجدتنى أنتفض صاحياً من النوم مفزوعاً ألهث وأجاهد لكى أتمالك نفسي.. غير أن الشعور التالى المباشر كان - وياللغرابة - إحساساً خفياً بالارتياح.. ذلك إننى عثرت بهذا الحلم الرهيب على جوهرة.. فلسوف أكتبه مشهداً فى المسرحية.. كذروة درامية لمأساة البطل.. حين فقد قدرته فى إحدى الفترات على الإمساك بخيوط حياته.. حين رأى أن أعظم ممتلكاته تتسرب من بين يديه: الفن والحب والكبرياء.. وأنه بذلك بات إلى زوال!

وقد تحقق ذلك حين شقت المسرحية - فيما بعد - طريقها إلى خشبة المسرح القومى، ونفذ هذا المشهد الحلم، وبإخراج الفنان محمد

عبدالعزيز على نحو رائع ومؤثر.. مصحوباً بتلك الموسيقى الجنائزية المعروفة. معلنة سقطة البطل المأساوية!!

ولم أكن أناقش فقط في هذه المسرحية أزمة الثورى الذى يشارك فى التمهيد للثورة، حتى إذا ما قامت استبعدته وجمدت نشاطه السياسى (وهى بالطبع في جوهرها أزمتى وأزمة الكثيرين من قرنائى) كنت أناقش أيضًا قضية «الكاتب والتجربة» وتخصيصًا قضية الحرية فى علاقة الكاتب العاطفية بزوجته التى هى حبيبته وبتعبير آخر: قضية «الوحدانية فى الحب» هل الإخلاص فى الحب (مثلما يحدث مع ذلك النوع من الطيور المسمى بطيور الحب، والذى إذا مات أحد الرفيقين، انطوى الرفيق الآخر على نفسه.. وحيداً.. حزيناً.. حتى الموت)، هذا الإخــلاص المطلق فى الحب.. هل يعمل على ازدهار الفنان، أم إنه يجمده ويقضى على فنه؟! وبصيغه أخرى .. هل على الفنان، والكاتب الأديب بالذات، أن يكون «دون جوانًا» طلبًا للإغتناء بالتجربة كموضوعات للكتابة وعليه أن يعيش مغامراتها.. يمارسها يتقنها.. يتعرف على خفاياها ودقائقها الحية، لكى يعرف كيف يجيد التعبير عنها؟!

قضية الفن والأخلاق، ومدى التوافق والانسجام، أو التنافر والصدام بينهما!

وكان لى أيامها صديق ممسوس بحب الكتابة والفن، وكان يسخر بظرف من حكاية الوحدانية فى الحب هذه ويرى أنها ضد قوانين

الطبيعة.. فكيف وباسم ماذا يقهر الفنان فى نفسه حب الجمال.. كيف يعمل على قتل الشهوة فى نفسه وهى الشعلة المقدسة التى تمنحها الطبيعة للبعض وتختصهم بها أكثر من غيرهم؟! وكان يقول بانفعال وكأنما يترافع فى أعظم وأخطر قضايا الوجود: مغفور له من يرتكب المعصية أو الخطيئة إذا كان حصادها فى النهاية فناً جيداً مبهراً!

كان يذكرنى دوما بفاوست بطل «جوته»الذى من أجل لذة الاكتشاف وشهوة المعرفة ومتعة الاستحواذ على الجمال، يبيع روحه للشيطان ولا يبالى بأى شىء. وكان يؤكد أن السر الأعظم فى عبقرية هذا الشاعر العالم الوزير «جوته»، أنه هو نفسه كان يضم بين جوانحه الشخصيتين اللتين أقام عليهما بنيان مسرحيته: الدكتور فاوست بعلمه ورهبنته.. وقرينه مفيستوفيليس ذلك الشيطان الرجيم فى أعظم وأبهى صوره! ولو أنه - بدعوى الأخلاق - قضى فى نفسه على «مفيستو» لما أبدع هذه الملحمة!

ورغم المنطقية الظاهرة لهذه الرؤية،إلا أن صوتاً من داخلى كان يعلن رفضى لها.. فقد تبين لى مع الأيام أن هذه الروح «الفاوستية» بكل ضراوتها وناريتها، مقرونة عنده بعالم الجنس والشهوة فحسب، كما كان يقيس قدراته ومدى تفوقه بعدد النساء اللاتى يقعن أو يوقعهن فى حبائله!.. كنت أفكر بأن التجارب والمغامرات والاقتحامات التى يحتاج الكاتب أن يخوضها كى يجدد بها حياته وفنه، هى أوسع وأرحب من أن تختصر فى بضع مغامرات جنسية وعاطفية لا تحقق الشبع بل الجوع المستمر أبداً!

كنت أعبر له عن هذا، فترتسم على شفتيه وفى نظرة عينيه الواسعتين المتأججتيين بالشهوة ابتسامة ساخرة تقول بلا كلام: ذلك عجز.. أو جبن.. والخاسر الأكبر هو الفن!

هنا كان يأتى على الوجيعة.. خاصة لو أنى أمر بأزمة خلق فنى، فيبدو لكلماته رنين وسحر.. ولقد كان تصورى لأى شيء يورثنى الضعف والفشل فى الفن كان يرج كل وجودى ويفقدنى كل متعة فى الحياة وأعيد حساباتى مع هذا الشيء مهما كان.. أجل مهما كان.. حتى ولو كان هو زوجتى.. حبيبتى.. فتلعب الأوهام ويبدو الحب مع الأيام ومع التكرار.. قد تحول إلى شيء معلب بارد محفوظ.. وإذا باللهيب يخبو ويصبح جذوات خامدة يغطيها الرماد ويصبح الأمل الوحيد فى البعث عاصفة تكتسح الرماد وتشعل الجذوات الخابية بالنار!!

وقد كان ذلك بالضبط هو إحساسى الذى أفتتحت به الحلقة الأولى من رواية «النهر»: اتدرى ماهى محنتنا يا صديقى.. لقد أصبحت حياتنا كدورة الليل والنهار.. نفس التعاقب.. نفس الدقة.. نفس الألوان. إننا نكرر أنفسنا. نحن - يا صديقى فى حاجة إلى شيء جديد.. فكرة جديدة.. شمس جديدة.. أو.. ربما حب جديد يعيد الروح إلى قلوبنا التى تحتضر!

وقد أستأثرت بأهتمامى وأنتباهى هذه القضية. قضية «التجربة» وضرورتها بالنسبة للفنان. وأعتقد أنه ما من كاتب أو شاعر إلا وشغلته بل وحيرته وعذبته هذه القضية!.. وربما كان أبلغ من عبر عن ذلك

المعنى هو شاعرنا المصرى العتيد «نجيب سرور» حين قال فى ديوانه «لزوم مايلزم».. وكانت قصائد ما قبل الموت:

صلّيت فى الماخور كى أعرف أسرارالطهارة.

وزنيت فى المحراب كى أسبر أغوار الدعارة.

هذا الحرص الوحشى، وأكاد أقول الانتحارى على خوض التجارب لاجتلاء الحقيقة مهما كان المها أو لذتها. كنت أتوقف عنده طويلاً.. وأفكر فى موقفى أنا شخصياً منها!!.. وقد كان غريباً أن تشغلنى هذه القضية وأنا عائد لتوى من تجربة هائلة شيبت شعر رأسى، ليس مجازاً بل حقيقة، ذلك إنى حين ذهبت إلى الحلاق بعد عودتى من النهر.. إذا به وهو يمشى بالمشط فى شعرى يقول مفاجئاً: ما كل هذا الشيب؟!.. لم يكن موجوداً آخر مرة؟!

ولما أخبرته بأمر الرحلة، قال مشجعاً ومهوناً: على أى حال.. الشيبة هيبة

فضحكت قائلا:هيبة أو خيبة.. كله محصل بعضه!!

أقول رغم عنفوان التجربة وعبقها وثرائها، إلا أننى ما كدت أنتهى من كتابتها، حتى داهمنى ذلك الإحساس بالفراغ وبالجدب. وصرت أتوق إلى تجربة جديدة تتجدد بها روحى.. عاصفة عنيفة يطير معها الرماد وتشتعل الجذوة الخامدة.

وذات يوم.. ذات قيلولة حارة، وأنا وحدى فى البيت، وفتحية والأولاد عند أمها.. إذا يجرس الشقة يدق. ترى من يكون فى هذه

الساعة التى تبدو المدينة فيها كلها هاجعة من الحر. أتجهت إلى الباب.. وفتحته.. طالعني الوجه.. بالعينين الباسمتين، بالشعر الناعم المنسدل ريانيا على الجانبين والمفروق من الوسط مؤكداً الجبين الفسيح الوضاح والأنف النفرتيتى الشامخ.. والصدر الناهد على استحياء.. واقفة أمامى كأنها منحة قدرية على غير انتظار. تفتح القلب وتسارعت دقاته فى الخفاء، هناك نوع من الجمال الأنثوى يجذبنى إشعاعه من النظرة الأولى.. كأنما برجه من نفس برجى.. أو كأنما بينى وبينه خيط أو تيار سرى واصل لا يرى ولا يمسك باليد، كالذى فى الكهرباء بين الموجب والسالب.. مجرد الرؤية يوقظ وبلا أية مقدمات مكامن الشهوة المستكنة فى الأعماق. هو جمال هذه الواقفة على بابى. بابتسامتها الودودة، ونظرتها المطل منها رغماً عنها حزن مستتر عميق مختلط بالصبر الجميل على غياب الرجل.. زوجها. وياللمحنة.. هو سجين منذ أكثر من خمس سنوات، وباق على الإفراج عنه سنتان أخريان!!.. ما أحوجها إلى صدر حنون!!.. وغالباً هى قادمة إلى صديقتها فتحية بهذا الشعور.. بهذا الاحتياج.. فهل يعقل أن أخبرها وهى لا تزال على الباب بأن صديقتها ليست موجودة.. ويغيب عنى هذا الجمال؟!

وفتحت الباب على آخره مرحباً ومشيراً بالدخول.. ثم على الفور أغلقت الباب خلفها بهدوء شديد.

- أمال فتحية فين؟!

- فتحية عند أمها.. هى والأولاد.. زى العادة كل خميس وجمعة.. توقفت فى مكانها للحظة، وقد بدا عليها الشرود: يعنى أنت لوحدك.

بسطت كفي: للأسف .. أرجو أن ده مايزعجكيش.

نظرت في عيني: يزعجني ليه؟! أنت كمان لك وحشة.. (وندت عنها تنهيدة طويلة حارة): استريح شوية من المشوار..

وجلست على أقرب مقعد.

- أعمل لك كباية شاي أو فنجال قهوة.

- لأ.. لأ.. أرجوك.. قالتها باعتراض لا يخلو من مناشدة: خليك مستريح.. شوية كده وحامشي على طول.. وأشارت لي بالجلوس.

جلست قبالتها.. وإذا بوجهها.. بشعرها المفروق والمنسدل على الجانبين، شاخص نحوي.. تنظر لي.. ولا تحول عينيها، حتى أني أرخيت عيني مضطرباً للحظات.. وإذ عدت أنظر إليها إذا بها لاتزال.. لاتزال ماذا؟! أهو اشتهاء.. أم حزن.. أم يأس.. أم صراخ أخرس لرغبة هائلة مكنونة مكبوتة.. غير مقدور إخمادها.. وإن كان من الضروري مصارعتها والقضاء عليها!!.. وما أعجب ذلك الإحساس الذي استشعرته وهي تنظر لي.. تلك النظرة الشاخصة الطويلة.. كأنها تقول لنفسها ولي: كأنك هو.. نعم.. دعني أتخيل أنك هو.. وأنني بين ذارعيه.. أستريح.. أرتوي.. أطفئ التحاريق بفيضان ماء الحياة!! وإذا بأنفاسي تتسارع.. والرغبة تشتعل وتتأجج.. وهي لاتبعد على بأكثر من خطوة.. نعم خطوة واحدة.. وهي كما هي جالسة.. أحيط الوجه بخصلات الشعر المنسدلة بكفّي.. ويقيناً لن تعارض.. بل ستسلم.. ويشتعل اللهيب.. يصبح الكائنان كائناً واحداً.. وإذا بعينيه.. عيني

السجين تطالعانى من وجهها.. وأيضًا من بين قضبان الحديد.. وإذا بالدوار يحدث.. والرؤية تغيم.. وبالضبط مثل غريق يوشك أن يهوى إلى القاع، أنتفضت من جلستى.. قائلاً.. مغمغماً: عن إذنك دقيقة.. أجيب علبة السجاير.

وأندفعت خارجاً من الصالة إلى حجرة مكتبى البعيدة بعض الشيء، ورحت أجاهد كى أستعيد هدوء أنفاسى.. أتحكم فيها.. أوقظ عقلى.. بالتدريج.. أين السجائر.. أين العلبة.. آه.. ها هى.. والثقاب؟!.. الحمد لله.. هاهو.. أشعلت سيجارة، ومضيت أجذب الأنفاس ببطء وعمق شديدين.. ورأيته ـ ينظر لى مرة أخرى من بين مربعات قضبان الحديد.. مبتهجاً.. سعيداً: عظيم. أشكرك.. سيكون لنا يوماً لقاء.. وأشكرك!!

كنت أدخن بنهم.. احتراق الصدر خير وسيلة لاحتراق الشر الذى يرعى فيه.. هل يمكن أن يكون بداخلى كل هذا الوحش الجائع الرهيب.. أنا الذى ودعت الكبت والحرمان من سنين، وأنعم بفيضانات الحب العظيم؟!.. هل أخجل من نفسى.. أم أشكر نفسى؟!

كنت أغمغم: الحمد لله.. الحمد لله.. انتهت العاصفة وعاد إلى نفسى الهدوء!! ويا إلهى على السعادة التى غمرت وحى حين عدت إليها فى الصالة فوجدتها واقفة متهيأة للخروج.. ولم نلبث أن سلمنا.. وخرجت كما دخلت فى هدوء.. وعدت إلى وحدتى من جديد.. أكاد أبكى فرحًا بنفسى.. أنى أستنهضت عزيمتى.. وأنتصرت فى تلك

المعركة الهائلة السرية، والتى لم يدر أحد بها.. ولا حتى هى.. وعدت أغمغم: الحمد لله.. الحمد لله.. فماذا لو كان الوحش قد انتصر.. أو.. لو كانت هى قد صدتنى بوحشية وأخرجتنى من أوهامى وجنون خيالاتى بتأثير نوع جمالها؟! كانت ستكون السقطة الكبرى التى تتبعنى وتلاحقنى حتى الأبد!!

فى ذلك اليوم أحببت نفسى مثلما لم أحبها من قبل أبداً....!

وقد خطر لى، وأنا أسلم عليها قبل أن تخرج (وبعد أن استرجعت نفسى تماماً) أن أقبلها من جبينها المنبسط المضىء إجلالاً واحتراماً إلا أننى تذكرت خطورة كونى من برج الأسد.. خشيت تلك الطاقة الوحشية التى أعطتنيها الطبيعة بين جوانحى، والتى كان يمكن - فى أكثر من مناسبة - أن توردنى موارد التهلكة.. ألم أتحدث عن ذلك وأنا فى فترة بدايات البلوغ الجنسى.. فى الجزء الأول من «عينان على الطريق»، وأسميت تلك الحلقة «غريب فى داخلى»؟!

ها هو هذا الغريب، رغم مرور السنين، ورغم فيضان الحب الذى أنعم به مع حبيبتى.. لايزال عائشاً كامناً بداخلى.. لكنه «برج الأسد» كما يقول صديقى الفنان القاوستى.. بغرائبه وعجائبه المدهشة والمروعة.

الآن.. وبعد كل هذه السنين التى باتت تشكل حقبة كاملة من التاريخ.. من الستينيات إلى التسعينيات، أحياناً تجمعنى بهذه السيدة الجميلة الجليلة بعض المناسبات ومعظمها احتفاليات اجتماعية

أو سياسية.. ودائمًا أجدها فى صحبة زوجها.. ذلك الذى طالعتنى عيناه من خلال مربعات الحديد، لحظة هبوب العاصفة السرية وصراع الشبق والجنون.. الآن هو يحتل مكزاً ممتازاً.. مرح الروح مبتسم ومتفائل وواثق.. لم يتخل عن روحه الاجتماعية المحبة للتجمعات وللناس!!.. ألتقى أنا وهى فى مثل هذه الأماكن.. ننظر إلى بعضنا.. نتذكر لحظة السر العميقة الجياشة التى جمعت بيننا.. والتى انتهت بأعظم وأنبل نهاية.. وإذا بى.. فى واحدة من تلك الاحتفاليات.. أمد لها كل ذراعىّ.. وأقبلها من وجنتيها أمام زوجها.. وتقبلنى هى الأخرى أمام زوجتى.

إنه الحب المصفى.. من خلال مصفاة الألم والدموع.. والذى لم يكن يدرك سر روعته وحميميته فى هذه اللحظة غيرنا.. وحدنا نحن الاثنين!!

١٦

الكلاب
يطاردون الندوة!

حتى ذلك الوقت، أوائل الستينيات. عز مرحلة الربيع الزاهرة.. لم أكن قد رأيت عبدالناصر رؤية العين المباشرة، بل فقط صورا فى الجرائد والمجلات وعلى شاشة التليفزيون.. وكنت أراه بعين خيالى ومشاعرى.. عين الرضا التى هى عن كل عيب كليلة!!.. أجل.. فمع توالى الأحداث والأيام، وجدتنى واقعا فى عشق عبدالناصر عشقا إنسانى أية مأخذ أو أخطاء أو نقاط ضعف لاحظتها عليه، أو نبهنى إليها الكارهون له والمختلفون معه.. فعبد الناصر أيها الناس مهما كان، هو أنسان.. بشر.. جبل من الطينة المصرية بكل مافيها من قوة وضعف.. وإنه ليحاول أن يكون على أحسن صورة.. وبالنسبة للمناضلين والمفكرين الثوريين، ألا يكفى أيها الرفاق دعوته الصريحة فى خطابه الأخير بمجلس الأمة لتبنى وتطبيق الاشتراكية العلمية.. أتسمعون؟! العلمية.. باعتبارها الطريق الوحيد للخلاص من الأزمات والخروج إلى الحياة الإنسانية الرخية الحقة! ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

أقول حتى ذلك الوقت، لم أكن قد رأيته على النحو الشافى الذى يرومه قلبى، إلى أن جاءنى ذات يوم خطاب من جمعية الأدباء التى

كنت عضوا نشيطا فيها، يخبرنى بأن وفداً كبيراً من كتاب آسيا وأفريقيا قادم لزيارة مصر، وأننى اخترت لكى أكون ضمن مرافقى هذا الوفد.. وأن هذه الزيارة ستختم بلقاء مع الرئيس عبدالناصر فى قصر عابدين. قفزت من الفرحة.. يا إلهى.. ستلتقى عيناى بعينى عبدالناصر مباشرة.. وستختلط أنفاسى بأنفاسه فى مكان واحد.. ولسوف أضم كفه الضخمة وأنا أسلم عليه وأضغط بكل قوة.. قوة الحب.. ولسوف يلهمنى هذا اللقاء قطعا أحاسيس ومعانى سأسجلها وأخلد بها هذا اللقاء.. مثلما خلده تولستوى، فى رائعته «الحرب والسلام» ذلك اللقاء القدرى الباهر بين بطل الرواية و«نابليون بونابرت» فى حملته الدرامية التاريخية على روسيا.. هذا اللقاء الذى كتبه تولستوى على نحو رائع رفع من قدر الرواية.. وما أروع أن أكتب ذات يوم رواية يكون محور أحد فصولها، رؤية البطل ولقاؤه بعبدالناصر.. بطله وبطل أمته المنتظر من قديم الزمن!

وجاء يوم اللقاء... كنا قبل الظهر بقليل.. مازلت أذكر جيدا.. دخلنا القصر يظللنا الابتهاج.. وفى مقدمتنا الدكتور محمد مندور شيخ القبيلة الثقافية آنذاك.. ناشراً حوله جوا من السعادة والألفة.. كأنما يقول للضيوف أنتم فى بيتكم.. أجل.. لم يعد قصراً لملك.. أصبح قصراً للشعب!!

دخلنا قاعة اللقاء.. لم تكن واسعة.. كذلك كانت خالية تماما إلا من سجادة حمراء تفرش الأرض، وإلا من لوحات جدارية مرسومة على

النمط الإيطالي.. وقفنا صفوفا متقابلة.. قال مدير المراسم بابتسامته الكبيرة مرحبا: لو سمحتم.. فليتكرم كل ضيف بذكر اسمه وهو يسلم على الرئيس. هذا طلب الرئيس.

ما أجمل هذا.. قد يكون ذكر اسمي مقدمة للقاء يحدث بيننا ذات يوم على انفراد، وأحكي له عن هذه الدراما التي مازلت أعيشها في ظل نظامه فها أنا رغم كل هذا الحب والتأييد له مازلت محروما وممنوعا من عضوية نقابة الصحفيين.. وذلك بأمر بعض رجالك.. والحقيقة أنهم ليسوا برجالك الصادقين، إنما هم منحدرون من النظام السابق للثورة بكل تقاليده.. و.. ولابد من أن تحذر منهم.. ذلك أنهم.. لا.. لا.. لن أترك نفسي لمثل هذه الأفكار الكئيبة في لحظة باهرة مثل هذه.

ودخل عبدالناصر..

ما كاد يهل من الباب حتى انطلقت اكفنا بعاصفة تصفيق فتوقف بابتسامة عريضة حيية رافعا كلتا ذراعيه، خافضا رأسه بالتحية.. وإذ رأى العاصفة لا تنوى أن تتوقف اتجه مباشرة إلى أقرب صف مادا يده بالسلام.. فحل الصمت العميق.

كان الدكتور مندور هو أول من مد له عبدالناصر ذراعه بالسلام.. وكنت بالصدفة بنفس الصف.. في موقع جيد للمشاهدة والمراقبة.. ولأول مرة أرى عينيه وهما تطلان.. تتفرسان.. كأنما يستكشف دخيله من يسلم عليه.. وسمعت الدكتور مندور يقدم له نفسه بالاسم.. دون

لقبه العلمى.. فأحنى له رأسه باسما محييا.. واتجه بالسلام لمن يليه.
ولا أذكر الآن من كان هذا الكاتب، لكنى لاحظت أنه حين جاء ينطق باسمه، خرج صوته منخفضاً لا يكاد يسمع، ثم تأكدت هذه الظاهرة مع الثالث، إذ لم يخرج صوته باسمه على الإطلاق وهو يسلم.. وأذكر أنى أحسست بالضيق ويكاد يكون بالغضب حين لم يعد أحد يقدم نفسه باسمه كما كان الرئيس يرغب.. لم هذا؟! أيكون نوعا من طغيان شخصية الرجل ممثلا فى نظراته المتفرسة النفاذة وهو يسلم..؟!

وجاء دورى فى السلام.. وإذ رأيته يقترب منى بقامته الفارعة وصدره العريض.. وضعت كل قواى فى كفى كى أسلم عليه السلام اللائق ببطل المعارك وإذا بشىء بالغ الغرابة يحدث .. فما كاد يمد لى كفه حتى عدت أضاعف من تركيز كافة قواى الجسدية فى كفى لأجيد احتواءها.. وإذا بشعور مفاجئ أقرب إلى الدهشة وعدم التصديق ينتابنى، إذ وجدت الكف بالغة الطراوة كأنها يد طفل فى المهد، أسرعت برفع يدى مكتفيا بمجرد التلامس! هل يمكن هذا؟ ومَرّ برأسى خاطر.. قد لا يكون هو عبدالناصر.. أو أنى مغيب الإحساس غير مدرك.. لكنى لم أستطع تكذيب شعورى.. فما حدث هو حقيقة.. ولأنها حقيقة المحبوب فلابد أن تكون ذات دلالة خارقة رائعة.. وأنها السر الذى تجلى لى أخيراً ذات لحظة تاريخية مشهودة.. إن قوة عبدالناصر ليست أبداً قوة مادية، إنما هى قوة روحية لا ينطق بها إلا شعاع عينيه وهو ينظر إلى الأشياء.. و.. لهذا لا أذكر إن كنت قد قدمت نفسى له باسمى أو لم أقدم.. وإن كنت أعتقد أنى لم أنطق بأى

حرف بفعل المفاجأة التى أخذتنى.. وبعدها انتقل فى هدوء إلى غيرى يكمل السلام على أعضاء بقية الوفد الكبير الذى جاء إليه من مختلف البلاد والقارات ليحييه ويسعد معه بلقاء تاريخى..

مضيت أتابعه كروح سارية.. وعاودتنى روح الأسطورة التى طالعتنى ذات يوم من قلب النهر والجبل!

تلك كانت ذروة علاقتى العاطفية والروحية بعبد الناصر، والتى بالطبع - بحكم وضعه - لم يكن يحس بها أبدا.. ولم يكن ذلك يشغلنى، فقد كنت حريصا على استبعاد أية شبهة ارتباط بكل رموز السلطة حتى لا يؤول انطلاقى ككاتب على أنه من رضا الحاكم ورضا النظام علىّ بعد أن تركت دنيا التنظيمات السياسية.. وهى عقدة بقيت معى فى علاقتى بالسلطة ورجالها حتى اليوم!!

كنت مكتفيا وسعيداً جداً بتلك العلاقة الروحية الخاصة جدا بينى وبين عبدالناصر.. والتى كانت تعكس فى نفس الوقت ازدهار مرحلة الربيع التى تمر بها الثورة، ونمر بها نحن أيضا أنا وفتحية.. فى حياتنا وفى مشاريع كتاباتنا.. فما كدت أنتهى من كتابة «النهر»، حتى وجدتنى - بعد أربعة أو خمسة أيام قضيناها فى رأس البر - داخلا فى كتابة مسرحيتى «طيور الحب»... والتى كنت قد شرعت فى الكتابة الفصل الأول منها قبل الرحلة!!

كما أن فتحية قطعت شوطا هائلا، ويكاد يكون خرافيا، فى كتاباتها للإذاعة.. فقد قامت بكتابة عدة سهرات درامية لقيت نجاحاً ملحوظاً..

كما أعدت قصة قصيرة أعجبتها لفتحي غانم عنوانها «هدى».. كما قدمت قصتي.. جفت الأمطار «كمشروع لإعدادها للبرنامج العام.. وفي نفس الوقت ظلت مستمرة في برنامجها الصباحي.. ربات البيوت.. مع السيدة صفية المهندس.. التي دأبت على تقديم عملها باسمها.. يسبقه لقب «الأستاذة».

في جو النجاح هذا إذا بمهزلة شريرة جديدة تحدث فقد فوجئت بخطاب يأتيني على المجلة.. وينبهني أن ثمة شائعات تدور في أرجاء الإذاعة تربط بين فتحية وأحد المخرجين الذي تعمل معهم.. ولم يضف شيئا بعد ذلك!! والإمضاء: غيور على سمعتك!

- بل إنك حقود وكاره وخسيس في مشاعرك نحوي ونحوها.. وخطر لي أن أكور الورقة وأسحقها على الأرض بقدمي.

أما فتحية فما كادت تقرأها حتى فوجئت بها - وياللسعادة - تضحك وتقول: على فكرة.. أنا أحيانا بالتمس العذر للناس اللي من النوع ده فعلا.. يعني إيه حتة بنت فلحوسة لا تعلمت في مدارس، ولا أخذت حتى الابتدائية، تكتب للإذاعة.. أحاديث ودراما، وتتسجل لها تمثيليات، وسهرات.. وبدأت كمان تدخل على المسرح والتليفزيون. معقول!! مش ممكن يكون ده طبيعي في رأيهم.. لازم فيه حاجة في السر مستخبية!! (وواصلت) هل تتصور أن (فلانة) صديقتك.. المذيعة الشهيرة.. لقيتها فجأة في يوم بتقوللي: بذمتك يا فتحية، ومن غير زعل، مش عبدالله هو اللي بيكتب لك.. أو على الأقل بيخطط لك أعمالك!!

وللحظ ماكانتش تعرف إنك طلعت فى رحلة النيل.. قلت لها بمنتهى البساطة: طبعا عبدالله هو اللى بيكتب لى.. حتى وهو مسافر... بيكتب لى تمثيلياتى ويبعثها لى من بعيد!

قلت ضاحكا، فرحاناً بالثقة التى نتحدث بها: على فكرة.. عشان الناس دول يصدقوا إنك أنت اللى بتكتبى.. لازم أموت.. أو أخرج تماما من حياتك!!

وتعكر وجهها بالغضب من تلك المزحة السخيفة: ياساتر يارب.. أعوذ بالله.. أوعى تقول كلام زى ده تانى.. أرجوك.

ولم أكن أدرى لحظتها أننى بهذه المداعبة الحادة، كنت أتنبأ بأن شيئا قريبا من هذا سيحدث فى يوم من الأيام!!

وكأنما تلك الورقة الكريهة كانت إيذانا ببدء تحرك عناصر الشر الكامنة والمتخفية فى انتظار لحظة الانقضاض، ليس فقط على المستوى الشخصى، بل وعلى مستوى الوطن كله.. وأن مرحلة الربيع التى ملأت حياتنا بالخضرة والبهجة والأغنيات آخذة فى التراجع والانحسار!!

كنت فى تلك الأيام لا أزال مواظبا على حضور ندوة نجيب محفوظ الأسبوعية فى كازينو أوبرا.. صباح كل جمعة. ذهبت مبكراً كعادتى قاصداً و آملا الانفراد بعض الوقت بالأستاذ نجيب الذى كان دائما، وفى انضباط شديد، أول الحاضرين.. فهو يخرج من بيته فى السابعة صباحا.. يقطع المسافة بين بيته فى العباسية، وميدان الأوبرا سيراً على

الأقدام بخطوات رياضية.. يشترى الجرائد والمجلات ويصعد بها إلى الدور الثانى من الكازينو.. ومع فنجال القهوة الذى يأتيه أوتوماتيكيا، ينكب على القراءة بحيث يفرغ من كل ما معه قبل موعد بدء الندوة: العاشرة!!

وما أكثر ما أسعدنى الحظ معه بأوقات لم يكن يفعل فيها شيئا غير الحملقة فى فراغ الميدان، عبر تمثال إبراهيم باشا.. يرتشف فنجال قهوة، أو ينفث دخان سيجارة.. وما يكاد يرانى.. حتى يستقبلنى بفرح ياسر القلب ويشير لى على الكرسى المجاور له!!.. وما أكثر ما أوحت لنا هذه الجلسة المتفردة الحميمة بأحاديث ومناقشات حول قضايا الأدب والمجتمع والثورة، لم يهن على أن أستمتع بها وحدى.. فأشرك معى عشرات الألوف من قراء المجلة التى أعمل بها! ونشرت كثيرا من أحاديثنا فى المجلة!

وقد توثقت بيننا الصلة حتى أنه فى أحد هذه اللقاءات باح لى بأزمته التى يعانى منها ككاتب.. إنه يشعر بأنه لم يعد له دور.. فها قد قامت الثورة وتولت هى بقدراتها وإمكانياتها عملية التغيير.. فما الذى يمكن أن يكتبه بعد ذلك؟! أى ثورة يمكن أن يحققها بعد ذلك بكتاباته؟!

وقد هزتنى تلك الأزمة، ووجدتها شبيهة على نحو ما بأزمتى مع الثورة.. فأنا مستبعد منها، نتيجة لخلافى معها ذات يوم، رغم أن هذا الاختلاف قد انتهى.. ونقلت له ذلك الأحساس الذى وحد بيننا، رغم فارق العمر واختلاف الأجيال!!.. ولقد خطر لى فى إحدى اللحظات أن

ذلك كان إلهاما له في روايته «السمان والخريف».. التى قامت على بطل انتهى دوره بانتهاء دور الحزب الذى ينتمى إليه!!

المهم أنى نقلت هذه الأزمة الروحية والفنية للدكتور على الراعى الذى كان حينذاك مشرفاً على الصفحة الأدبية فى جريدة المساء.. وإذا بعينيه الواسعتين تزدادان اتساعا، وجلسته تأخذ شكل التحفز، فأيقنت أن الحكاية مست منه وتراً رئيسياً وحساسا.. وصح إحساسى، إذ فوجئت فى الأسبوع التالى مباشرة وقد جعلها مقاله الأسبوعى: دور الكاتب الثورى.. هل انتهى بقيام الثورة؟! وضرب المثل بما باح به لى نجيب محفوظ!!

وقد أحدث المقال أثراً رائعا عند نجيب محفوظ، إذ فجر حس الخلق الفنى عنده، وإذا به يخرج علينا، بعد صمت السنين برواية «اللص والكلاب» التى أدان فيها المثقفين الانتهازيين الذين ركبوا موج الثورة وقصورها وحصونها.. وأنهم حقا الكلاب الذين يتساوون مع أحط اللصوص!!

وناقشنا الرواية فى الندوة، كما ناقشنا غيرها من الأعمال.. ومع مرور الأيام كان صيت الندوة يزداد ذيوعا وجاذبية، فكثر روادها واتسعت رقعتها حتى أصبح المكان يضيق بنا. ولأن معظم روادها كانوا من الشباب، فقد كانت المناقشات لا تقف عند حد التقييم الفنى لشكل العمل، وأسلوبه، بل تجنح للدخول فى صميم فكرتها، ومدى ما تقدمه من إضاءة وطاقة لتغيير الحياة إلى الأجمل! كان المناخ العام مناخ

ثورة، فأين هذه القصص التى نناقشها من روح الثورة؟! وهكذا تحولت الندوة إلى بؤرة وطنية ثورية لم تعجب البصاصين وكتاب التقارير فحذروا منها وأعطوها دلالات أمنية خطيرة.. وصدر القرار: إلغاء الندوة!! لم يهن عليهم تجمعنا وتلاقينا مرة واحدة كل أسبوع.. علنا.. وفى صالة زجاجية كل نوافذها مفتوحة ومطلة على الميدان. ما الخطر؟! لكنها عقليتهم وتركيبتهم القائمة على الشك والتشكيك فى كل ما لا ينبع من داخلهم أو بغير توجيهاتهم، وعلى خلق الإحساس بالخطر والمبالغة فيه كى يظل المبرر لوجودهم ولوظائفهم، وأن لاغنى عنهم وأنهم العماد الأساسى لحماية الثورة ذاتها.. بحيث لو أنهم وجدوا البلاد هادئة آمنة والحياة فيها سائرة على ما يرام أصابهم الرعب والخوف من التفكير فى إلغاء وظائفهم والاستغناء عنهم.. وحينذاك ـ وبخبرتهم الطويلة.. يضعون الفتائل سرا ويشعلونها.. فيرتج كيان الدولة.. ويصبحون هم رجال الإنقاذ والحماة الكبار للوطن!!

ذهبت قاصداً الندوة مبكرا كعادتى. فوجدت الأستاذ نجيب أكثر تبكيرا ونشاطا.. جالسا وحده وأمامه جرائده ومجلاته.. وما أن سلمنا حتى فوجئت به يقول لى: يا الله يا عم طوخى شوف لنا مكان تانى نعمل فيه ندوتنا!

قلت مستغربا.. متوجساً: مكان تانى ليه؟! هو فيه أجمل من كده؟!

ـ ما هو عشان كده.. مش عايزينا نقعد فيه!

وحكى لى ماحدث: بمجرد أن صعد إلى الصالة وجلس على كرسيه جاءه النادل وهمس له أن الداخلية اتصلت بأصحاب المحل، وحذروهم

من هذا التجمع الشيوعي الذى يحدث عندهم كل يوم جمعة.. وطلبوا منهم صراحة أن يلتزموا بالقانون، فلا يسمحوا لأكثر من أربعة بالتجمع بأى حال من الأحوال.. إلا بتصريح رسمي.. هذا وإلا سيحدث للمحل ما لاتحمد عقباه.

قلت غاضبا مستفزا: ومارأيك؟ هل سنخضع؟

قال بابتسامة هادئة: نخضع لمن؟! إنهم فى غاية اللؤم. لم يواجهونا مباشرة.. بل جعلوا المواجهة بيننا وبين أصحاب المحل. وأنت تعرف إنه فى الأساس ملهى ليل.. لا يهمهم زبائن النهار.. سنأتى الجمعة القادم فنجد باب الصالة مغلقا فى وجوهنا.. أو أحد من الفتوات واقفا عليه.. فلنبحث عن مكان آخر والقاهرة واسعة!

وكان اليوم الأخير لى فى هذه الندوة!

فى ذلك اليوم عدت واجماً إلى بيتى، وحكيت لفتحية ماحدث، فبدا على وجهها الاستنكار، لكنها لم تعلق بأى كلمة، اكتفت بابتسامة مع هزة من رأسها.. بما يعني: جاءك كلامى؟! هو ذا عبدالناصر الذى أنت متحمس له ولنظامه الديكتاتورى!. لم تقلها بالكلمات.. كذلك لم أعلق أنا على صمتها.. حرصنا نحن الاثنين على اتقاء شر نتائج النقاش فى هذا الموضوع!

وقد استبد بى بعد هذه الهجمة الصامتة من المباحث إحساس شديد بالقهر وبالغضب.. وتلقائيا ـ كالعادة ـ استحضرت عبدالناصر ومضيت أخاطبه، ولا أقول أناجيه: إلى متى ستتركنا تحت رحمة هؤلاء

الوحوش.. أنا لا أتصور أنك تعلم بهذا الذى حدث إلا إذا كان قد وصلك مغلفا بالأكاذيب.. وحتى ولو.. أنت الذى لك باع وهوى قديمان مع الكتابة والثقافة والتأليف.. وعشقك لعودة الروح وتوفيق الحكيم وكتابتك الروائية «فى سبيل الحرية».. وإنشاؤك للمجلس الأعلى للثقافة والفنون.. كيف أتصورك اليوم مطاردا للكتاب والفنانين.. وهل ينقصك الأعداء فى الداخل والخارج حتى تضيف إليهم الكتاب والمثقفين المصريين؟!

وما أغرب ما فعلته الأقدار معى فى تلك الأيام بالذات.. جاءتنى من المنصورة مكالمة تليفونية هى فى حقيقتها استغاثة من ابن خال لى أسمه «الشحات» - قبضوا عليه بتهمة سرقة، وأودعوه قسم المنصورة حيث يلقى كل ألوان التنكيل والتعذيب.. وإنه ليستجير بى!!

ولما كان للشحات هذا ذكريات جميلة باقية فى نفسى من أيام الصبا الطليقة.. أيام صيد السمك من النيل، والعصافير من حقول قصب السكر، والكلاب الجميلة من البلاد البعيدة، فقد هزنى الخبر.. تركت كل شىء ووضعت نفسى فى تاكسى.. وفى ظرف ساعتين كنت أدخل قسم المنصورة.. وأطلب مقابلة المأمور.. وبفضل كلمة: الصحفى بروزاليوسف .. فتح لى المأمور بابه على الفور واستدعى الضابط الذى قبض على الشحات.. وإذ تبين أنه لا دليل ضده على الإطلاق، بل هو مجرد اشتباه نابع من سمعة قديمة له فى عالم الشغب والفتونة.. أمر بإخراجه من التخشيبة، وهو يقول مجاملا: ده بس عشان خاطر روزاليوسف.. وكل اللى بيكتبوا فى روزاليوسف.. لكن هو.. ملعون..

ملعون.

ونهض لجولة فى المدينة: امتلأ قلبى بالرضا والسعادة.. وتصورت فرحة خالى وامرأة خالى والأسرة كلها وأنا أعود لهم به، غير أنى ما كدت أراه قادما فى اتجاهى، بمنكبيه العريضين، وجلبابه البلدى الذى يخب فيه، حتى راعنى منظره: كان يترنح فى مشيته، ونظراته شاخصة على نحو يقترب من الذهول، هرعت إليه: مالك ياشحات؟!

ارتعشت شفتاه ضاغطا بشدة على أسنانه يقاوم البكاء.. صحت فيه: قوللى مالك. ضربوك؟!

قال مناشداً فى تعاسة: لا.. لا.. أبدا.. أبدا.. اعمل معروف.

أيقنت أن شيئا فظيعا قد حدث له.. لكنه يخشى الانتقام لو أثرت الموضوع!

مضينا نسير على كورنيش النيل فى الاتجاه المؤدى إلى قريتنا.. كان يبدو كما لو أنه يسير على جمرات نار أو فوق أشواك.. وسرعان ما انفجر باكيا مطمئنا إلى أن أحداً غيرى لا يسمعه، وراح يحكى كيف عذبوه لكى ينتزعوا منه اعترافا بجريمة لا يدرى عنها أى شىء: ضموا يديه وربطوهما.. وكذلك قدميه، ثم علقوه إلى أعلى.. كالذبيحة التى ستشوى، وانهالوا عليه.

صرخت فيه: تعال نرجع للمأمور.. لازم نحقق فى اللى حصل ده.

بسط لى كفيه راجيا باسترحام: عشان يعلقونى من جديد ؟!

اقشعر بدنى وتولانى إحساس بالغضب الممزوج بالإحباط وبالمهانة:

تعال ياعبد الناصر وانظر ما يحدث للمواطن العادى فى ظل ثورتك المباركة.. ها هى الثورة تأخذ شكلا بشعا وقبيحا بفعل رجال نظامك.. بالأمس فى القاهرة حين ألغوا ندوة نجيب محفوظ، واليوم فى إحدى مدن الأقاليم يعذبون الأبرياء باسم القانون وباسم الانضباط! ،كيف يستمر دفاعى عنك أمام ذلك التيار المتصاعد والذى بات يصف نظامك بالديكتاتورية العسكرية، والتى أصبحت فتحية تتبنى وجهة النظر هذه؟!

تراهم على حق، وأن تأييدى للثورة وحماسى المستمر لها أصبح نوعا من التواطؤ مع الخطأ وتدعيمه؟!

الثورة تريد شيئاً جديداً ياعبد الناصر.. الثورة تضرب لامن الخارج فقط، بل من داخلها أيضا. بيد من يسمون برجالها..

لمن أشكو أحزانى وهواجسى؟!

١٧

يوميات ما قبل الكارثة

أكان حدسا تنبؤياً خفيا، أو شيئاً قريبا من غريزة استشعار الخطر عن بعد، حين وجدتنى ذات صباح وأنا مستيقظ لتوى من النوم. (ومعظم إلهاماتى لا تأتينى إلا فى لحظات خروجى من النوم) متجها إلى مكتبى ومعى كشكول جديد تماما، مقرراً أن أبدأ، وبانتظام صارم... كتابة يومياتى.. مشحونا ومستثاراً بتلك الأحداث التى جعلت تتوالى على نحو لم يكن أبداً يخطر على بالى، سواء على المستوى الشخصى أو المستوى العام.. من أول يناير ١٩٦٣ حتى مابعد منتصف يونيو ١٩٦٤ .. ثم بعدها بفترة قصيرة وقعت الكارثة!

كنت كمن يرصد حركة الغيوم وسرعة الرياح قبل هبوب العاصفة أو كمن يستشعر عن بعد دبيب الزلزال وهو يمور فى الخفاء ويقترب!

وفى بعد آخر أيضا: كنت أعوض العجز عن الفعل ، بإعطاء الكتابة معنى الفعل.. المجدى.. لعل وعسى!

الآن، وبعد أن مضت على هذه اليوميات كل تلك السنين، وتاه ذلك الكشكول منى خلالها فى زوايا النسيان وزحمة الأوراق والأحداث، ثم

إذا بى فجأة وياللفرح أعثر عليه هاجعا أو قابعا بجلدته البنية اللون فى عتمة أحد الأدراج كأنما ينتظر هذه اللحظة بالذات.. كى يكون الشهادة الحية الصادقة على تلك الفترة التى سبقت حدوث المأساة.. تلك الضربة العسكرية التى كسرت عمود بنياننا الفقرى، ودمرت نفسيتنا وألصقت بجبين الملايين لافتة مكتوبة عليها كلمة واحدة: العار.. العار!

أشعر الآن بقلبى يرتعش لمجرد الذكرى فأود الهروب منها مثلما يهرب الإنسان من خطيئة غير قابلة للغفران رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً عليها. ألا تزال الندبة العميقة الغائرة فى الجبين من أثر الضربة تشكل علامة أساسية فى ملامح الوجه والروح؟!..

فكيف الهروب والمرآة دائما أمامنا.. تسبقنا مثل ظلنا.. مرسومة فيها تفاصيل ماكان.. بالصورة.. والكلمات!

ولكم أدهشنى وأفرحنى أيضا فى هذه اليوميات، ذلك التقابل أو التوازى إلى حد كبير بين خط حياتى بما فيه الحب والفن، وبين خط الثورة بما فيه من ارتفاعات وانخفاضات! أن يأتى قدرنا أنا وفتحية مرتبطا بقدر الثورة.. صعوداً وازدهاراً، أو تخبطا وانكسارا؟! أجل فقد وجدتنى أسجل مهموماً أخطاء وتخبطات ونقاط ضعف الثورة التى راحت تتزايد وتستفحل يوما بعد يوم، مجسدة وبشكل أساسى فى تنظيمها السياسى الجديد المسمى بالاتحاد الاشتراكى، والذى أعلن عنه عبدالناصر ـ بعد فشل الاتحاد القومى ـ باعتباره الأمل الجديد فى وضع السلطة الحقيقية فى يد العناصر الثورية المؤمنة حقا بقيم الثورة

ومثالياتها، وإذا بغالبية المراكز الرئيسية فيه تستولى عليها العناصر اليمينية والانتهازية وإن تقنعت بشعارات الاشتراكية.. آية ذلك فى المؤسسة التى أعمل فيها، والتى تم تأميمها وانتزعت ملكيتها من يد صاحبها، ومع هذا، بقى - وهو الذى تفيض روحه بالكراهية لفكرة التأميم والاشتراكية - تحت شعار الإنسانيات رئيسا لمجلس إدارتها الأمر الناهى فى كل ما يخص سير العمل فيها!

فى نفس الوقت، ومع كل إيمانى المعلن كتابة وشفاهة بالثورة وقائدها عبدالناصر، وجدتنى مستعبداً ومحروماً حتى من حق المشاركة فى انتخابات هذا الاتحاد الاشتراكى بحجة ذلك الحكم القضائى الذى سبق صدوره ضدى.

ثم إذا بضربة أخرى أكثر إيلاما وإهانة تأتينى، حين فوجئت ذات يوم بأن كل زملائى وزميلاتى فى المجلة قد حصلوا على علاوة.. إلا أنا؟! طاش عقلى.. هل يمكن أن يحدث هذا من رئيس تحريرها فتحى غانم؟! كيف طاوعه قلبه، هو الذى عايشنى فى تجربة «النهر» وكان أعظم الفرحين بها.. هو الذى أعطيته مسرحية «طيور الحب».. فتلقاها بحب وقرأها وتحمس لنشرها فى المجلة رغم أنها من أربعة فصول.. وكلماته المتحمسة وهو يقول لى معلقا عليها بشكل عام: ما أجمل أن يمضى الإنسان وفى رأسه صوت صفارة البحر... تناديه.. تدعوه دائما للسفر، وللرحيل! ونشر المسرحية بالفعل .. بمنتهى الشجاعة والحب! كما نشر لى أيضا بعدها مسرحية «الأرنب» واختار ليرسمها الفنان

التشكيلى الموهوب: ناجى شاكر!! كل هذا الاحتفاء بالفن، والذى صنع أجمل ما فى مسيرتنا بصباح الخير.. كيف بعد كل هذا يحرمنى.. أنا وحدي.. أنا بالذات.. من العلاوة؟! ومتى.. فى الوقت الذى جاءتنى فيه مولودتى الجديدة التى اخترت لها اسم «صفاء». وفرحت أنها جاءت بنتا بعد ذكور ثلاثة.. وأصبحت بذلك مسئولاً عن أربعة أبناء.. فى ظرف مثل هذا.. وبعد كل هذا، أكافأ بحرمانى من العلاوة؟!

دخلت على فتحى غانم واجما محاولا التحكم فى البركان: كيف يا أستاذ فتحى؟!

ولم يدعنى أكمل: لست أنا المسئول. رئيس مجلس الإدارة.. هو الذى اتخذ القرار!

ومن حجرته انطلقت إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة: كيف يا أستاذ إحسان تفعل معى هذا؟!

- ما الذى فعلته معك؟!

- أستاذ إحسان.. أنا لن أنسى أنك أول من استقبلنى فى هذه الدار، وأنك الذى أشرت على بالذهاب لمقابلة فتحى غانم.. فكنت أنت أول من فتح لى باب العمل الرسمى فى الصحافة.. لن أنسى أبدا هذا لأننى إنسان يعرف الوفاء.. ولكن.. هل هذا يعنى أن أفرط فى حقى.. أن توجه لى الإهانة فأصمت.. أن تعطى العلاوة للجميع وتحرمنى أنا منها..

قال بنوع من التعالى والتحدى: طبعا.. لأنك عمال تكتب فن وسايب الصحافة.

تملكتنى الدهشة: أنت اللى بتقول كده يا أستاذ إحسان؟! أنت اللى كل ما كنت بتلاقى المجلة توزيعها بيهبط تعلن عن رواية جديدة لك وتبتدى فورا فى نشرها.. رغم أنها لسه مش كاملة فى دماغك! تيجى النهاردة عشان بانشر مسرحية أو قصة تعاقبنى!

- لأنك لما اتعينت فى المجلة.. اتعينت كصحفى، مش كفنان. ولو كل المحررين عملوا زيك.. المجلة مش حتمشى.. والله المجلة لها رئيس تحريرها وهو عارف مجلته ماشيه إزاى..

- كده؟! وأنا رئيس مجلس الإدارة وأعرف أزاى أمشى المؤسسة.

- (محترقا بالغيظ.. تاركا البركان ينفجر) وأنا كمان عارف أزاى حاخد حقى.

- أنت بتهددنى؟!

- أنا مش باهددك.. أنا بأدافع عن حقى.. بادافع عن وضعى.. بأدافع عن بيت وعن أولاد وحياة أنا مطالب بتغطيتها.. وأغطيها منين إلا من كتابتى.. أيوه.. أنا ما عنديش أى مصدر غير كتابتى.. ولو الأمر يخصنى أنا لوحدى، كنت سبت الكتابة والفن والصحافة والحياة كلها.. ولا الذل ده.. لكن أعمل إيه فى العيال.. اعتذر لهم بأيه؟!

وإذا ببريق مفاجئ يلمع فى عينيه، وثمة طيف ابتسامة طيبة ارتسمت على شفتيه ذكرتنى بأول لقاء جمعنى به.. قال وهو يجذب

نفسا عميقا من صدره: طيب إهدأ.. وماتزعلش.. شوف.. أنا مسافر سويسرا لمدة أسبوعين.. وأول ما أرجع حاسويلك كل شيء!

●●●

تكشف اليوميات بعد ذلك عن رافد آخر من روافد الصراع أخذ يحتل حياتي.. لقد بات التمرد يداخلني على كل شيء حتى على الحياة نفسها وما جدواها.. أتمرد حتى على الحب وعلى الحبيبة، وعلى الأولاد.. أليسوا هم اللذين أوقعوني في هذه المذلة.. مذلة لقمة العيش وحمل عبء مسئوليات الحياة العائلية اليومية.. فأى مجد وأية عبقرية أن ينجب الإنسان أولاداً؟! إن الحيوانات تنجب بل وتفرط في الإنجاب؟ أسهل شيء في الحياة وأكثرها طبيعية هو الإنجاب!! وسجلت ذلك المعنى بحماس شديد في مسرحيتى طيور الحب!! كما امتد تمردى إلى نظام الزواج ذاته فدعوت في نفس المسرحية لأن يصبح عقد الزواج سنويا.. بمعنى أن يجدد كل عام أو يلغى ويفسخ بالاتفاق وبالاختيار!!

وقد انتهت بى هذه الروح التمردية إلى مصادمات مع فتحية لأوهى الأسباب! ويوما بعد يوم أخذت ألاحظ أن مساحات الخلاف تزداد اتساعا بيننا.. فقد بدأت ألاحظ عليها تصرفات وسلوكيات تتسم بشيء من الغموض.. وأصدقاء وصديقات جدد جعلوا يترددون عليها في البيت.. وأنا لدى عقدة من السرية.. عاودتنى المخاوف مرة أخرى من أن ترتبط بهؤلاء.. مع نغمة جديدة منها.. هى التنديد بحل الحزب الشيوعى المصرى واعتبار ذلك أبشع جريمة في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية يتحمل وزرها عبدالناصر ويدان تاريخيا بها!! تراهم

يزمعون - وهى معهم - فى تكوين تنظيم شيوعى جديد؟ لقد ترامت لى الهمسات أكثر من مرة، بأن هناك أكثر من مجموعة تسير فى هذا الاتجاه.. وقد ينصبون حولها الشباك، أو ربما يكون الاستدراج قد تم بالفعل؟!

استبد بى الغضب.. إلى متى سأظل حاملا همها؟! ألا يكفى هم القلق الدائم على كتابتها، واليوم تحملنى هم احتمال أن تكون قد اندفعت فى مغامرة سياسية سرية جديدة بكل ما تحتمله من توترات ومخاطر؟!

فلأواجهها صراحة بما يدور فى نفسى.

إلا أننى ماكدت أبدأ المواجهة، حتى فوجئت بملامحها تنقلب وتربد وانفجرت فى وجهى صارخة: كفاية بقى.. كفاية.. عايز كمان تتحكم فى اختيارى لأصحابى.. لا .. فاهم يعنى إيه لا؟! الأيام دى راحت خلاص.. وأنا حرة فى حياتى زى ما أنت حر فى حياتك.. ما تتصورش أبداً أنى حارجع تانى عبداللايا..

- كده؟! (أجذب نفسا عميقا أقاوم به غضبى ودهشتى).

- أيوه كده ونص.. أنت فاهم نفسك إيه؟! ربنا؟! مفيش حد يعرف الحقيقة غيرك. عايز تسيطر على الكون.. لا.. كل واحد يعيش حياته زى ما هو عايز.. بحرية.. كفاية بقى.. الإحساس بأنى من غيرك حاقع.. ويكون فى علمك.. الهالة المعمولة حواليك دى.. أنا اللى عاملاها.. أيوه أنا اللى عاملاها.. أنا اللى صنعت العرش اللى أنت قاعد متربع عليه.. وأنا اللى حانزلك منه!!

وبقدر ما صدمتنى الجملة الأخيرة بالذات، ورجتنى من الأعماق بمعناها الخطير، وأن الرد عليها لابد أن يكون صادما على نحو أخطر وأفدح، إلا أننى مع هذا، وفى نفس ذات الوقت وجدتنى معجبًا بها كجملة وكصورة، ورأيت أنها تنفعني في موضع معين بمسرحيتى على نحو درامى رائع.. إحدى لحظات الذروة فى المسرحية!! وهكذا اختلطت الدراما الشخصية فى حياتى بالدراما التى أرنو لأن تمثل على خشبة المسرح!

وأدع الآن بقية الحوار الذى حدث بينى وبينها فى هذا الموقف، فقدنقلته أيضا.. يكاد يكون بالحرف فى أحد مشاهد مسرحيتى طيور الحب، وأستحضر تلك اللحظة المثيرة، وهى جالسة بجوارى بعد ذلك فى صالة المسرح القومى، نشاهد المسرحية.. وإذا بها تسمع جملتها تؤديها الممثلة الرائعة الفياضة سناء جميل. على نحو باهر.. فوجئت بها تمسك بكفى بحميمية وتنظر لى فى الظلام شاكرة ممتنة.. أنى جعلتها تحس بحلاوة كلماتها على المسرح.. أننى أكشف لها عن مواهبها.. وبالتالى أدعم ثقتها بنفسها ككاتبة.. وإذا بها تهمس لى بمزيج من الوجد والانفعال: عبدالله.. نفسى أكتب مسرح!

رددت عليها هامسا مشجعا: ليه لا.. أنت أجمل حاجة عندك الحوار!

ولأنى كنت أعرفها ظهراً لبطن، فقد كنت أحتفظ لها دائما بقدر من التسامح والمغفرة عن حدة لسانها وقت الغضب. كنت أعلم أن التمرد

جزء من خصائصها، وأن عليّ ألا أحطمه فى نفسها.. بل كنت حريصا على بقائه وتنميته، مطمئنا لأصالتها وطيبتها رغم جملتها الرهيبة أنها صانعة عرشى، وأن فى إمكانها إسقاطى من عليه. كنت واثقا من أنها - فى غير لحظات حمى الغضب والدفاع عن النفس - تدرك جيدا أن أى شىء فى حياتنا أصبح صناعة مشتركة وأن عرشى، إن كان لى ثمة عرش، بات هو عرشها أيضا وأن سقوطى من عليه يعنى سقوطها هى الأخرى.. يعنى سقوط أجمل قصة حب عاشت هى تتباهى وتتحاكى بها..

ها هى يوميات تلك الفترة.. فترة التخبط والصدمات الساخنة. تحكى عن انطلاقة جنونية شبه انتحارية لى حين اندفعت بالغضب خارجا.. وكان الوقت حوالى الثالثة صباحا.. والقاهرة تسبح شوارعها فى الصمت والظلام، تاركا خلفى البيت والأولاد والحياة كلها متجها إلى كورنيش النيل.. وإذا بها تصمم على الخروج معى.. كأنما تحمينى من نفسى.. وصلنا الكورنيش بلا كلمة واحدة. طالعنى النهر.. بكل غموضه وأسراره الخفية فى الليل.. قلت فجأة: سأخذ قاربا وأنطلق.

قالت بلاذرة تردد: وأنا معك.

صاحب المرسى صديق لى.. هو المعلم دقدق. حللت فلوكة صغيرة ركبناها.. وانطلقت مجدفا بها.. لا نسمع فى الكون غير دقات القلب.. وضربات المجدافين.. وأضواء كوبرى قصر النيل تلوح وترتعش من بعيد!! لا مجال لأى كلمات.. إيحاءات اللحظة فوق أى كلام. التقطت

عيناى النافورة الجديدة التى أقيمت حديثا فى قلب النيل.. آويت إليها.. إلى ظلها الليلى.. ربطت حبل القارب إلى إحدى الحلقات الحديدية المثبتة فيها.. سكن القارب إلا من حركة اهتزاز الموج.. امتد كفها وكفى فى لحظة واحدة.. جذبتها نحوى..

- النهر صديقى - لا تخافى..

- لم أعرف الخوف يوما وأنا معك..

أسندت رأسها إلى كتفى.. تحول القارب الخشبى إلى فراش ملكى ناعم وثير يهدهده الموج.. نسينا أننا فوق أعماق من تحتها أعماق.. ولم يبق على مسطح النهر غير أنفاسنا.. تتوالى كالموج.. والنجوم المطلة علينا.. تشهد لحظة حب لا مثيل لها فى المدينة العظيمة كلها!

وأمضى مع اليوميات - ٤ يونيو ١٩٦٣ ، إننى لا أتذكر، بل أنقل نقلا!

●●●

ما هذا الخوف الذى يتنامى بسرعة فى نفسى على الثورة وقائدها؟ لقد أصبحت أصحو وأنام متأملا الفكرة التى قالها لى أحد أصدقائى السياسيين الليبراليين: إن حرب اليمن وإرسال ثلاثين ألفا من زهرات جنود وضباط الجيش المصرى إلى مجاهل تلك البلاد الجبلية، ما هى إلا لعبة استعمارية رجعية دبرت لاصطياد الجيش المصرى واستهلاكه وإنهاكه فى معارك لا مجدية.. عازفين بهذا على أحد الأوتار التى

تستهوى عبدالناصر.. وتر مساندة الثورات التحررية!! يحولون نقطة مجده وعظمته إلى نقطة ضعف واستنزاف لقواته! فكرة كئيبة حرصت على طردها من رأسي!

كـذلك، ـ وبنفس المنطق ـ محاولة البعثيين الدءوبة فى سوريا والعراق لاستدراجنا مرة أخرى للعبة الوحدة من جديد!!.. وها هو محمد حسنين هيكل فى مقاله الأسبوعى بالأهرام، وتحت عنوان: «إنى أعترض».. يهاجم هؤلاء الذين تسببوا في الانفصال ويريدون الآن إلقاء التبعة على عبدالناصر.. هؤلاء الذين يتهمونه بالفردية والدكتاتورية، وأن تنظيماته السياسية، ما هى فى حقيقتها إلا مستودع للجماهير!

أجل.. لم يكن هذا الذى يحدث إلا محاولة اصطياد للثورة.. إخراجها من موطنها الأساسى.. وعن مهمتها الرئيسية: المضى قدما في تحرير مصر من ذلك الثالوث التاريخى الرهيب: الفقر والجهل والمرض!

شغل الثورة عن الداخل باجتذابها وتوريطها في الخارج.. وبذلك تقع فى المصيدة القاتلة!!

وقد ذكرتنى هذه الصورة المخيفة بالجزء الثانى المأساوى من أسطورة أوزوريس... حين وقع فى الخديعة واستجاب للعبة أخيه «ست» ودخل الصندوق فأغلقه عليه ثم قتله بعد ذلك وقطع أوصاله وألقاها متفرقة فى مختلف الأرجاء!

دعوت من أعماقى أن يكون هذا مجرد تخيلات.. وإلا فستكون المأساة فى الواقع أبشع وأفدح مما جاء فى الأساطير!

٢٤ مايو ١٩٦٣ .

عاصفة ترابية غطت المدينة كلها طول النهار وأنا مختبئ فى بيتى، لا من العاصفة ولكن من نفسى، ثمة حزن ثقيل يرقد على القلب.. يعجزنى عن التفكير فى أى شيء.. نوع من الموت الاختيارى المؤقت أشتهيه.. إنه الموت النوم.. لو أنام أنام ولا أصحو إلا حين يكون الصحو مصحوبا بالإحساس ببعث جديد!

زارنى رفيق العمر «عاصم النبراوى» تصورت أنه أحس بى فاخترق العاصفة وجاء ليشاركنى ما أنا فيه!.. حكى لى أنه قادم مباشرة من الإذاعة بعد أن انتهوا من تسجيل برنامجه الجديد عن «السهروردى.. المقتول».. تذكرت أنه كتبُ لهم من قبل برنامجا ممتازا عن «الحلاج» والذى مات أيضا مقتولا! قضينا وقتا ممتعا فى النقاش: هذان اثنان من المتصوفة كانا يريان فى اصطحاب الموت تأكيداً للحياة!! أريد لنفسى ذات يوم ميتة من هذا النوع.. أن أكون عبدالله المقتول.. لا عبدالله قاتل نفسه بالكآبة ويتمنى النسيان بالنوم الطويل!

قفزت فجأة منشرح الصدر وأنطلقت بصديقى إلى الخارج.. غير عابئ بالعاصفة.. لكن العاصفة كانت قد هدأت وانقشع الغبار وانجلت الرؤية أمام العين.. والقلب!

●●●

إشارات جديدة لبعث روح الأمل..

نجح عبدالراضى فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى بروزاليوسف.. جاء الثانى بعد فتحى غانم.. وفى أخبار اليوم اكتسح أحمد بهاء الدين رغم أن الانتخابات أجريت وهو غائب فى سوريا، وقيل أن العمال والمحررين علقوا على الجدران مقالة قديمة كان قد كتبها يقترح فيها إلغاء الاتحاد القومى وتكوين «الاتحاد الاشتراكى العربى».

وفى الإذاعة، حصل «فاروق خورشيد» (المضطهد) على أغلبية الأصوات، ذلك شيء يدعو للتفاؤل بظهور قيادات جديدة فى اتجاه التغيير الثورى. ذلك هو قارب النجاة الوحيد للثورة والثوريين.. تنظيم شعبى يمثل حقيقة أحلام الثورة المصرية!

عدت من ميت خميس بعد قضاء يوم وليلة بها.. كنت مملوء النفس بالبهجة والرضا.. ليست هذه الانتخابات بالنسبة للفلاحين إلا تدريبات على ممارسة الديموقراطية.. عزمت على كتابة مشاعر مثنف ثورى عائد إلى قريته.. إلا أننى حين شرعت فى الكتابة وجدت روحى مسحوبة إلى شيء آخر تماما.. رسائل بعنوان: مصارع العشاق!!.. ما هذه الغابة الغامضة التى بداخلى..؟! عندى حالة تعاسة فنية كما قلت لفتحى غانم الذى كتب رواية جديدة أخذتنى بجدة التجربة فيها!! لجأت إلى «سارويان» فى كتابه العذب الجميل.. «الكوميديا الإنسانية»..ذلك هو نوع الفن الذى أطمح أن أكتبه: الفن الذى ينشر على العالم عطر الفضيلة وإلا.. فالصمت أفضل؟!

تتوقف بعد ذلك اليوميات ولا أعود إليها إلا بعد عام. فأكتب معلقا: صدفة غريبة.. أو حكمة مجهولة المغزى.. أن أعود إلى هذه المذكرات بعد عام بالضبط.. لقد كان بحق عام الأحداث.. أحداث لا تحتمل أن يغفل المرء عنها للحظة.. وربما كان ذلك هو دافعي للرجوع.. أحيانا أخاف أن نكون فى حلم ونستيقظ فجأة منه.. شعورى هذا نابع من أن كل شبر فى بلادنا أصبح فى حاجة إلى عين واعية يقظة تحرسه.. إن خطورة التناقض الحادث بين الشعار والتطبيق يهدد الإحساس العام بمصداقية الثورة، فما معنى أن نعلنها اشتراكية، واشتراكية علمية، بينما الذين يديرون دفة العمل فى المؤسسات والمشاريع الكبرى ليسوا اشتراكيين .. هذه الروح التصالحية لو استمرت ستكون نتيجتها وبالا!

●●●

بالأمس اجتمعنا أنا و«غ.ف»، و (م. ش) لنستعرض النتائج المترتبة على زيارة «خروشوف» لمصر بمناسبة إتمام المرحلة الكبرى من السد العالى وبدء تدفق المياه من عيونه!! وبدلا من أن نشعر بالفرح كنا نحس بالخطر.. قال «غ. ف» أننا على أبواب معركة جديدة.. اليمين والرجعية يفرضانها علينا، وعلينا مواجهتهما بسرعة..

نسيت القول بأن ذلك كان فى اجتماع إحدى الخلايا السرية للتنظيم الطليعى، والذى أخذ يتكون لكى يكون البديل القادم للاتحاد الاشتراكى.. يرأسه عبدالناصر.. هكذا قيل لنا!

قلت وكيف ستكون المواجهة وهذا الشكل السرى الذى يتخذه التنظيم لا يعمل على انطلاقه بل على تجميده. وطالبت بضرورة عقد مؤتمر تأسيسى يحضره عبدالناصر شخصيا!! قالوا لى: أكتب تقريرا حول هذا وسنعرضه على القيادة الأعلى!! ولم أكتب التقرير.. ذ لك أنى وجدتنى فجأة مستبعداً أو بالدقة مجمداً ..فلم أبلغ بأى اجتماع بعد ذلك! وخل الصمت بعد هذا على اليوميات.. ولم أكتب بعد ذلك إلا لكى أقاوم الكارثة التى حدثت.. ألا تقضى علىّ وعلى الوطن بأكمله!

١٨

الكـــارثة

هاهو اليوم المشئوم يقترب: ٥ يونيو ١٩٦٧.

يهبط القلب ويصاب الرأس بالدوار، فما كان يمكن لأحد، ولا لأقطع المتشائمين أن يذهب به الخيال إلى تلك الصورة البشعة التي وقعت بها المأساة!

كانت عجلة الأحداث قد وضعت على طريق شديد الانحدار ولا قوة في العالم عادت تستطيع صدها أو وقفها.. بل وبدا أن الناس أنفسهم، وقد تملكتهم حمى الغضب والمظاهرات، حريصون على دفعها أكثر وأكثر، غير متنبهين لشدة وعنف الانحدار، وأنهم هكذا متجهون بها ومعها إلى الهاوية!

كانوا في الشوارع مواكب.. مواكب.. ولافتات لافتات.. تسد آفاق الشوارع بشعارات التحدي، يغذيهم صوت «أحمد سعيد» مدير إذاعة صوت العرب المجلجل ليل نهار مهدداً بقذف الأعداء إلى البحر، ملوحاً بما تملكه مصر من صواريخ «الظافر» والقاهر» فترتفع درجة الحماس والحمى وقد تراءى لكل فرد من هذه الجموع أنه يملك واحداً من هذه

الصواريخ وسيطلقه على إسرائيل ليقضى عليها فى ثوان وننتهى منها إلى الأبد.. وحتى إن لم يكن معه.. فيكفي الإحساس بأن معهم جميعاً، أمامهم ووراءهم، عبدالناصر.. صاروخهم الأكبر الذى يعرف جيداً متى ينطلق!

كان التشاؤم يملأ نفسى إلى حد الاختناق.. هذا الاستعراض للقدرة على تحريك الجماهير وحشدها بعشرات الألوف، وهذا التباهى الممجوج والمفتعل من وسائل الإعلام للقوة المصرية مع التهوين من شأن العدو وتقزيمه شيء مقلق ومثير للاستفزاز. كما أنى كنت مؤمناً بأن عبدالناصر من أعماقه لا يريد الحرب.. فهو العليم بما تمثله إسرائيل من حيث كونها رأس حربة للاستعمار فى هذه المنطقة يسددونها لأية حركة ثورية تنهض بها! فضلاً عن أن كتائب الجيش المصرى العائدة من اليمن أو التى مازالت باقية هناك، الأجدر بها. وهى المنهكة من طول سنوات القتال والاغتراب، أن تعود لكى تسترد أنفاسها وتهدا وتستريح على أرض الوطن وشكراً جزيلاً إنها قامت بمهمتها التاريخية والتحريرية العظيمة!!

ولكن ها هى المؤامرة تتضح خيوطها على أخبث وأبشع صورة: سحب هذه القوات المنهكة نفسها مع قوات أخرى والإلقاء بها فى أتون معركة جديدة!!.. وإذا كان الأتون الأول فى دروب وشعاب جبال اليمن، فالأتون الثانى المجهز لها، تحت شعار التضامن مع سوريا فى مواجهة العدوان الإسرائيلى، هى صحراء سيناء بمتاهاتها الشاسعة!

يقيناً يدرك عبدالناصر كل هذا.. فكيف سيتصرف؟!

كنت وحدي في البيت، يضج رأسي بمنظر المظاهرات الآخذ شكل الطوفان الأعمى، ولا أدري أين فتحية والأولاد.. هل هم معا.. أم متفرقون كل في مكان.. حين دق جرس الباب.. ليتها فتحية أو أحد من الأولاد، فوجئت بصديقي «شوقي عبدالحكيم» مهوش الشعر، شاحب الوجه، يرتسم على وجهه وفي عينيه الذهول والروع، وما كدت أفتح الباب حتى اندفع قائلا وقبل أن يدخل: شايف اللي حاصل في الشوارع، ده جنون، حيضيعوا البلد.. والراجل أبو جعورة اللي في الإذاعة ده لازم يوقفوه.. حد عاقل يا ناس ينبههم.. دول مش عارفين قوة اليهود. دول قطاع.. ممكن يهدّوا البلد عاللي فيها!»

- مش للدرجة دي ياشوقي.. إحنا برضه..

قاطعني بغضب: يا أستاذ فوق بقى.. البلد مفككة.. ماعادلهاش رابط.. كله بيضرب في كله.. هيكل بيضرب في علي صبري.. وعبدالحكيم عامر بيتصرف كأنه رئيس للجمهورية.. والتنظيم اللي اسمه الطليعي جاي عشان يضرب في الاتحاد الاشتراكي.. مولد وصاحبه غايب.. ولا حد عاد فاهم أي حاجة.. إحنا كده رايحين لقضانا برجلينا!

ولم تمض عدة أيام على ذلك اللقاء حتى تحققت النبوءة.. ووقعت الكارثة ذات صباح باكر.. قبل ذهاب الموظفين إلى مكاتبهم، والتجار إلى محلاتهم، والحشود إلى مظاهراتهم وصرخاتهم كان الهجوم

الإسرائيلى قد حدث.. وفى ظرف ست ساعات لا غير كان سلاح طيراننا قد دمر وهو هاجع على الأرض فى الهواء الطلق، يحلم كما حوصرت قواتنا فى سيناء وضربت وتشتتت.. واحتلت سيناء المصرية كلها، وكذلك مرتفعات الجولان السورية.. وقناة السويس سدت وتعطلت الملاحة فيها و.. الرأس المصرية التى كانت إلى الأمس مرفوعة فى وجه الشمس انحنت تحت ثقل النكبة! وصرنا نمشى فى جنازة أنفسنا.. منكسى الرؤوس.. نهرب من النظر فى عيون بعضنا.. لم تعد النظرات تحمل غير الاتهام، وغير الخجل من الذات.. أصبحنا جميعا عرايا.. العرى القبيح.. العرى المخزى.. فشلت كل الملابس والثياب فى تغطية سوءاتنا.

كان ذنبنا عظيماً.. ذنب الأب وهو يرى الذئب ينقض على صغيره وضناه، دون أن يستطيع فعل أى شىء لإنقاذه!

فى ست ساعات فقط ضاع كل شىء.. ضاع الحلم، وضاع الواقع.. ترنح العملاق من هول الضربة المباغتة فترنحنا جميعاً معه ورحنا جاهدين نبحث عن حائط نستند عليه كى نحفظ قليلاً من توازننا.. توقفت الأغنيات فى الحناجر وتخشبت.. وقلنا حنبنى السد وادى إحنا بنيناه بدت الملحمة وهماً وأكذوبة.. لم يعد لنا من بطولة إلا أن نستطيع استبقاء مجرد وجودنا.. واستمرار أنفاسنا ودقات قلوبنا.. ياربنا.. كرمك وعفوك عنا!

لم تر مصر فى تاريخها أياماً أسود من تلك الأيام.. هجرت النساء فيها فراش الزوجية.. وكذلك الرجال.. كان زمن العقم وليس زمن

الإخصاب، وكل من حاول إتيان الفعل بحكم العادة أو التماسا للبعث أو النسيان أصابه الفشل والإحباط.. وغار في نفسه الإحساس بالخجل من الذات. ليست هذه هي الرجولة يا صاح، الرجولة كانت أن تقف وتصد الضربة أو تحول دون حدوثها وتحمي عرض وطنك المستباح!

كان المنظر العام مروعاً: سلاح الطيران مدمر بأكمله ومتناثر شظايا على الأرض.. عشرات الألوف من جنودنا وضباطنا يتخبطون تائهين ومطاردين في صحراء سيناء.. سماء مصر وأرضها بالكامل مفتوحة ومستباحة أمام طيران العدو يسرح فيها ويعربد قاصدا الإذلال... إذلال الشعب وأساساً إذلال الزعيم.. الذي طالما صاح مستحثا همة وكبرياء شعبه، مبشراً بالفجر الجديد: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد. لسان حال طيرانهم يقول بل ارفعوا الرؤوس لكي تروا إننا نحن الأسطورة.. وإننا وحدنا المسيطرون.

وجاء أول ليل بعد الهزيمة النكراء.

كان ليل الخوف الفاجع المقترن بسواد الظلام.. ظلام كامل دامس أطبق على مصر كلها.. لم يعد ثمة شعاع واحد يخرج من نافذة أي بيت من بيوت مصر كلها.. أية مهانة.. وأية فجيعة؟! كيف ياعبدالناصر حدث هذا؟! كيف يا بطل التأميم.. أين صدى كلماتك في المؤتمر الصحفي العالمي الأخير «أنا مابخافش.. أنا مش خرع زي إيدن» وانطلقت الملايين على إثر كلماتك ممسوسة بشجاعتك تهتف في الشوارع والطرقات وحتى في القطارات.. خرجت مصر كلها في الشوارع جيشاً هائلاً يسد عين الشمس.

هاهى الشوارع أضحت خرابات خالية صامتة.. انحسرت الملايين واختبأت فى بيوتها وقصورها وعششها.. يسيطر عليها الظلام والخوف!.. لم يبق فى خرابات الشوارع غير لافتات التحدى البائسة تغطى الجدران.. وتخنق مداخل ومخارج الشوارع الصامتة!

كأنى أمشى طول النهار بين أطلال... اقترب الغروب فهرعت إلى بيتى قبل موعد حظر التجول.. طالعتنى نظرات فتحية والأولاد.. هل مازلت أمثل لهم السند والحماية والأمان كما كنت طول العمر، أم أنى أنكسرت فى عيونهم مثلما انكست الثورة وانكسر الزعيم؟! ورغرغ قلبى بالدموع.. أخذت طفلتى الصغيرة صفاء التى لم تتجاوز العامين وأخفيت كل مشاعرى فى حضنها.

كانت الشقة معتمة.. والصيحات أخذت تتعالى من الشوارع محذرة: طفوا النور.. طفوا النور.

أضأنا شمعة صغيرة.. وأحكمنا إطباق الستائر على النوافذ حتى لا يخرج منها أبسط بصيص.. جلسنا فى ضوء الشمعة الصغيرة مطرقين.. تتناهى إلى أسماعنا صيحات ونداءات أفراد لجنة الدفاع المدنى.. تعاود وتؤكد التحذير من خروج أى شعاع!!

فكرت فى إشعال سيجارة.. قاومت رغبتى.. ولا حتى إشعال عود ثقاب.. فلأكن أنا القدوة فى السلوك وفى النظام. ثم إننا فى الدور العاشر.. وقد تكون عمارتنا أول هدف لقنابلهم!! وخطرت لى الفكرة فقررت تنفيذها على الفور: غداً فى الصبح سنذهب إلى بيت جدتكم

لنقيم فيه.. الخطر هناك أقل.. (ولنفسى) ولكى تقوم هى برعايتهم.. ولتصبح حركتى أكثر حرية.. وأكثر قدرة على التفكير!

نام الأولاد على أنفسهم وهم جالسون معنا فى ضوء الشمعة، فأدخلناهم فراشهم وسرعان ما سقطوا فى جب النم العميق. أحسست بعبء كبير ينزاح من على صدرى.. قلت هامسًا لفتحية: تعالى نقف شوية فى البلكونة!

استجابت على الفور.. تركنا الشمعة فى حجرة الأولاد ورحنا نتلمس مواقع خطواتنا فى الظلمة حتى بلغنا الشرفة.. هبت على وجهينا نسمات طرية.. أستغربت أن العالم لايزال به مثل هذا الهواء المنعش.. وقفنا صامتين بلا أى كلام.. كان المشهد أمامنا كئيبا ومفجعًا.. بدت القاهرة كلها من أعلى كتلة جهمة سوداء.. حتى البرج الشامخ المصمم على هيئة زهرة اللوتس والذى ماكنت أراه متلألئا فى الليل إلا رأتمثل فيه عبدالناصر بسموقه وشموخه.. انطفأ وغاب فى عدمية الظلام!.. امتثل الجميع لأمر حظر التجول فانعدمت الحركة والأصوات.. باتت المدينة مثل قبر كبير مظلم.. امتلأ بالجثث الأحياء!

- عملوها المجرمين.. قلتها بزفرة.

قالت بحدة: مش هم بس المجرمين.. إحنا كمان مجرمين.

- أيوه.. لكن..

قاطعت بغضب وشراسة: لكن إيه؟! بعد اللى حصل... بعد اللى بان وانكشف.. حنستمر فى التبرير.

غلى الدم فجاة فى عروقى.. تتهمنى بالتبرير وهذا يعنى إنى ضالع فى الجريمة. أستبد بى الغضب الذى قد يصل إلى الانفجار.. لولا مشهد المدينة المقبرة تحت بصرى لما استطعت ضبط أعصابى، آثرت عدم النقاش:

واصلت هى.. بهمس مشحون: الحكم الفردى هو السبب.. هى دى الحقيقة .. وأنت واحد من ضحاياه (وأشارت بكل ذراعها على المدينة المظلمة) : هو ده اللى أخذته مصر من الديكتاتورية العسكرية!! وفكرت حزيناً بالرد عليها: بل أخذت مصر الكثير الكثير.. أخذت الجمهورية.. وضرب الإقطاع وتمليك الأرض للفلاح، وبناء قاعدة للتصنيع الثقيل.. ووضع أساس لجامعة جديدة فى كل محافظة.. أخذت قانون التأميم، وتحويل مجرى النهر وإقامة السد العالى العظيم، والذى لم يكن صدفة أن يأتى العدوان مع بدء تدفق المياه من عيونه.

ما أكثر ماقلت لها هذا الكلام، لكنها أبدا لا تقتنع.. فما جدوى النقاش.

قالت وهى تمعن النظر إلىّ فى الظلام: لماذا سكت؟!

لم أرد.. ندت عنى تنهدة.

- خلاص.. انتهى بيننا الكلام؟!

قلت متمسكاً بالحلم وبالحكمة: الأفضل نغير الموضوع.. فاللحظة لا تحتمل.. واطمئنى.. لو عشنا.. فسيحدث النقاش، ليس بينى وبينك

فحسب، بل وستنعقد محاكمة كبرى للجميع.. وعلى مستوى مسئولية البلد كله! الآن.. هل يمكن أن يجمعنا الصمت.. لا الكلام!!

كان قد أستبد بى إحساسى كئيب مضنٍ: إذا كانت الثورة قد هُزمت وسقطت، فلماذا الحب هو الآخر لا يُهزم ويسقط؟! لا شيء بعد الوطن وبعد القائد يعز على الهزيمة وعلى السقوط؟!

كنت أفكر وأنا واقف بجوارها مستنداً على سور الشرفة فى الظلام ما أكثر ما ازداد الخلاف بيننا فى السنوات الأخيرة، واتسعت مساحات البعاد.. وها أنا لا أستطيع التعبير لها عن أهم وأخطر إحساس يشغل الآن نفسى وعقلى: كنت اتمنى لو أقول لها هامساً من قلبى، ونحن واقفان فى الظلمة: ترى.. كيف حال عبدالناصر الآن.. إننى حزين حزين من أجله.. ملهوف للاطمئنان عليه.. لو أستطيع أن أحتويه وأضمه وأهدهده.. ثم أهيب به: هيا يا بطل.. إياك إياك أن تهتز فيهتز الوطن كله معك.. هيا أستعد سمتك وارفع رأسك وعاود انطلاقتك.. فلكل جواد كبوة.

كنت أتمنى من كل قلبى أن أقول لها هذا وتشاركنى بكل الحنين والأسى .. دون أدنى تحفظ ودون أن تثير أية مناقشة!! غير أنى خشيت على تلك الأحاسيس أن تجرح بابسط كلمة!! ورأيت المسافة بيننا تزداد اتساعاً فى الظلمة.

ـ المنظر كئيب.. فلندخل.

وماكدنا نستدير لندخل حتى وجدنا نفسينا ننتفض فزعًا، ثم نحتضن بعضنا احتماء.. لقد بدا وكان وحشا هائلاً.. شيطانًا.. بركانًا.. ينقض علينا وعلى البيت وعلى المدينة كلها.. طائرات بسرعة الصوت وعلى ارتفاع منخفض جداً. مرسلة فحيحا رعديا رهيبًا.. هو فى حد ذاته أبشع من أية قنبلة، هرولنا متماسكين إلى الداخل. حمداً لله أننا دخلنا.. كان الصبيان الثلاثة قد استيقظوا والذعر يطل من عيونهم، وإن بدا عليهم محاولة التماسك، أما الصغيرة فكانت تصرخ فزعًا: فيه إيه يابابا.. فيه إيه يا ماما؟!

اندفعت أحملها: ماتخافيش يا حبيبتى. احنا معاك، كلنا معاك. وإذ كانت الصغيرة تنتفض على صدرى.. قلت لها لأزيل الخوف عنها:

هم ما بيضربوش البيوت.. بيضربوا الطيارات بس!

قال إيهاب.. الابن الأكبر: وليه مابيضربوش البيوت؟!

قلت بمرارة وضراوة: وليه يضربوها.. بعد ما ضربوا المهم.. ضربوا كل طياراتنا.. دلوقت قصدهم ينشروا الخوف والرعب.. المجرمين.. حيجيلهم يوم.. أكيد.. يالله ننام.. وعشان نصحى بدرى، ونروح بيت جدتك زينب، حبوبتنا الكبيرة.. لغاية ما الغمة دى تزول. (ومشجعاً) وحتزول قريب إن شاء الله!

حين فتحت عينى فى الصباح الباكر، ورأيت ضوء النهار ينساب فضياً من خصاص النافذة، داخلنى الإحساس بالغرابة ممزوجة بالحمد وبالثناء. هاقد طلعت الشمس مثلما تطلع كل يوم والأرض مازالت

تدور، وأنا لاأزال حيًا . . والقلب يدق وينبض.. والأولاد وأمهم نائمون.. أنفاسهم تتردد بعمق وانتظام.. خرجت مسرعاً ملهوفاً إلى الشرفة.. كي أطمئن على المدينة هي الأخرى.. ويالبهجة القلب حين طالعني من الوهلة الأولى برج القاهرة.. شامخاً سامقاً.. ومتعالياً في الفضاء بقمته المسنونة.. وإذا به يتشكل ويأخذ صورة عبدالناصر..

أجل.. هو الذي أصدر القرار ببنائك.. حاول الأمريكان ذات مرة رشوته بمليون دولار.. أخذ المليون وحولها إلى مزار ومعلم سياحي وتاريخي لمدينته الحبيبة!! آه.. كيف أنت الآن ياعبدالناصر.. كيف قضيت هذه الليلة المشئومة!!! أول ليلة بعد وقوع الكارثة؟ ليتك تكون قد حظيت بساعتي نوم أو ثلاث في حضن رفيقة عمرك الحنون الرءوم.. كي تكون قادراً على مواجهة المحنة.. والمحنة لم تعد الآن تدمير سلاح الطيران فقط.. المحنة الأقصى هي عشرات الألوف من أبنائنا وإخوتنا الذين فقدوا كل اتصال وباتوا تائهين متخبطين. جياعاً وعطاشى.. في مجاهل صحراوية!

إنه لذنب عظيم!!

وعاودتني كلماتها: بل نحن المذنبون، لا بل نحن المجرمون!

وخاطبتها في سري: أجل نحن المجرمون.. ولكن لا تظني أنك ستفلتين من الحساب.. بل ستحاكمين يوماً.. ضمن من سيحاكمون!! لكننا الآن لسنا في وقت الحساب.. الآن نحن في امتحان عسير.. هل نستطيع أن ننهض من السقطة ونقف على أقدامنا من جديد.. ذلك هوالتحدي.. وما أكثر ما حدث على مر التاريخ!!

لم أنتظر حتى تصحو.. أرتديت ملابسى على عجل، وقبل أن أخرج كتبت لها وللأولاد ورقة: نزلت لأطمئن على مصر.. لن أتأخر كثيراً.. كونوا مستعدين للذهاب إلى تيتة الدبوية.. أم الجميع.

●●●

اقفز بعد هذا فوق كثير من الأحداث التى نجدها فى كتب التاريخ، وأصبحت شائعة ومعروفة.. إلا إن أخطرها كانت لحظة أن طلع عبدالناصر على شاشة التليفزيون وأعلن وهو منكسر النظرات: إن ما حدث هو نكسة خطيرة للثورة، وأنه هو شخصيًا المسئول الأول عن حدوثها، ولهذا.. فهو يعلن تنحيه عن الحكم.

وإذا بالطوفان يحدث.. طوفان الاستنكار والرفض لهذا الذى يقوله.. وإذا بملايين الشعب تخرج رافضة هذا التنحى.. مستبقية إياه فى موقع المسئولية.. ولكن أخطر ما حدث فى ذلك اليوم بالنسبة لى مشهدان: المشهد الأول إمرأة تحمل رضيعها.. كانت ترضعه لحظة سماعها نبأ التنحي فخرجت هالعة إلى الشواع منضمة إلى جموع المستنكرين.. ورأيتها.. وثديها خارج جلبابها، لكن الحلمة مع الفزع كانت قد خرجت من بين شفتى الرضيع.. فبقى منظرها هكذا.. مفتوحة الصدر.. ثديها العارى مدلى إلى الخارج.. ووليدها على صدرها يبكى.. بينما هى تصرخ مولولة مخاطبة عبدالناصر: لأ ياحبيبى لأ.. ماتسيبناش لأ.. إحنا مالناش عيشة من غيرك.

والرضيع يبكى.. وكنت احس أن مصر كلها تبكى معه!!

المنظر الثانى: فتحية.. وقد فوجئت بها فور سماعها النبأ تخرج من البيت ناسية حتى أولادها وانطلقت فى الشوارع تصرخ مع الملايين تعلن رفضها للتنحى.. توحدت معى ومع الجميع فى الإحساس بالخطر المحيق بالوطن!!!

الآن.. وأنا أكتب هذه السطور، تختلط علىّ كثير من المشاهد والصور: هل حدثت على إثر صاعقة الهزيمة، أم على إثر صاعقة موت البطل بعد ذلك بعامين؟!.. ذلك أن كل معاصرى ذلك الحدث الرهيب يقررون بأن عبدالناصر مات بحسرة الهزيمة.. وأن العامين اللذين عاشهما بعد صعقة الهزيمة لم يكونا إلا توهج نور الشمعة الأخير!!

أجل.. كان توهجا.. ساطعا.. وفعالاً على نحو معجز، فقد استطاع البطل فى تلك الفترة الوجيزة أن يعيد تكوين جيشه على أحدث نظام، وأقام بمساعدة السوفييت، على حدودنا الشرقية حائطاً ضد الصواريخ، وأعلن بدء حرب الاستنزاف حققت فيها قواته البحرية والبرية انتصارات تشى بعودة الروح!!.. وحين حم القضاء وحلت لحظة الرحيل.. لحظة الوداع.. كان ضمن الملايين المودعين جيشاً مصرياً مجهزاً وقادراً حقاً.. ومهيئاً للانتقام.

●●●

وأنا أقلب فى أوراق تلك الفترة، وجدت هذه السطور.. كتبتها ونشرتها فى جو المأساة.

ما أحببت بلادى مثلما أحببتها هذه الأيام.. ليس حباً.. إنما تمسك بجنون.

وأنا لم أغادر بلادى مرة واحدة في حياتي رغم أني بلغت الأربعين.. ويا طالما حلمت برحلات أطوف فيها بكثير من بلاد الدنيا، وأرى مدناً وبشراً وجبالاً وانهاراً وقمماً لم أرها من قبل، وأهيم في جنبات كوكبنا الأرضى.. وكنت دائماً أعتبر عدم سفرى ورؤيتى لهذه الأشياء ظلماً وتعاسة.

اليوم.. لو جاءنى السندباد، مقدماً لى بساطه السحرى وقال لى: هيا هاك البساط السحرى الذى كنت تحلم به.. اركب الآن وانطلق وسافر إلى أى بلد أو مملكة تشاء، لصرخت في وجهه، بل ولاستربت فى نواياه: لا.. الآن مكانى هنا.. قدماى ثابتتان هنا ـ عيناى، اذناى، ذراعاى.. كل ما فى مشدود إلى هذه الأرض.. محتضناً وحارساً لترابها.. حتى يتم الانتقام!!

١٩

الوداع ياحبيب الملايين

تلك كانت فترة من أغرب وأقسى الفترات التى مرت على الإنسان المصرى فى تاريخه الحديث، وربما القديم أيضا، فترة ما بعد وقوع الهزيمة، والاعتراف الجماعى بها! واذكر إننا بدأنا نخرج بالتدريج من قواقع حزننا وخجلنا، وشرعنا نطل برؤوسنا على العالم، تدفعنا الرغبة العميقة والحميمة فى التلاقى، وقد لاحظت شيئ أسعدنى.. أن معظم من كنت ألتقى بهم، فوجدت بهم جميعا وبلا اتفاق فى حالة عكوف على القراءة.. وليست أية قراءة، بل قراءة التاريخ بالذات.. وليس أى تاريخ.. بل التاريخ القديم الموغل فى القدم، كما ن فى أذنى أيامها اسم مجموعة قصصية ظهرت مباشرة بعد النكسة أوراق شاب عمره ألف عام.. وكان هذا الشاب هو كاتبها: جمال يطانى.. رامزا بذلك العنوان للنبع الذى تستمد منه الكلمة قوتها فى ا دى والتحدى:

نبع التراث والتاريخ!

وفطنت لمعنى الظاهرة.. العودة إلى الجذ .. بحثا عن التطهر والخلاص!

وأنا؟! أين وكيف أحقق تطهرى وخلاصى؟!

وإذا بالأحداث تقدم لى ما ارتجيه!.. فقد حدث قبل وقوع كارثة الهزيمة ببضعة شهور أن طلعت علينا الصحف ووكالات الأنباء العالمية بنبأ انتصار علمي جديد باهر أحدث دويا على مستوى العالم كله، إذ نجح أحد الأطباء فى إجراء عملية نقل قلب من إنسان مات إلى آخر حىّ.. وتأكد نجاح العملية على نحو أشاع الأمل عند الكثيرين الذين يعانون أمراضا خطيرة فى القلب!

آثار هذا الخبر خيالى كمؤلف.. ورأيت فيه مادة لمسرحية تجمع بين دمعة الدراما وبسمتها.. وشرعت بالفعل فى كتابتها بعد أن تحددت لقطتها: هل القلب مجرد مضخة تمد شرايين الجسد بالدم الذى هو ماء الحياة، أم هو جماع مشاعر وأحاسيس وإلهامات الإنسان، حتى إذا ما انتقل هذا القلب إلى جسد إنسان آخر انتقل بكل ما يحمل من عواطف ووجدانيات ونبضات إحساس، إذن ماذا لو أن هذا المريض الذى انتقل إليه القلب.. وجد نفسه منجذبا رغما عنه بقوة الحب نحو زوجة الرجل الذى مات، وانتزعوا منه قلبه.. هذا القلب الذى كان يهيم غراما بامرأة صاحبه؟!

وقد شرعت بالفعل فى كتابتها آملا أن أتخفف فيها من الجدية الغالبة على مسرحى حتى ذلك الحين.. غير أن كارثة الهزيمة والسقوط ما كادت تطبق علينا حتى وجدت الفكرة تأخذ شكلا آخر ومضمونا مختلفا تماما: فبدلا من أن تبقى مسرحية، أصبحت رواية.. وبدلا من

أن تكون العملية من أجل إنقاذ حياة إنسان فرد.. أصبحت رمزا لإنقاذ وطن بأكمله.. وطن مريض وفى حاجة إلى قلب جديد!.. وأسميت الرواية «العودة للحياة» وشملتنى سعادة كبرى.. إذ كان يكفى تلك الأيام السوداء التى أعقبت الهزيمة والسقوط أن ينشر هذا العنوان كل أسبوع.. كدعوة وصرخة للاستمساك بروح الأمل: العودة للحياة.. العودة للحياة.

كما أنه فى تلك الأيام نفسها، وكرد فعل لبشاعة الهزيمة، صدرت صيحة بالغة الغرابة من إحدى الكاتبات الغاضبات تدعو فيها إلى مقاطعة الكتابة احتجاجا على وقوع الهزيمة، وفى حقيقتها هى إدانة للنظام ومزيد من الإذلال غير المباشر لعبدالناصر.. كما شاعت فى نفس الوقت، وفى ذات الاتجاه قصيدة زجلية ساخرة إلى حد المرارة: ياما احلى رجعة ظباطنا من خط النار! واقشعر جسدي وأنا أسمع هذه الكلمات.. فحتى لو جاز فى تلك اللحظة اتهام القائد وإذلاله، فما يصح ابدا تلك السخرية من ضباط وجنود يعيشون محنة رهيبة وكانوا ضحية لسوء تقدير قياداتهم.

لكن تلك الصيحات الغاضبة على اية حال كانت شيئا هينا بجانب ما عُرف واعترف به أخيرا، أن رجل دين - لم يكن قد أصبح مشهورا بعد .. هو الشيخ متولى الشعراوى - قد صلى لله ركعتين شكرا على الهزيمة التى اصابتنا فى ٥ يونيو، آملا أن نكون بذلك قد تخلصنا من حكم تلك الثورة الكافرة الملحدة الى الأبد!

أما نحن فى صباح الخير، وكان رئيس التحرير فى تلك الأيام هو الصديق لويس جريس، فكنا بوعى كامل واضح، نصنع من كل عدد يصدر ميلادا جديدا كل أسبوع، نحققه بالكلمة والرسم: العودة إلى الحياة.. العودة للحياة!

وإذا بالرواية تكاد تصبح تاريخا تسجيليا لأزمات الثورة واختناقاتها بالصراعات الدائرة فيها وحولها.. وأصبح نجاح عملية نقل القلب هو رمز النجاة والخروج من أزماتها المهلكة.. وتجسد الرمز فى الوعى الجديد أو قل الخط السياسى الذى يجب أن تتمسك به الثورة لتجتاز محنتها: جبهة ثورية واسعة لكل القوى الوطنية.. متخلين جميعا عن أنانيتهم.. متوحدين ضد مؤامرات اليمين والرجعية التى تتصاعد وتتلاقى فى النهاية مع أهداف الاستعمار وأساليبه.

وهكذا شحنتنى الكتابة، من خلال ذلك اللون الروائى، بروح المقاتل المجند بكلماته لإزالة آثار ذلك العدوان الخبيث الغادر!

ومستنى أنا وفتحية حالة من الازدهار النفسى والعاطفى.. وكان ذلك يحدث دائما مع كل ازدهارة فنية.. فقد كانت سعيدة بمشاركتها لى طوال فترة ولادة هذه الرواية.. كما كنت أنا أيضا فى غاية الرضا والابتهاج بمشاركتها وهى تلد تمثيليتها الأولى للتليفزيون، وكان اسمها «حبال من حرير».. وقد عبرت فيها عن ذلك الصراع الذى كان يحتل قلبها.. قلب الأم.. كل أم.. بين الخوف على الأبناء من بشاعات ومآسى الحرب، وبين الرغبة فى أن تنذرهم فداء لحرية الوطن! ونراها

فى النهاية وقد مزقت حبال عواطفها.. تلك العواطف الحريرية الناعمة الخفية التى ظلت تقيد بها أبناءها.. وإذا بها تطلق ابنها الثانى، بعد ابنها الذى استشهد إلى جبهة القتال!.. وكان مخرج هذه التمثيلية هو «أحمد الحريرى» وأذيعت أيامها عدة مرات!

وقد بلغ الازدهار مداه فى تلك الفترة بحصولى على جائزة القصة السينمائية عن فيلم «جفت الأمطار» إخراج «السيد عيسى».. وكان أول فيلم رشحته مؤسسة السينما للعرض بعد وقوع النكسة نظرا لمضمونه الثورى والداعى للتمرد على عبودية المكان والخروج إلى الأراضى البور الشاسعة وتعميرها!.. وكذلك بحصولى على «منحة تفرغ» من وزارة الثقافة، كتبت خلالها مسرحية «المرأة التى تكلم نفسها كثيرا»، والتى هام بها غراما الفنان «حسن عبدالسلام» واتفقنا على أن يخرجها على مسرح الحكيم.. كما انتهيت من مسرحيتى الثالثة «المشخصاتية» التى شقت طريقها فيما بعد إلى مسرح الطليعة، بفضل حماس المخرج «عبدالرحيم الزرقانى» لها!

فى نفس ذلك الربيع الفنى، عرضت لفتحية مسرحيتها الأولى «المرجيحة»، على مسرح سيد درويش التابع للمسرح القومى بالإسكندرية.. إخراج «حسين جمعة».. وقضينا فى ظل تلك التجربة أياما مفعمة بالفرح وبالحماس فى تلك المدينة البحرية الجميلة، ولم تلبث الازدهارة أن انتقلت من المستوى الشخصى إلى المستوى الوطنى العام، حين وافتنا الصحف ووكالات الأنباء بتلك الضربة الصاروخية

التى وجهتها قواتنا البحرية إلى المدمرة «إيلات» الإسرائيلية التى كانت تتجول مزهوة فى البحر، واغرقتها فى جوف اليم!! كما حدثت مواجهة شرسة بيننا وبين العدو عند «رأس العش».. انتهت بهروبهم وانتصارنا.. وكانت تلك هى البداية الفعلية لحرب الاستنزاف التى أعلنها عبدالناصر، ومضى فيها بعزيمة أكبر، بعد أن نجح بمساعدة السوفييت فى إقامة حائط ضد الصواريخ بطول حدودنا الشرقية لحماية الجبهة الداخلية.

وهكذا تنامت روح الأمل والتفاؤل.. وخطر لى أن عملية نقل القلب التى تمنيت بالخيال الروائى أن تجرى للوطن، قد تمت بالفعل، وبنجاح كبير.. فها هى الشوارع والمؤسسات والمحلات ودور السينما والمسرح وملاهى الليل، عادت تضج بالحركة الصاخبة المعتادة.. والشعب راح - وبنشاط أكبر من المعتاد - يمارس هوايته الأصيلة والتى يعلن بها إنه ليس شعبا أعزل كما يتصورون، بل هو يملك السلاح الأكثر مضاء وفتكا: النكات والقهقهات الساخرة على كل من تسبب أو اشترك - فاعلا أو مفعولا به - فى الهزيمة... حتى أن عبدالناصر فى إحدى كلماته بالتليفزيون طلب صراحة من الناس.. أو قل من أهل النكتة وأربابها أن يراعوا اللحظة ويترفقوا بجراح الوطن وأحزانه! وتمت الاستجابة بالفعل.. أغلق مصنع النكات.. ذلك المصنع الخفى المجهول مكانه والعاملون فيه! وعاشت مصر فترة بلا نكات ولاقهقهات ساخرة ممرورة.. وحينذاك تجلت الحكمة من ضرورة ممارسة هذه الهواية، وأن يظل المصنع مصنع النكات عاملا ومنتجا، فما كاد الهدوء

والصمت يربدان على البلاد لفترة حتى انتبهنا ذات يوم على انفجار مظاهرات غاضبة للشباب فى سائر الجامعات المصرية، مطالبين بعقد محاكمة لكل هؤلاء الذين قادونا إلى الكارثة والحقوا العار بنا!

واذكر أنى قلت لنفسى بفرح وأنا أتامل ذلك الحدث الذى كان يحدث لأول مرة فى ظل حكم عبدالناصر:هاهو جيل عبدالناصر يثور عليه.. وإنها لأعظم شهادة له.. تصفع هؤلاء الذين يقولون بان عبدالناصر أخرج جيلا عقيما مكبوتا.. هاهو الجيل الذى تشبع بفكرة الحرية والكرامة يعلن الثورة على الثورة من أجل الثورة!! وهاهو أيضا عبدالناصر الذى أعلن إدانته لنفسه وتحمله لمسئولية الهزيمة بأكملها يستجيب للمظاهرات.. وعقدت المحاكمات التى انتهت بإحكام رادعة أدخلت السجن كوادر كبيرة كانت تتحكم فى المصير من وراء الستار.. أولهم رئيس المخابرات بكل جاهه وهيلمانه.. وبدا أن عبدالناصر قد صح عزمه على تخليص البلاد وتطهيرها من كل أسباب الهزيمة.. وإذا بهذا العزم يصل به إلى ذروة الموقف المأساوى.. حين أصر - وهو بصدد تكوين جيش جديد قادر على الانتقام - أصر على أن يتخلى صديق عمره ورفيقه والمشير عبدالحكيم عامر عن منصبه كقائد عام للقوات المسلحة.. وحينذاك آثر الصديق والرفيق أن يتخلى عن الحياة كلها وانتحر.. وكانت محنة جديدة هزت أركان قلب البطل!

واتضح أن للرجعية قرون استشعار فى غاية الحساسية والخطورة.. فما كادت تلمح أن الثورة تمر بمحنتها الخطيرة، حتى

راحت تتهيأ للانقضاض.. وإذا بها تتحرك على المستويين: المصرى والعربى فى أن واحد!!

فى مصر رأينا الإقطاع فى أحد مراكزه (كمشيش ـ منوفية) يرفع رأسه، ويعلن تمرده على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى، وراح ضحيته شاب سياسى من أبناء الثورة المتحمسين ـ صلاح حسين ـ لقى مصرعه، وهو يتصدى ببطولة لهذا التمرد الرجعى!

وعلى المستوى العربى، إذا بنا نفاجأ بمذبحة أيلول الأسود الرهيبة تقام للفلسطينيين فى الأردن، هدفها القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، وإبادة جميع أعضائها.. ولم يجد الفلسطينيون غير عبدالناصر يستغيثون به لكى يحميهم وينقذهم!.. أو لم تولد منظمة التحرير على يديه، حين جاءه سرا ذات يوم «أبو عمار» و «أبو اياد» .. يعرضان عليه الفكرة، فآزرهم وشحنهما بطاقته الثورية ووعدهما بكل العون المادى.. والمعنوى؟!

هاهو لايزال كالعهد به.. ناصر الثوار، وراعى المناضلين من أجل الحرية فى كل مكان، وبجهد هائل جبار، وباشتراك كل الحكام العرب فى مواجهة المذبحة، نجح فى وقفها، وتم تهريب «أبو عمار» من عمان إلى القاهرة.. ولكن.. أسفاه.. كان القلب العظيم قد أضناه الجهد واستهلكه تماما.. فقد توقفت فجأة دقاته على نحو لم ينفع معه طب أو دواء. وحينذاك حدث الذهول، ومضى الناس بصعقة الفاجعة يتخبطون ويولولون.. فى لحظة واحدة خلت كل البيوت والدور والعشش.. خرج

كل من فيها حتى الأطفال والرضع الملتصقين بصدور أمهاتهم.. يلوحون ويتنادون: لا ياريس.. ماتسيبناش ياريس لا.. وانفجرت باكيا منهدها بعد طول تماسك ومجاهدة.. وكذلك فتحية التى لبست السواد وتورمت عيناها. كانت تطلق. صرخاتها. بل هتافاتها: عبدالناصر فى القنال.. عبدالناصر فى المصانع.. عبدالناصر في الغيطان!!

لسان حالها يقول: إن كنت هاجمتك فترة فلأن قوتك وجبروتك وعظمتك كانت تغرى بالصدام، فما قيمة الحياة دون عراك أو مناطحة؟! أنت الذى اغريتنا أن نرفع رأسنا ونمارس التصدى والتحدى.. بعد استسلام وقهر القرون!.. تكاد تمزق نفسها من البكاء حزنا.. أما أنا يا عبدالناصر، فقد حاولت - من خلال رحلة طويلة أليمة وبهيجة أكتشف كل أبعادك - وأدركت أخيرا أن من يريد أن يفهمك حقاً عليه أن ينظر إليك على أنك مراحل.. ولقد فطنت ذات يوم - من خلال تلك الفكرة - إلى ثمة معنى جليل يجمع بينك وبين النهر، فوصفتك قائلا: إنه يولد بعد يوم!

فكيف.. كيف يخطفه منا ملك الموت، ونحن واقفون عاجزون.. جمد الذهول والروع فينا كل قدرة على الحركة.. وما جدوى الآن اية حركة إلا أن يحافظ كل واحد منا على نفسه وهو سائر يتخبط فى قلب الشلال الهادر.. ألا يتعثر أو يسقط فتسحقه الاقدام سحقا.

لاتتركى يدى يا فتحية.. لو تاهت منى للحظة لابتلعها الخضم.. ويتوثق كفانا.. وأحيانا أحيطها بذارعى أحميها داخل صدري من قوة

وعنفوان ضغط الموج البشرى.. متطلعين إلى السماء.. فى انتظار الطائرة الهليوكوبتر التى ستحمل جثمان الحبيب لتنقله إلى مثواه الأخير، الآن أعرف ما معنى يوم الحشر.. وأعرف أيضا معنى الولادة بالموت.. هاهى الهتافات تنطلق وتهز طبقات الفضاء.. فنمضى نصيح معا بأعلى الصوت:

ابكى ابكى يا عروبة.. عاللى بناكى طوبة طوبة

ابكو بدم ابكو بدم.. عبدالناصر أب وعم

مكتوب على قلوبنا.. عبدالناصر محبوبنا

مكتوب على إيدينا.. عبدالناصر فى عينينا

عبدالناصر ساب وصية.. خلى بالكم م الفدائية

٩ ,١٠ ايدناك.. يوم الإسرا ودعناك

بالروح.. بالدم.. حنكمل المشوار..

بالجيش والشعب.. حنكمل المشوار..

وتوقفت الهتافات فجأة على صوت الطائرة الهليوكوبتر، وقد بدأت تلوح من بعيد.. وإذا بشئ كالجنون يسرى فى الجموع، وإذا بهم مرتاعون يتطلعون إلى السماء ويلوحون بالاذرع وبالقبضات: لا إله إلا الله.. عبدالناصر حبيب الله.. لا إله إلا الله.. عبدالناصر حبيب الله.

فتحية.. فتحية (ومضيت أهز فيها حتى تلتفت لى) عندى فكرة .. بيت فتحى سعيد قريب جدا من هنا.. تعالى نطلع نشوف من البلكونة.

وبرقت عيناها بالموافقة! دقائق قليلة وكنا مع أسرة الصديق الشاعر فتحى سعيد.. واقفين فى الشرفة ننظر من أعلى.. وجموع الملايين تتحرك زاحفة هاتفة على الأرض.. والطائرة التى تحمل الجثمان الحبيب أخذت تقترب على نحو بطئ.. وإذا بشىء بالغ الغرابة يحدث.. فقد تحولت الهتافات الهادرة إلى نشيد أو أنشودة تفيض بالجلال وبالخشوع.. وإذا بالزحام المتأجج المضطرب يصبح مسيرة جنائزية يرين عليها الهدوء والانتظام.. وعلى إيقاع اللحن الجنائزى انضمت ملايين الحناجر فى حنجرة واحدة.. من قلب واحد.. يخاطب الكون.. بل الأكوان..

الوداع يا جمال..

الوداع يا حبيب الملايين.. الوداع..

ثورتك ثورة كفاح.. عشتها طول السنين

الوداع يا جمال..

والهليوكوبتر بالجثمان تواصل الابتعاد.. لو تتوقف.. لو يحدث شىء.. لو تحدث معجزة ويعود إلى الحياة ونجده بيننا.. بعينيه البراقتين، وخطواته الواسعة وابتسامته الحبيبة!! إلا أن الطائرة سرعان ما اختفت وتلاشت تماما من أفق المدينة.

ويلاه.. كيف سنعود إلى بيوتنا.. لن تعود البيوت هى البيوت.. والقاهرة لن تعود هى القاهرة، بل الأرض ذاتها لن تعود نفس الأرض التى خرجنا منها وإليها نعود.. فهل تحدث ثمة معجزة؟!

لا .. لا .. أيها القلب اطرح عنك جزعك .. واستمع إلى كلمات صديقك واخيك أحمد عبدالمعطى حجازى، الذى جاء بمجيئه، وظهر بظهوره.. استمع:

يا أيها الفقراء يا أبناءه المنتظرين مجيئه.. هو ذا أتى..

خلع الإمارة وارتدى البيضاء والخضراء وافترش الرمال هو ذا أتى..

ليمر مرته الأخيرة فى المدينة..

ثم يأوى مثلكم فى كهفها السرى يستحيى لظاها ..

يستنهض الموتى، ويجمعكم، ويصعد ذات يوم مثل هذا اليوم، يعطيكم منازلها، ويمنحكم قراها

هو ذا اتى!

فدعوه أنتم يا مماليك المدينة، إننا أولى به يوم الرحيل

نبكيه حتى تنضب المقل الضنينة

نبكيه حتى ترتوى الأرض التى لابد سوف نهز نخلتها ونطعم من جناها..

● واستمع كذلك لصلاح عبد الصبور:

هل مات من وهب الحياة حياته:

حقا.. أمات؟!

ماذا سنفعل دونه..

ماذا سنفعل بعده؟!

هل مات؟!

تتجمع الكلمات حول اسم سَرَى كالنبض في شريانهم: عشرين عاما.. كان الملاذ لهم من الليل البهيم..

وكان تعويذة السقيم..

وكان حلم مضاجع المرضى، وأغنية المسافر في الظلام وكان حلم المدينة للفقير يذوده حرس المدينة عن حماها هل مات.. واحزناه..

آه لو يعود لبرهة، ويجيل نظراته. ويكشف عن غد بعض الضباب

● وينشد أيضا محمد إبراهيم أبو سنة:

يخرج لي وجه أسمر..

يخرج لي وجهه يتلألأ فوق النيل

يمسح دمعي يأخذ عيني في عينيه.. يصيح.. جفف دمعك واقرأ..

وإذا ضوء يخرج من عينيه أقرأ في صفحته البيضاء.. «قم ياوطني»

كل الأوراق ستسقط لكن تبقى الشجرة.. كي تورق في كل ربيع.. يأخذ كفي بين يديه.. يضع الكف على صدره.. أسمع فيها هتافا واحد أسمع آلاف الأجراس تصيح.. خالدة مصر.. خالدة مصر..

● ويدق الطبل.. ويرتفع صوت نزار.. يجرح ويدمي: قتلناك يا آخر الأنبياء.. قتلناك..

ليس جديدا علينا اغتيال الصحابة والأولياء..

فكم من رسول قتلناه وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء فتاريخنا كله محنة.. وأيامنا كلها كربلاء.. قتلناك يا جبل الكبرياء.. قتلناك يا جبل الكبرياء..

● .. وانظر إلى نسر العامية المهيب فؤاد حداد.. مستوحدا بأحزانه فوق قمته.. ويلخص الملحمة كلها فى سطور: يا مصر..

لما اتولد كنت نايمة فى لمبة جاز وكان ولادى خيالهم يشبه العكاز
ولما مات.. كنت شابة والجبين عالى

●●●

أرأيت يا فتحية.. ليس موتا.. بل ولادة.. ليس حزنا.. بل بشارة..

٢٠

وتحطمت الخرافة عند الظهر ..!!

وأقفز بعد ذلك قفزة واسعة في الزمان لأراني انا وفتحية واقفين في ميدان التحرير ذات مساء، ودموع الفرح في حلقينا، لنشهد الجيل الذي تظاهر من قبل في وجه عبدالناصر مطالباً إياه بأن يحاكم المسئولون عن النكسة، وامتثل له عبدالناصر، نشهد هذا الجيل نفسه، وقد أعلن الاعتصام في أوسع ميادين القاهرة، مطالباً «السادات» بخوض الحرب لتحرير الأرض وإزالة العار.. أو .. فليغرب عن وجه مصر!!

وياللمنظر الذي لايمحى أبدا من الذاكرة، والذي ألهم الشاعر أمل دنقل عنوان قصيدته التاريخية: الكعكة الحجرية.. إذ كان منظر الأولاد المحتشدين حول النُصب التذكاري، جالسين أو واقفين.. يهتفون.. يخطبون.. يلقون قصائد الغضب.. ناهضين كالشموع..دوائر دوائر.. وطبقة بعد طبقة مثلما في كعكة عيدالميلاد، أو كعكة ليلة الزفاف البهيجة.. والدموع أراها تنزل من عيني فتحية.. تخاطبهم في سرها.. متمتمة: يا حبايبي.. يا حبايبي.. يا حبايبي.. ربنا يخليكوا لمصر.

ويغرورق قلبي بالسعادة.. أتمتم لها ولنفسي: هذا هو جيل عبدالناصر.. جيل الثورة الذي شب ونما في ظل تفجراتها وتربى على

الكبرياء واحترام النفس.. جيل الحرية والاستقلال والتأميم.. الجيل المتشبه بقائده.. والذى لم يره يوماً يصبر على ذل أو مهانة!!

ست سنوات الآن وشباب مصر الذين يكونون جيش الانتقام عائشين ليل نهار فى الرمال، على الحدود، ينتظرون الإشارة.. ولا إشارة.. والغضب يتراكم ويتراكم ولاانفجار ولاحتى تنفيس لهذا الغضب!!

فى تلك الظروف بالغة الصعوبة والحساسية، وجدتنى منطلقًا بالطائرة إلى برلين عاصمة المانيا الشرقية فى منحة دراسية من نقابة الصحفيين لمدة سبعة أشهر.. خليطاً من الإحساس بالذنب لابتعادى عن الوطن فى مثل هذا الوقت، والإحساس بالفرح لإحتياجى إلى ثمة حدث جديد ينشط جريان الدماء فى العروق، ويعين على الاستمرار فى الحياة حتى تنجاب الغمة.

تلك الرحلة فى حد ذاتها تستحق سفراً خاصاً بها.. لكن صفحة منها تستحق الآن وقفة خاصة.. حين أبلغنى ـ الألمان ـ أنهم سيقيمون احتفالاً بذكرى ثورة ٢٣ يوليو، فانفجر الجرح بداخلى وقلت: إن الاحتفال الحق بها لايصح إلا بعد أن يتم تحرير سيناء وتطهيرها من رجس أقدام المحتلين.

وصفحة أخرى.. فى إحدى المحاضرات، وقد استعان المحاضر الألمانى بعرض خريطة لمصر.. وإذا بمصر.. بلا سيناء.. بحجة أنها الآن فى حوزة إسرائيل.. وانتفضت صارخًا محتجًا: لابد أن تدخل سيناء فى الخريطة، هذا تواطؤ وتعاطف مع المحتل الإسرائيلى.

وأسرعوا بالاعتذار معلنين إنهم أبداً لايقصدون!

وكأنما كنت بغضبى هذا أبشر باقتراب عودة الروح، فما كادت تمضى أسابيع بعد عودتى إلى مصر، حتى تحققت المعجزة الكبرى.. معجزة العبور واكتساح حصن بارليف، وارتفاع العلم المصرى مرفرفاً فوق أرض سيناء!! وقد حدث ذلك على نحو بدا أول الأمر كأنه حلم يقظة.. وأنا جالس وحدى فى البيت، فالأولاد وفتحية فى الخارج، أقتل الوقت بمشاهدة التليفزيون، وإذا بالإرسال يقطع فجأة.. ليدخل مذيع آخر ويعلن الخبر الخارق: سيداتى سادتى.. جاءنا الآن من القيادة العليا للقوات المسلحة البيان التالى: بيان رقم «١»

ولا أذكر الآن بالطبع نص البيان، وإنما المضمون والمحتوى: لقد نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس واجتياز حصن بارليف ومطاردة قوات العدو وأسر بعض أفراده.. كل ذلك فى حماية غطاء جوى قام بقصف العديد من قواعده الاستراتيجية.

معقول؟!.. وهل يمكن العبث فى موضوع كهذا.. وفى جهاز يخاطب الملايين فى المدن والقرى، حيث لاتوجد أسرة إلا واحد أبنائها على الأقل مجند فى هذه القوات المسلحة.. منذ ١٩٦٧، والآن نحن فى ١٩٧٣ .. ست سنوات والأبناء والإخوة والآباء والأزواج مغروسون فى الرمال فى انتظار هذه اللحظة.. فهل حقًا حدثت؟! أجل.. لابد أن تكون حدثت!! واذكر إننا كنا أول الليل.. هبطت إلى الشارع أتمشى واجمًا فى الظلام.. ما الدليل على صدق هذا الذى رأيت وسمعت؟!.. مضيت وأسترجعت المنظر الوحيد الذى عرض على شاشة التليفزيون

ليؤكدوا به صحة نبأ العبور: أحد جنود الصاعقة يغرس العلم المصرى فوق هضبة رملية عالية.. لكن الحركة والمنظر العام يخلوان من تلك الدلالة الجياشة والمفترضة لمثل هذا الحدث الهائل.. أين القصف والضرب، أين دوى الانفجارات، أين المواجهات والصدامات.. أين؟!

ـ ما الحقيقة يا ناس؟!

وهل شنوا الحرب من ورائنا.. دون علمنا؟! وما أغربه من إحساس ذلك الذى أنتابنى رحط علىّ بنوع من الكآبة، وكنت أقول لنفسى: ما نحن فى هذا البلد إلا متفرجون!! فى الهزيمة أو فى النصر.. متفرجون!!

غير أن ذلك الشعور الرمادى الكئيب سرعان ما انقضى وتطاير مثلما يتطاير ضباب الصباح من فوق الطريق.. وإذا بالحقيقة واضحة جلية تعلنها وتكررها كل وكالات الأنباء العالمية.. نجح الفلاح المصرى الماكر «السادات»؛ هو ورجاله فى التمويه وإخفاء لحظة الهجوم.. ذلك الهجوم الذى حمل فى أحشائه كل غيظ وتعاسة ومهانة الضربة الخاطفة التى أحنت رؤوسنا على مدى ست سنوات.. وبكل ذلك الغيظ والإحساس بالتعاسة والمهانة والإصرار على استرداد الكبرياء انطلقوا.. عبروا.. جواً وبحراً وبراً.. موجات صاعقة مكهربة الروح، ودمروا الحصن الخرافى المسمى خط بارليف.. وفى ساعات خاطفة.. تم تحطيم الأسطورة، وأزيلت من على الجبين لطخات العار!!.. مثلما

كانت الهزيمة صاعقة، جاء النصر ايضاً صاعقاً.. وكان لابد أن يكون بتخطيط حذر عظيم!!

هى أيام، ورأيت السادات على شاشة التليفزيون، داخلاً قاعة مجلس الشعب، مرتدياً حلة القائد العسكرى المنتصر.. وأهتز قلبى.. فما أكثر ماتمنيت فى أعقاب فاجعة موت عبدالناصر، أن يحقق هذا الرجل الذى تسلم الحكم محملاً باثقل وأبشع تركة، هى تركة الهزيمة.. تمنيت لو تتحقق به الأسطورة المصرية القديمة الخالدة.. أسطورة «حورس المنتقم لأبيه»!!

وجرى قلمى على الورق وكتبت مقالاً بهذا المعنى، وأعطيته عنواناً: «حورس ينتقم لأبيه».. وأريت المقال كعادتى لفتحية لتقرأه قبل تسليمه للمجلة، وإذا بملامحها تنقلب وتعيد لى الموضوع بحركة غاضبة رافضة:

ـ أسفة.. مش موافقة.

ـ مش موافقة على إيه بالضبط؟!

ـ على الموضوع كله».. معقول ياعبدالله.. أنت تكتب الكلام ده؟!

ـ كلام إيه؟! هو مش حصل عبور فعلاً.. وبشهادة العالم كله؟!

ـ ما اعرفش.. انا باتبع إحساسي.. اللى حاصل ده شيء مشكوك فيه!!

ـ مشكوك فيه إزاى؟!

ـ (وينوتر)عبدالله.. أرجوك.. أنا مش حاتناقش فى الموضوع ده دلوقت.. لكن من باب الأمانة.. بأقولها لك .. ماتستعجلش فى نشر الكلام ده!!

ولأننى أثق بصدق إحساسها فيما يتعلق بكتاباتى طوال تاريخنا معاً، فقد داخلنى التردد فى تسليم الموضوع للنشر، مؤثراً التروى والتأجيل.. لاسيما وأنى كنت من الأصل، بينى وبين نفسى، متخوفًا من أن يكون حماسى الزائد قد دفعنى إلى المبالغة فى كيل المدح لشخص السادات وإعطائه تلك الهالة الأسطورية حين شبهته بحورس العظيم المنتقم لأبيه، بينما حين كتبت أمجد عبدالناصر فى رحلة النهر، لم أذكر اسمه صراحة.. معتمداً على فطنة القارئ.. خوفاً من الاتهام بالنفاق!!

فلأنتظر .. ونشر الموضوع أو تأجيله لن يغير من حقيقة الحرب والعبور شيئًا.. والقضية بالفعل تحتاج إلى كثير من التروى والتدبر، والكتابة فيها لابد أن تكون على مستوى المسئولية الأخلاقية والتاريخية!!.. وإذا بى تلقائيًا أستعيد تطورات مشاعرى مع هذا الرجل.. السادات.. منذ أن خلف عبدالناصر فى الحكم: فى البدء استبشار وأمل ولسان حاله وكلامه يقول بأنه سائر على طريق عبدالناصر.. ثم إذا بنظامه يشن حملة إعلامية واسعة ومنظمة على عصر عبدالناصر وحكمه الشمولى الاشتراكى الاستبدادى القائم على قطع الألسنة وتعذيب المعارضين إلى حد القتل والنفى إلى ماوراء الشمس!! وبات هذا الاتجاه هو الخط الأمثل فى دنيا الفكر والإعلام لكل

من يريد أن يعلو ويصل إلى الكرسى.. أى كرسى!!.. الأمر الذى أوحى بتلك النكتة الساخرة التى انطلقت وشاعت: أن السادات يمشى بالفعل على طريق عبدالناصر.. ولكن .. بأستيكة (ممحاة)!!

ومثلما انقلب نظامه على عبدالناصر بكل هذه السرعة، انقلب أيضا على «السوفييت»، وعلى نحو جارح ومهين.. السوفييت الذين سمعته بإذنى فى المرة الوحيدة التى دعيت فيها إلى اجتماع إعلامى موسع معه فى قصر عابدين.. سمعته وهو يصفهم بالأصدقاء المخلصين حقاً.. فهم لم يساعدونا (ساخراً) ببضع سلع وبضائع استهلاكية، بل أقاموا لنا قاعدة للصناعات الثقيلة، وبنوا السد العالى، وزودونا بالسلاح، وأقاموا على حدودنا الشرقية أيام حرب الاستنزاف حائطاً هائلاً ضد الصواريخ .. وفى موت الحبيب جاءونا بالصينية (على حد تعبيره الإنسانى والريفى الرائع) ليشاركونا فى المحنة.. والأحزان.. ثم.. وفجاة.. إذا به يفتعل معهم الخلاف، ويصورهم فى أسوأ صورة كى يبرر للقرار الخطير الذى اتخذه: طرد جميع الخبراء السوفييت بعائلاتهم من مصر وعلى نحو بالغ الإهانة!!

ورغم فظاعة القرار ولا اخلاقيته، لم ألبث أن وجدتنى، مع توالى انتصارات العبور، ألتمس له تبريراً!! أجل - قلت لنفسى - كان لابد أن يخرج السوفييت تماماً من الصورة، حتى إذا ما تم العبور، كان النصر معقوداً للمصريين.. ولا أحد غير المصريين.. بهذا فقط، يمسح العار من على الجبين.. وتستعيد الروح المصرية كرامتها!

إلا أننى كنت اتساءل: ألم تكن هناك صورة أخرى لخروج السوفييت من مصر في هذه الفترة بشكل أكرم وأرقى إنسانياً من هذا؟!

وسرعان ما جاءنى الجواب: بل إن هذه الصورة الجارحة المهينة كانت هى المقصودة بشكلها ذاك.. مغازلة للأمريكان.. كى يتركوه يوجه ضربته المباغتة وفى حدود!!.. وكى لاينسب للسوفييت - فى حالة الانتصار - أنهم وأسلحتهم أبطال النصر الحقيقيون!

أياً ما كان التفسير، ومهما كانت الخلفيات الخفية، فلن تنطفئ فرحتى بما حدث.. انزاح الحجر الثقيل الراسخ على القلب.. مسحت دوائر العار من على الجبين.. خفت حركة الروح وانتهى تمامًا الإحساس بالخجل من الذات. وها هى جملة توفيق الحكيم الشهيرة التى قالها عقب الليلة الأولى للعبور: «عبرنا الهزيمة».. تسرى وتتردد على الألسنة فى كل مكان، مؤكدة فرحة الوطن. وأخذت أنباء الانتصارات تتوالى بعد ذلك على نحو لم يعد معه ذرّة واحدة من الشك.. وها هى الجرائد والمجلات ونشرات الأخبار بالتليفزيون تعرض صوراً لمجموعات المجموعات من جنود العدوّ.. أسرى منزوعى السلاح جالسين على الرمال مطأطئى الرؤوس..

«بوركت يا جيش الانتقام.. وما أجملها «وردة» وهى تغنى مغرّدة للنصر: وأنا على الربابة باغنى وأقول.. تعيشى يا مصر.. تعيشى يا مصر». وكذلك «عبدالحليم» الذى هدّته أحزان الهزيمة وموت الحبيب، عاد يجلجل بكل اشتياقات المجد القديمة، فرحاناً بالنصر، مبشرا ومهنئاً

الوطن والمواطنين: «لفّى البلاد ياصبية بلد بلد.. هنّى الولاد ياصبية ولد ولد.. ده المهر غالى والعريس ابن البلد..»

أجل يا حليم.. وأولاد البلد من الجنود والضباط هم عرسان هذه الملحمة وأبطالها الحقيقيون.. وإن كل واحد منهم هو «حورس المنتقم لأبيه».. وحرام إذن أن نسلبهم هذا الحق تحت أى شعار أو تحليل سياسى!!.. ومثلما عايرناهم يومًا بالهزيمة، علينا اليوم إن كنا موضوعيين وإنسانيين حقًا، أن نعترف لهم بالمجد وبالنصر العظيم الذى حققوه واستشهد الآلاف من أجله!

ورأيت أن ذلك المقال الذى كتبته متدفقاً بالحماس عشية النصر، ثم أجلت نشره بتأثير فتحية، رأيت أنه كان فى الاتجاه الصحيح، لكنه بات أقل بكثير من مستوى الموقف.. وأن القضية تحتاج منى ككاتب إلى شيء أخر أكبر وأكثر شمولية وعمقاً: عمل فني كبير. رواية أو مسرحية افجر من خلالها رؤيتى ومعتقداتى فى هذه القضية الخطيرة والمصيرية. قضية الحرب والسلام بيننا وبين إسرائيل، والتى أصبحت تأخذ شكلا عنصرياً ودينياً وهى فى الحقيقة أخطر من هذا ، فما الدين فيها إلا قناعاً يخفى تحته الوجه الأخطر والأبشع لحقيقة الصراع وأبعاده الجوفية الحقيقية .. السياسية والنفسية والتاريخية!.. أجل .. وليست هذه هى أول مرة يلحّ علىّ فيها هذا الموضوع.. مازلت اذكر.. أيام حرب ١٩٥٦ ، ومواجهة العدوان الثلاثى، حين كتبت قصة «الحفرة» على أصداء المقاومة الشعبية الباسلة للاحتلال الإنجليزى لمدينة بور سعيد، وكان بطلاها جنديين مصابين داخل حفرة.. أحدهما إنجليزى أحمر،

والثانى أسود «موريشيان».. أى مأجور مرتزق. وإذ يجدان نفسيهما فجأة داخل حفرة يحتميان بها من طلقات رصاص المقاومة الشعبية، تتبدى الحفرة لهما كملاذ أمان، وأحياناً كمقبرة ربما تضم رفاتهما. ويتلاصقان إلى حد الاحتضان.. يوحدهما الخوف المشترك، والمأساة الواحدة المشتركة، ويتبينان معاً: الجندى الرسمى، والجندى المرتزق، إنهما الاثنان ضحية للسادة المستعمرين.. هؤلاء الغيلان الكبار القابعون فى «وول ستريت» حىّ المال الشهير بلندن.. حيث يديرون المعارك من بعيد ويدبرون المؤامرات، ويخططون لإشعال مزيد من الحرائق!

وقد استمرت الفكرة تصاحبنى فى الخفاء حتى قامت حرب ٦٧، فإذا بها تعاودنى وبإلحاح إثر صرخة طفلتى صفاء وهى تسألنى فى فزع، مروعة بهدير الطائرات الإسرائيلية التى تخترق مجالنا الجوى بسرعة الصوت: إيه ده يا بابا.. إيه ده يا بابا؟!

وإذا بى أجدنى أوجه هذا السؤال لنفسى: أجل.. ما هذا؟! ما هذا أيها الناس.. ويا أيها المصريون.. ويا أيها الإسرائيليون أيضاً؟! إلى متى ستستمر هذه المأساة؟! هذا النزيف الجارى على مدى ثلاثين عاماً.. وفى كل عشر سنوات لابد من إشعال حرب تخطط لها إسرائيل بذكاء وخبث شديدين، وننجر نحن إليها، رغماً عنا، كالممغنطين، لتلحق بنا الهزيمة فى النهاية.. والمجد لإسرائيل!

إسرائيل.. يا إسرائيل.. الآن وبعد كل التجارب المريرة التى مررنا بها، حدث تغير جذرى.. انكشفت تماماً مخططاتك، فلا تغترى.. فما

أنت فى الحقيقة إلا مسخاً مهجّناً لاملامح له ولاحجم ولاحدود!.. أجل، أنت كيان مراوغ قام ولايزال قائمًا على الخطف والقنص والتبجح بالتلويح بالقنبلة الذرية، رغم أنك بعدة صواريخ أرض.. أرض، يمكن إبادتك من الوجود فى ظرف دقائق قليلة!.. لكن هذا التوحش ليس من طبيعتنا.. فكيف إذن التعامل معك، وأنت لاتزالين مصرة على أننا قوم عنصريون معادون للسامية - انتماؤكم التاريخى - مع أن هذا الاتهام فى حد ذاته هو الدليل على عنصريتكم .. فما حكاية السامية هذه، وما هذه النغمة الداعية لتمجيدها - السامية - باعتبارها الاصل الأعظم والأرقى للإنسانية كلها!!

ليس غريباً إذن أن شمشون «التوراتى» حين غضب هدم المعبد على رأسه ورؤوس قومه!! وليس غريبًا أبداً أن يكون هذا هو مصيرك يا إسرائيل إن أنت ظللت على ذلك التصور والتقوقع فى ذلك الجيتو القائم على وهم تفرد الجنس اليهودى وتميزه وبطولته!

ها هو هذا الوهم يتبدد ويتطاير، ولتقرأوا وتتمعنوا فى دلالة ذلك الحديث الذى أدلى به قائد القوات الجوية المصرية.. آنذاك.. اللواء حسنى مبارك الذى اختاره جمال عبدالناصر لهذا المنصب.. يفسر للعالم انتصارات أكتوبر الكاسحة: من ٣٠ يوليو إلى ٩ أغسطس أسقطنا ١٦ طائرة إسرائيلية. وبشهادة المجلات الأمريكية صارت الطائرات الإسرائيلية تتساقط بفعل صواريخنا بالعشرات، حتى أن رئيستهم «جولدا مائير» قالت والتشاؤم يغمرها: «إن كتائب الصواريخ المصرية أصبحت

كعش الغراب - كلما دمّرنا أحدها، نبت آخر بدلا منه!!»، «كذلك أشار إلى تعليق وتحذير أبا إيبان، عضو الكنيست، ووزير خارجيتهم السابق: «إن الطيران الإسرائيلى آخذ فى التآكل».

انكشفت الحقيقة يا إسرائيل وعليكم الاعتراف بها.. كما تكشفت للكثيرين من مراسلى الصحف العالمية حين قالوا ذلك التعبير الحاسم : إن إسرائيل كانت أكبر من خدعت نفسها.. وأنها ضحية الأسطورة التى خلقتها.. أن قوتها لا رادع لها.. وأن العرب لن يحاربوا !!

فهل آن الأوان لكى تفيق من أوهامها.. هل تقنع بحدود ما قبل ٦٧، وتقبل بالتعايش، أم أن طبيعة تركيبتها القائمة على الخوف وعلى الطمع سيظلان ملازمين لها.. وفى النهاية سيكون انفجارها من داخلها .. ولو بعد حين؟!

كل هذا وأكثر أتوق لأن أصبه فى عمل فنى.. ورواية بالتحديد.. وإذا بإلهامات الخلق الفنى تبرق وتضئ، وتراءى لى المكان الذى ستقع فيه أحداث الرواية: جوف أحد الخنادق المضروبة بخط بارليف، حيث نرى بطلى الرواية.. المصرى المسلم، واليهودى الإسرائيلى.. والاثنان مطروحان على الأرض فى غيبوبة بين الانقاض.. ثم شيئاً فشيئاً يعود كل منهما إلى وعيه، وسرعان ما تبدأ فى التكشف واحدة من أخطر الدرامات الإنسانية.. حين يحدث ويتواجه العدوآن اللدودان وهما فى لحظة عجز.. يواجهان معًا الموت عطشًا.. وجوعًا.. ويقودهما الألم الواحد والمأساة الواحدة لاكتشاف الحقيقة التى تكمن وراء إشعال هذه

الحرب المسمومة والمنتهكة للإنسانية على الجانبين.. المسلم واليهودى على السواء!

وتملكنى نوع من اليقين، بأنى بهذه الرؤية، عثرت على كنز فنى وفكرى عظيم، وما علىّ إلا أن أتحلى بشيم المغامرين الشجعان العظام، فأتمسك بها ولا أتخلى لحظة عنها مهما واجهنى من معارك واتهامات.

آه.. وما أعظم أن أرى وأعاين على الطبيعة ذلك المكان الذى ستدور فيه أحداث الرواية ويتحرك أبطالها: خط بارليف.. أن اقوم بزيارة له .

وإذا برعشة حماس ونشوة تتملكنى، ممتلئاً بالإحساس بجمال اليقين، وأنى أسير على الطريق الصحيح، وإذا بى، بفعل الإلهام،أدير رقم التليفون.. وإذا بمن تتمناه نفسى فى هذه اللحظة هو الذى يرد علىّ.

ـ عبدالوهاب؟!

ـ أهلاً عبدالله..

ـ عظيم جداً أنى لقيتك فى اللحظة دى بالذات .. يه رأيك.. جتلى فكرة قلت الوحيد اللى ممكن يشاركنى فيها هو عبدالوهاب داود.

ـ اللى هى؟

وماكدت أعرضها عليه، حتى شع صوته بالفرح، فرحة العطشان بالماء، وهو الريفى المغامر الذى كان يومًا ضابطاً بسلاح الطيران، ثم

تقاعد لكى يتفرغ للكتابة الأدبية، وأنجز عدة مجموعات قصصية، وكذلك عدة روايات منها واحدة عن حرب ٥٦، وأخرى عن حرب ٦٧.. وياللسعادة التى غمرتنى وهو يقول لى: كانك بتقرا افكارى.. كان نفسى فعلاً فى حاجة زى كده.. أنا مستعد أقوم معاك دلوقت.. اللحظة دى.. نطلع بعربيتى على السويس وندخل عن طريق بورتوفيق.. من سكة معينة أنا أعرفها.

ورفرف قلبى تفاؤلاً.. وطرباً.

ولا يزال عبق اللحظة وخطوطها العامة ماثلة ومحفورة فى القلب، رغم مرور أكثر من عشرين عاماً عليها، ونحن نخطو الخطوات الأولى على رمال سيناء التى تحررت بالفعل، وهاهى الصحراء بكل اتساعاتها المترامية تسبح فى جلال الهدوء والصمت، والتقطت عيناى على البعد دبابتين مضروبتين.. وتذكرت جملة لنيتشه: «ويل لمن يتحدى الصحراء».. وقلتها لعبدالوهاب، فهز رأسه مؤكداً: «كنت واثقًا إنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى السيطرة عليها».. ونظرنا أسفل اقدامنا.. وفى حركة واحدة انحنينا.. سجدنا.. ملأ كل منا كفيه بالرمل وقبله ثم ضمه إلى صدره: الآن فقط آمنت بإننا قد تحررنا بالفعل. وعاودتنى رعشة ونشوة الخلق الفنى.

ـ عارف يا عبدالوهاب أنا عايز إيه دلوقت؟!.. أقوم بجولة داخل خط بارليف.

أمسك بذراعى، مشيراً على فتحة قريبة مستديرة وقال: هذا مدخل أحد الخنادق.. هيا نأخذ نظرة منه!

احسست بقشعريرة خوف تسرى فى جسدى.. ربما.. ربما ماذا؟! أطرح عنك يا عبدالله أية مخاوف.. وأن الخطر دائماً هو باب الخلق الفنى العظيم!!.. وبينما كنت أمد قدمى لأدخل الفتحة وأستكشف المكان، كنت فى نفس الوقت أخطو خطوتى الأولى فى بناء الرواية.. تلك التى جاءنى عنوانها بعد ذلك وأنا عاكف على كتابتها: «فجر الزمن القادم» .. رامزاً بالفجر إلى عصر السلام المرتقب.. وكم أن هذا الفجر.. لا يزال بعيداً بعيداً.. دونه معارك وأهوال.. ليس على المستوى العام وحده، بل وأيضاً على المستوى الشخصى.. بينى وبين قدرى.. فتحية !!

٢٠

الطـــوفان ..
والغاب النوحى..!

هاهى العاصفة تقترب.. بينما أنا معتصم بمكتبى.. ممتلئًا، رغم استشعارى الخطر المحدق، بنشوة وسعادة الخلق الفنى، وأنا أرى الرواية، من فرط حماسى وإيمانى بموضوعها، تسيل وتتدفق منى على الورق، فصلاً بعد فصل، مانحة إياى قوة معنوية ضاربة فى مواجهة هذه التغيرات التى أخذت ألحظها على فتحية.. فقد أصبح البيت مسرحًا للرفاق الجدد الذين انضمت إليهم، وأدركت فيما بعد أنهم يكونون تنظيمًا سريًا جديدًا يجىء للانتقام من جريمة حل الحزب الشيوعى المصرى، ولرفع راية الكفاح الشيوعى الحق من جديد!!

كنت أبتسم بينى وبين نفسى، بسمة الرثاء لحالى: أنا الذى فتحت القمقم فانطلقت منه بقوة دفع القهر الماضى.. وما عاد فى الإمكان إعادتها إليه مرة أخرى!.. أنا الذى كتبت لها وأنا أهديها مسرحيتى «طيور الحب»: إلى طائر حبى الطليق، من أجل أجنحة أقوى، وانطلاقات أوسع وأرحب، كى تصبح حياتنا معًا، أنشودة تتغنى بها الأجيال من بعدنا!!.. أجل.. لست أبدًا بنادم.. وإن من الممكن الآن أن تنتهى قصتنا عند هذا الحد.. وحينذاك لا جناح علىّ.. بل وسأبقى من فرسان الحرية.

- أية فروسية يا هذا؟! بل الحقيقة أنك لم تدرك بعد معنى الحرية، ولم تقدر جيداً حساباتها!!.. لقد اطلقتها حرة كى يخطفها آخرون.. ومهما حسنت نواياهم، فهم ، كما رأيتهم، لا يزالون دون مستوى النضج بكثير، ولقد أدركت بتجربتك الحافلة من قبل أن سر مأساة الكفاح فى هذه المنطقة، أن معظم القائمين بأمر قيادته هم أقل من مستوى النضج المطلوب لتحقيق المهمة التاريخية!!

ولهذا لو استمرت معهم فتحية فالمصير غالباً معتم وخطير.. ما العمل؟! لا أمل إلا فى يقظتها هى.. إدراكها وانتباهها هى.. بالوعى الذي اكتسبناه معاً.. على الأقل تحمى نفسها.. وما أكثر ماناضلت من أجل إقناعها بأن تكتفى بكونها كاتبة حققت الكثير، ومايزال أمامها الأكثر.. والذى لن تستطيع تحقيقه إلا إذا اعطت نفسها تماماً للكتابة.. وإلا إذا تخلت عن تلك النظرة الأحادية التى يلتزم بها لابد كل عضو فى تنظيم!!

إلا أن طبيعتها المتأججة حباً ورغبة فى الخروج والانتشار والاندماج فى قلب الناس كانت هى الغالبة.. لسان حالها يقول لى: عبثاً تحاول، بل إننى لا أفعل ما أفعل إلا من أجل الكتابة.. الناس وحياتهم والتصدى لمشاكلهم كل هذا هو الذى يشحننى بالكتابة!!.. اما حكاية النظرة الأحادية، فلم يخلق بعد من يفرض علىّ فكرة أو خطوة أنا لست مقتنعة بها!!

ـ آه.. لعل وعسى!!

غير أنى، وأنا مستغرق فى كتابة الرواية، كنت أحس بالغبن الواقع علىّ.. ذلك أن عنصر القلق صار يظلل حياتى، فقد أصبحت حركتها، سواء داخل البيت أو خارجه مغلفة بالغموض.. لا أعرف إذا خرجت إلى أين ستذهب، وإن عادت، فمع اصحابها وصاحباتها.. لا أدرى ماذا يقولون ولا لماذا يضجون بالضحكات!! وداخلنى الشعور بأنى اصبحتُ غريباً فى بيتى!

ثم إذا بى فى إحدى الفترات انتبه لملحوظة غريبة: إن معظم من تصاحبهن وتدعوهن إلى بيتنا: مطلقات!! امتلأت نفسى بالتشام، وعبرت لها عن ضيقى ومخاوفى فى إحدى لحظات الصدام والغضب فقلتها صراحة: أنت مش ملاحظة أن معظم صديقاتك مطلقات!!

ـ قصدك إيه؟!

ـ قصدى أنت عارفاه!!

وانفجرت: أيوه.. فعلاً عارفاه.. من غير ما تقول عارفاه.. وهى دى النقطة اللى أصبحت واقفة بينى وبينك.. إنك مش قادر تتخلص من نظرتك الأولى لى.. أنى مازلت البنت الصغيرة اللى لسه بتعلمها وتربيها.. وإنى لو بعدت عنك لحظة، حاضيع ويخطفونى منك الديابة.. حرام عليك يا عبدالله.. حرام.. كفاية.. أنا خلاص.. عايزة أطلع من هدومى.. عايزة أطلع من حياتى.

وإذ انهمرت من عينيها الدموع، أخذتها فى أحضانى، وقد أستبد بى التشاؤم على نحو لم يحدث من قبل!

وهكذا كلما كانت مدمات العاصفة تزداد اقترابا، اندفعنا إلى بعضنا برد فعل الخوف على حبنا.. ويدخل كل منا فى الآخر إلى حد الرغبة فى التلاشى والذوبان بالكامل!!

إلى أن وقع الحادث الأكبر والذى كان نقطة تحول، لا فى حياتنا نحن الاثنين، بل فى حياة المنطقة كلها، منطقة الشرق الأوسط، بل وفى العالم كله!! وذلك حين وقف «أنور السادات» فى مجلس الشعب والقى بمفاجأته الكبرى.. أنه، من موقع النصر والثقة بالنفس، يعلن استعداده لزيارة القدس، وعقد معاهدة سلام، ولكن - إذا أرادت إسرائيل - لتكن حرب أكتوبر هى آخر الحروب.. وتجفف الشعوب جراحها وتعمر خراباتها.. ونبدأ عصراً جديداً!!

هنا اشتعل الحريق.. على كل المستويات.. الشخصى والعام.. فقد انقسمت مصر إلى قسمين: فريق ضد.. وفريق مع!!.. وأذكر جيداً أنى أستقبلت إعلان المبادرة هذه بإعجاب باهر وشديد.. وأنها خطوة تاريخية وشجاعة ما يمكن لأحد فى تلك الفترة أن يفعلها إلا رجل فى مثل طبيعة السادات، مغامر.. و«مستغنى عن روحه».. وتصورت عبدالناصر فى مرقده يبتسم راضياً عن ذلك الإعلان.. أملاً فى وقف النزيف.. لعل وعسى - ونواصل مسيرة الإعمار والتقدم كما كان يحلم ويتمنى لمصر والشعب المصرى والشعوب المستعمرة كلها!!

أما الفريق الآخر.. فريق الضد يتكون معظمه من أحزاب المعارضة التى سمح السادات من قبل بتكوينها، وإن تفاوتت فى درجة

الاعتراض، لكن حزب التجمع التقدمي الوحدوي كان أكثرها وضوحاً وعنفًا في الاعتراض، إلى حد إعلانه الحرب على هذه الخطوة التي اعتبرها أكبر خيانة للقضية العربية حدثت في التاريخ الحديث، وحيذاك انضمت إليه فتحية، وعلى نحو رسمي، هي التي كانت ترفض الدخول فيه أول تكوينه باعتبار خارجاً من «كم السلطة» .. بينما كنت أنا مؤيداً وفرحاً بتكوينه كمنبر علني لليسار المصري يُعترف به رسمياً لأول مرة .. وعبرت عن ذلك كتابة في مجلة «صباح الخير» .. وإن لم أنتم إليه رسمياً، انطلاقاً من موقفي العام، عدم الاندماج في أي حزب من الأحزاب!!

أقول اشتعل الحريق، وبدا لي أن أول مكان اشتعل فيه هو بيتي .. ذلك أنه ما أن أعلن السادات مبادرته على شاشة التليفزيون ورآه وسمعه الملايين، حتى كان جرس باب بيتي يدق، وإذا باثنين من الأصدقاء الرفاق قادمين وعلى وجهيهما الفرح بالمبادرة، فتضاعف فرحي، وازداد إيماني بسلامة تفكيري السياسي، وإني أسير على الطريق الصحيح .. غير أن فتحية ماكادت تدخل علينا وتشارك في الحديث، حتى انتفضت، وكأنما لدغتها أفعى، لاتكاد تصدق هذا الذي تسمعه من الرفيقين .. وإذ حاولا تهدئتها وطرح القضية للنقاش بموضوعية وهدوء، حتى تعالت صرخاتها في وجهيهما: أية موضوعية اللي بتتكلموا عليها .. دي خيانة يا أستاذ أنت وهو .. اللي بيحصل ده خيانة .. بشعة!!

ـ يعني إحنا خونة؟!

ـ أنتوا مع مصالحكم. مش بقيتوا أصحاب مصانع.. رأسماليين.. تبقوا لازم مع التطبيع.

ـ وعبدالله جوزك .. رأسمالى؟!

ـ عبدالله جوزى رأجل فنان رومانسى.. طاير مع الأحلام

وإذا بالدماء تغلى فجأة فى رأسى.. وكفى تكاد تتحرك منى لأصفعها أو لأدفع بها خارج الحجرة.. بذلت جهداً جباراً لأتحكم فى غضبى.. أشرت لها على باب الحجرة: اتفضلى أخرجى من هنا فوراً .. عشان مش عايز أهينك.. أو.. ..

أطلت الدهشة من عينيها ممزوجة بالألم: كده؟!.. حاضر.. بس مش حاخرج من الأوضة دى بس.. أنا حاخرج من حياتك كلها!!

●●●

وضعت همى فى الرواية وقد ازداد إحساسى بأهميتها وخطورتها.. ومأأن أنتهيت منها على نحو أرضانى، حتى حملتها إلى واحد من أصدق أصدقائى فى دنيا السياسة «زكى مراد» والذى كان حينذاك فى أعلى المستويات بالحزب الشيوعى المصرى، بل وسمعت همساً أكثر من مرة أنه أصبح سكرتيره العام، وبعد أن حكيت له الموضوع: أريد رأيك فيها.. قبل أنأقدم على نشرها!! ورحب بالمهمة.. وأطمان قلبى!

لم تمض أيام قليلة حتى كان قد انتهى من قراءتها.. وياللسعادة حين وجدته موافقاً عليها وبحماس شديد.. وأضاف: اترك لى هذه الرواية .. سننشرها فى دار الثقافة الجديدة.. عند اخينا محمد الجندى!!

رفرف قلبي بالفرح.. وناجيت فتحية في سري: فلتطمئني يا فتحية.. هاهو واحد من كبار الشيوعيين الذين نثق في إخلاصهم وأمانتهم الثورية يحتضن الواية ويشرف بنفسه على نشرها.. لاتحملي هم هجوم الواغش عليّ!!

قلت لزكي : مارأيك.. إني أفكر بنشرها في مجلة «صباح الخير».. سأقدم صورة منها لصديقنا حسن فؤاد رئيس التحرير.

رحب زكي مؤيداً: لاتعارض.. بل إن نشرالرواية في مجلة أسبوعية يخدم توزيعها فيما بعد ككتاب .

وأسرعت بها لحسن فؤاد.. غير انه ما أن قرأها حتى فوجئت به يهز رأسه آسفاً ويقول بشكل قاطع: الرواية دي ماقدرش أنشرها.. رغم إني شخصياً موافق عليها.

ـ يبقى ليه.

ـ حتعمل لنا مشكل كثيرة .. فيها كثير من المحاذير.

ـ أنا متحمل المسئولية.

ـ (وبشكل حاسم.. ومنهيا الموقف كرئيس للتحرير) عبدالله.. أنا بأحميك من نفسك!!

والحقيقة إني لم أفاجأ بموقفه، بل إن الرفض كان هو توقعي الغالب. وها هو قد نطق الكلمة بنفسه: المحاذير.. تلك التي سلطت عليها الضوء.. ومضيت اناقشها بمنتهى الحرية والصراحة.. على لسان

الجنديين المتحاربين.. مفجراً كافة القضايا، على المستوى التاريخى والعرقى والدينى والنفسى.. تلك التى تربط بى الاثنين أو تحول دون لقائهما.. هذا فى الوقت الذى صارت تجرى فيه بالفعل مفاوضات وحوارات بين «أنور السادات» الرئيس المصرى المسلم، وبين عدوه اليهودى الإسرائيلى «مناحم بيجين»!!

شىء آخر رأى حسن أنه يشكل أخطر المحاذير.. أن الرواية تنتهى بمقتل الجنديين المتحاربين المصرى والإسرائيلى، بعد أن وصلا معًا، من نبع الألم المشترك إلى أروع صيغة للصداقة والسلام فيما بينهما .. قتلا.. ولنفس هذا السبب.. بيد المخابرات العسكرية الإسرائيلية ذات العقلية الصهيونية!!.. وقد يعتبر ذلك إسقاطاً على المفاوضات الجارية!!

ولم أحزن كثيراً لأن الرواية لم تنشر فى المجلة، إذ سرعان ما تلقيت مكالمة من زكى مراد يهنئنى بالرواية، وقد أصبحت مطبوعة فى كتاب.. وأنه فى انتظارى بمكتب صديقنا محمد الجندى لكى أرى أول نسخة أخرجتها المطبعة!!

ولن أنسى طيلة حياتى جملته الفياضة بالحب وبالوعى، والتى اضاءت العالم من حولى، وهو يرفع النسخة المطبوعة بذراعه الطويلة السمراء ويقول.. معتزاً: هذا سلامنا.. وذاك سلامهم.

وأخذته بالأحضان.

غير أن فرحتى بالرواية لم تطل، فما كادت تأخذ طريقها إلى التوزيع فى الأسواق والمكتبات، حتى تجدد الخلاف عليها بينى وبين

فتحية.. كان أمراً مؤسفاً ومثيراً للكآبة أن يصدر لى كتاب جديد ولاتقيم له كعادتها احتفالاً تجمع فيه الأصدقاء.. الآن.. هى تود لو تخسف بهذا الكتاب وتعدمه لو استطاعت من الوجود!!

وقلت لها ـ مستفزاً ـ فى إحدى اللحظات: لكنك يا فتحية قبلتينى ذات مرة وأنا جالس إلى مكتبى.. وبحماس شديد بعد أن قرأت عليك إحدى صفحات هذه الرواية!!

قالت وهى تدق الأرض بعصبية: قلت لك عشرين مرة أنا مش ضد الأفكار اللى فى الرواية.. أنا ضد توقيت نشرها ونزولها السوق!! الناس مستغربين.. عبدالله الطوخى.. بكل تاريخه.. يقف ورا السادات.. ويناصر المفاوضة مع الصهاينة؟!

واستل من أعماق صدرى الذى أصبح يضيق بالمناقشات، نفساً عميقاً طويلاً.. متجملاً بالصبر، متحملاً مايمكن اعتباره إهانات.

أنا الحقيقة عندى مالهاش توقيت.. واللى يعرف الحقيقة ويخبيها لحظة واحدة، يبقى جبان.. وخاين لنفسه وللحياة!!

وبالطبع لانصل إلى أى نوع من التلاقى فى النقاش، فيؤثر كلانا الصمت.. تملؤنا المرارة الداخلية.. حسرة على تلك الوحدة الرائعة الكاملة التى كانت بيننا ذات يوم فى المشاعر والتصورات وحتى أبسط الخلجات!!

ورانت على البيت أشباح الصمت والتباعد الكئيبة والأليمة، وبات كلٌ منا يهرب من عينى الآخر.. وشيئاً فشيئاً أصبح تلاقينا نادراً.

شجع على هذا أنني كنت قد غامرت واستأجرت الشقة الملاصقة لشقتنا، وفتحت في الجدار المشترك باباً وسطاً بين الشقتين يمكن في أي وقت غلقه.. الأمر الذي أعطى لكلينا الفرصة للتباعد والاستوحاد دون إعلان صريح بذلك!!

كانت الأحداث العامة تجرى سراعًا على نحو جعل دمدمات العاصفة تعلو وتقترب حثيثاً لتطيح بكل بقايا ذلك التصالح والاستقرار الذى جاهدنا لاستبقائه!!

ازدادت المعركة التهاباً وضراوة بين السادات، وبين قوى المعارضة على المستويين المصرى والعربى!!

ومن ركنى، مع كتابى الجديد الملعون، رحت أرقب المعركة!! هاقد وجد السادات لنفسه بعد نصر أكتوبر دوراً يخرجه من عباءة عبدالناصر ليصبح بطلاً مستقلاً.. حاكمًا بأمره.. فرعوناً مصرياً.. مزهوا بكل عظمة تاريخية، وأبهته وخطورته.. حالماً بصوت مسموع أن يكون هو بعد عصر المذابح و«الهولوكوست».. صاحب أعظم رسالة: نشر السلام والتآخى بين كل الأديان فى ربوع المنطقة!!.. وتذكرت ـ تلقائيًا ـ «إخناتون» المصرى الذى طلع على العالم بديانة جديدة، وحدة المعبود الذى لا أحد غيره يضئ الوجود، وظل يكافح من أجلها حتى الاستشهاد.. وبهذا وضع أسمه، رغم كل أعدائه وراغبى محو اسمه من الوجود، فى قائمة الخلود!!

وبقدر ما أشتط بى الخيال فى تصورى لدور السادات، أشتط أيضًا أعداؤه فى تصورهم لخيانته ودوره التاريخى القذر الملعون.. وماجت

شوارع البلاد العربية كلها بالمظاهرات تدينه وتلعنه وتصوره فى شكل ابن الجارية الأسود الذى - بسبب - عقدة اللون هذه - خان وطنه وأمته العربية كلها!! وفى مصر.. بعد أن ضاق هو بهجوم أحزاب المعارضة عليه وعلى سياسته.. خاصة حزب التجمع اليسارى، أعلن حلها جميعاً عقاباً لها.. واشتعلت المعركة أكثر وأكثر.. وأصبحت «فتحية» هى إحدى بطلات الحرب ضد معاهدة كامب ديڤيد.. على المستوى العربى أكثر منه على المستوى المصرى.

أما أنا.. فمازلت باقياً فى ركنى، مع روايتى المحرمة.. وإذا خرجت لمناسبة ما، أو لأتنفس هواء الشارع فالقلق يصحبنى من أن يقابلنى أحد الغاضبين أو إحدى الغاضبات من الرواية!! والتقيت صدفة ذات يوم بميدان سليمان باشا بأحد القادة العماليين النقابيين والمنتمين إلى حزب التجمع، وكانت بيننا مودة كبيرة، وإذا به أول مارآنى يقول لى معاتباً بشدة: إيه يا أستاذ عبدالله الرواية اللى أنت كاتبها دى؟!

قلت له منتويا مناقشته على مهل: أولاً.. هل أنت قريتها؟!

وإذا به يقول: لا.. لكن سمعت عنها من بعض أصدقاء.. أثق فى رأيهم!!

ـ كده؟! طيب عن إذنك.

ومضيت عنه غاضباً بلا كلام ولاسلام!!

كما ألتقيت ذات مرة بصديقة عزيزة، لها وجودها الحى والفعال فى عالم الرواية والكتابة الأدبية.. كما أن لها ماضيًا حافلاً فى دنيا

السياسة.. هى د. لطيفة الزيات.. وكان ذلك فى نادى القاهرة الرياضى.. ماكدت أراها حتى أندفعت إليها مستبشراً: عايز أجيب لك روايتى الجديدة.. فجر الزمن القادم.. علشان..

وإذا بها لاتدعنى أكمل: أسفة جداً.

أستغربت موقفها وهى الأستاذة الجامعية: مش أولاً تقريها.

وبغضب باتر: ولاأقدر حتى ابص فيها.

- يا ساتر.. للدرجة دى؟!!.. وأمسكت نفسى بقوة عن كلام كثير كان يمكن أن أقوله!! ومضيت بأحزانى أتمشى على شاطئ النيل القريب!!

يومًا بعد يوم، إذا بى أشعر أنى محاصر بالغضب.. مطالب بالدم، ليس فقط على المستوى المصرى، بل والعربى أيضًا.. فقد أخذ الهجوم يتوالى علىّ فى جرائد عربية خاصة الخليجية وبأقلام مصرية.. أحدها نسب إلىّ كتابة سيناريو ردىء لفيلم يدعو للتصالح مع العدو لا أدرى عنه أى شىء!! ثم لم تمر فترة حتى رأيت الغضب علىّ ينتقل إلى الصعيد العالمى.. أجل .. ذلك أنى كنت سائراً ذات يوم فى شارع «سان ميشيل» بباريس، إذا بى أتوقف على صوت مصرى ينادى علىّ باسمى، وإذا به الصديق الفنان «عبدالعزيز مخيون» الذى سبق أن قام بالتمثيل فى إحدى مسرحياتى: «المشخصاتية»، وأبدع فى أداء دوره، وماكدنا نفرغ من السلام والعناق حتى فوجئت به يقول لى إنه قرأ هجومًا عنيفًا منذ أيام على روايتى فى إحدى الجرائد العربية التى

تصدر بباريس.. كتبه (ق. ى) الكاتب المصرى.. ثم أضاف بأن من الممكن العثور على هذا العدد لكى أقرأه .. بسطت كفى الاثنتين رافضا شاكرا: يا عزيزى لقد جئت باريس هذه المرة لأقضى عدة أيام فى هدوء مع ابنى إيهاب المتزوج من فرنسية ودودة طيبة.. وأنه ليكفينى أن يكون هو راضيًا عن الرواية بل وسعيداً بها.. وهذا شىء طبيعى كشاب متخرج لتوه فى كلية الآداب.. قسم فلسفة وعلم نفس.. متفتح للحياة وللحب وليس للحرب.. كفانا دماء إذا أمكننا.. ومع هذا فليقل كل منا كلمته .. (وأمسكته من ذراعه) دعنا إذن مما قرأت.. وتعال نقرأ معًا ذلك الجمال الذى تفيض به هذه المدينة الساحرة.. باريس.. عروس أوروبا الفاتنة.. ننعم بجمالها وسلامها!!

لم أكن أدرى أن العاصفة فى مصر تزداد اقتراباً وعنفًا على نحو سرعان ما سيحولها إلى طوفان كاسح.. فبينما أنا أعد حقيبتى وأتهيأ للعودة إلى مصر، إذا بخبر صادم: قام السادات بحملة اعتقال واسعة قبض فيها على مجموعة ضخمة من كبار السياسيين والمثقفين.. رجالاً ونساء.. بالذات هؤلاء الذين يشكلون قيادة جبهة الرفض القاطع لسياسة المفاوضات مع إسرائيل!!

ومن اللحظة الأولى توجست ان تكون فتحية أحدهم، حتى قرأت قائمة الأسماء فشعرت بالارتياح أنها مازالت طليقة حرة!!.. ولكن إلى متى؟! قلتها باسمًا فى نفسى.. ذلك أن حركتها وتأججها السياسى الرافض كان لابد أن ينتهى بها، ذات يوم، إلى هذا المصير!! وسرعان

ماصدقت نبوءتى!! فقد راحت الأحداث بعد حملة الاعتقالات المشئومة تلك، تتوالى على نحو درامى، بل ومأساوى.. فلم يمض شهر بالتقريب عليها حتى لقى السادات مصرعه وهو يحتفل بذكرى انتصاره، على يد مجموعة ضباط تنتمى إلى إحدى الجماعات الإسلامية المتعصبة.. وكان طبيعياً وبحكم الدستور أن يخلفه فى الحكم نائبه: محمد حسنى مبارك.. الذى حاول من اول لحظة أن يداوى الجراح فأخرج المعتقلين، وأعلن عن عـــودة الأحـــزاب بادئاً عـــصـــره على أســـاس من الديمقراطية..ومن أن «الكفن ليس له جيوب» بما يعنى وجوب التعاطف والتراحم بين البشر.. وفى ذات الوقت أعلن بغاية الوضوح أنه سائر على طريق السادات، ملتزماً بكل ما تم من اتفاقات مع إسرائيل!!

ومن هنا، ورغماً عنا، عاد الخلاف لينشب بينى وبين فتحية، وعلى نحو أكثر حدة وقسوة حتى وصل بنا الأمر إلى حد التراشق بالألفاظ الجارحة.. واستبد بها الغضب ذات مرة، وإذا بها تشن علىّ هجوماً يكاد يكون هيستيرياً، وكان للصدفة صديقنا عاصم النبراوى الذى شهد مولد قصة حبنا.. وأول لقاء لنا فى ميدان السيدة زينب.. كان فى زيارة لنا وسمعها وهى تهاجمنى فى اعز ما لى فى الوجود.. كتاباتى: تقدر تقوللى إيه الحاجات اللى أنت بتكتبها فى المجلة دلوقتى؟! شوية رومانسيات لاتودى ولاتجيب.. بينما البلد بتروح فى داهية!!

وأحسست بالطعنة تغوص فى السويداء، ومع هذا، وبجهد هائل، كافحت لاحتمال الطعنة، مكتفياً بنظرة الدهشة والاستياء التى أطلت من

عيني صديقنا عاصم، وهو يسمع بأذنه ماكان لايتصور أن يصدر منها، وفي نفس الوقت مشفقاً عليها.. من درجة العصبية التي تتولاها.. وهو الذي يعرف جيداً طبيعتها.. وتوجه إلينا نحن الاثنين بالرجاء وبالاستنكار: ياجماعة.. أنتوا أكبر من كده بكتير.. أنتوا كده حتهزوا ثقتي في كل شيء جميل في الحياة.

وانفجرت باكية وعائدة إلى الصراخ من جديد: هو ده اللي أنت عايزه.. تظهر بمظهر البريء.. الشهيد.. وانا .. المجرمة.. الدموية.. اللي ماعندهاش قلب ولاضمير ولاإحساس بالوفاء.. مش كده؟!

كانت تنتفض بالبكاء وبالصراخ.. ثم إذا بها تنفض عن نفسها مايمكن اعتباره ضعفاً وقالت: لكن لا.. إذا كنت أنت أعطتني، أنا كمان أعطيتك كتير.. كتير أوي .. لكن واضح أن القصة بيننا خلاص وصلت لنهايتها.. وأن حياتنا مع بعض بعد كده أصبحت مستحيلة، لازم احنا الاتنين نعترف بكده!!

٢٢

أقتل أمك!

صحوت من النوم مرتاعا ومدهوشا من غرابة الحلم.. وأنتبهت على صوت ديك يؤذن، فأدركت أن الوقت فجر.. قلت فى نفسى: وأحلام الفجر تصدق معى، فماذا يعنى هذا الحلم؟ بماذا يشير علىّ؟! وأغمضت عينىّ استرجع الصورة التى رأيتنى عليها: أنا واقف على شاطئ البحر، وصاحبى ورفيق عمرى «عاصم الدبراوى» يقول لى.. يستحثنى: إخلع خرقتك البالية.. إلق بنفسك فى اليمّ.. أقتل أمك!

يارب (ودقات قلبى تتسارع مع أنفاسى) هذه الكلمات ليست بالغريبة علىّ.. آه.. هى كلمات «السهروردى» كما أوردها عاصم فى برنامجه الذى كتبه عن حياة واستشهاد ذلك المتصوف العظيم، فأحببتها وسجلتها فى نوتة جيبى: نصيحة الشيخ لمريده، كطريق للخلاص!.. هاهو «عاصم» يعيدها على سمعى، بعد أن حكيت له عن اشتداد أزمتى مع فتحية وإصرارها على الانفصال على نحو جعلت منه معركة وجودها!

وبدا لى الرمز متجليا شديد الوضوح: هو يعنى بالخرقة البالية تلك الثياب التى نرتديها، والتى هى مظهر للحياة السطحية الخادعة..

وكذلك يعنى بإلقاء نفسى فى اليمّ، الخروج بحياتى من ذلك الركود الذى بات يخيمّ عليها، وتجديدها بمغالبة أمواج الحياة، ومواجهة الخطر.. كل هذا واضح ومفهوم.. فماذا عن الشطرة الأخيرة من النصيحة: أقتل أمك؟!

رغم أنه يعلم تماما أن أمى ماتت من زمن.. فمن إذن يقصد؟! وارتسم لى الجواب واضحا، محددا.. دون أدنى التباس: هو يقصدها.. فتحية. تلك التى تحولت مع الأيام وعِشْرة السنين.. أكثر من عشرين عاما إلى أم ثانية لى.. ثم فجاة حدثت الأعاصير.. وها هو يحرضني على التخلص منها!

ولأنه ليس من إخوان الشياطين، فقد فسرت القتل على إنه الطلاق، ليس قتلا ماديا، بل روحياً ومعنويا .. أن أقتل حبها فى نفسى.. ذلك الحب الذى وثقتنى به وأستعبدتنى عبر عقدين من الزمان.. وانطلق وأطير.. وأدعها هى الأخرى تنطلق وتطير.. هذا هو امتحان الحب الحقيقى! أجل يا عاصم سأفعلها.. سألقى بنفسى فى اليمّ، وليكن بعد ذلك ما يكون!

ودفعت عن جسدى الغطاء، كأنما أدفع عن نفسى كفنا كنت ملتحفاً به، ونهضت قفزا مغادراً السرير.. كنت ممتلئاً بالفكرة.. وخطر لى أن أمضى إليها مباشرة فى الحجرة المجاورة حيث تنام، وبشحنة الغضب.. لا.. بل قل بالثقة النابعة من اتخاذ القرار أوقظها.. افجؤها.. وهى تفتح عينيها: هيا لنذهب إلى المأذون .. أليس هذا هو طلبك؟! أنا الآن مستعد!

ولكن أى مـأذون يمكن أن نجـده الآن، وأضواء النهار لاتزال بالكاد ترسل انفاسها البكر الأولى، والشقة كلها تسبح فى العتمة.. لا.. لاداعى للتعجل، لا أحب أن يأخذ تنفيذى للقرار شكل العصبية أو الانفعال.. فالمهم أنى أتخذت القرار! أتخذته على نحو غاية فى العقلانية والهدوء، ولارجعة بعد ذلك حتى لو ارادت هى التراجع!

كنت فى أشد الحاجة إلى شىء مثل هذا.. هزة أو صدمة عنيفة ترج حياتى، وتجدد حركة الدماء فى عروقى من جديدا.. فلأنطلق إلى النيل.. آخذ قاربا صغيرا، وأندفع به مجدفا ضد التيار.. أظل أجدف وأجدف حتى أشعر بالتعب، فألقى بالمجدافين، وأترك المركب تعود بهدوء مع التيار.. آه.. ولكن قبل أن أخرج، لابد أن أمر على ابنتى صفاء.. اوقظها لتذهب إلى الجامعة، وأعد لها سندوتشات الفطور.. مهمتى التى أحب أن أبدأ بها يومى كل صباح.. لكن الوقت لايزال مبكرا.. فلاتركها اليوم تأخذ كفايتها من النوم.. بعد أن سافر الأولاد الصبيان الثلاثة إلى الخارج، خلت لها الحجرة، وأصبحت مستقلة بها، فلآخذ نظرة منها، أروى بها روحى قبل الخروج. دخلت على أطراف قدمى.. كانت مستغرقة فى نوم عميق.. ممددة بطولها، وذراعاها مفرودتان على آخرهما.. مصلوبة بالعذاب؟! أم هى مستمتعة بلحظات استرخاء رائعة تعلمتها من النوم على سطح الموج.. موج البحر.. بحر الإسكندرية.. هناك فى تلك الأيام الأولى، علمتها، مثلما علمت أخوتها من قبل السباحة، وكانت هى عند حسن ظنى وثقتى بها.. التقطت فن السباحة سريعا.. ولم أعد أخاف عليها حين تنزل البحر، وتتوغل فيه

حتى تصل إلى المناطق العميقة الغور.. وفكرت: «يا عجبا.. لقد كان ميلادك نفسه يا صفاء يحمل طابع الدراما القدرية العظيمة.. فقد حملت بك أمك على غير رغبة منا، وصممت على إجهاضك مكتفية بالصبيان الثلاثة، وما أكثر ما أجرت المحاولة.. لكنك صممت على البقاء، وعلى المجئ إلى الحياة.. وبالفرحتنا جميعا حين جلت بنتا.. وأنا الذى أسميتك صفاء.. وأكاد أكون أنا الذى ربيتك بعد مرحلة الرضاعة.. وإنى لفخور بتربيتى.. فما تسببت لنا يوما فى أية متاعب من أى نوع.. واليوم، وبعد أن حدث بينى وبين أمك ماجعلنا نقرر الانفصال، أنا واثق إنك ستكونين عند حسن الظن، ستكونين قادرة على هضم الأزمة الناشبة بينى وبين أمك.

تقول لى أزمة؟! إنه طلاق يا سيدى.. أو لاتعرف وقع كلمة طلاق على بنت هى على «وش جواز».. وتمشى وتتحرك فى قلب مجتمع.. فبماذا تفسر للناس طلاق أبيها وأمها.. وبماذا ترد على مختلف التفسيرات والشائعات التى يلوكها الناس ويسلون بها أوقاتهم الفارغة.

ورأيت منظرها طريحة على السرير.. مصحوبة بالألم.. ونحن أقرب الأقربين إليها سبب هذا الألم وهذا العذاب.. وأحسست فجأة وأنا واقف بباب حجرتها بشئ كالدوار.. أستندت على الباب.. أفقت على صوت فتحية.. مغمغمة فى وجوم: صباح الخير.

أفقت مغمغما: صباح النور.

واستدرت إليها.. تملكنى غضب مفاجئ.. اوشكت أن أمسكها من صدر ثوبها.. أنهرها.. ثم مشيرا على النائمة: هذه ستكون أولى ضحايا طلاقنا!!

لكننى جاهدت غضبى.. هذا يعنى تراجعى عن القرار.. ولقد قررت عدم التراجع!! فى تلك اللحظة، لمع فى ذهنى ما رأيت فيه الحل الرائع: أن يتم الطلاق بالفعل.. ولكن على النحو الذى لايحدث جروحا لاحد!

ـ فتحية.. عايز اتكلم معاك فى موضوع دلوقتى.. ممكن!

ـ طبعا.. بس أشرب الشاى الأول.. أغير ريقى!

أنا كمان لسه ماشربتهوش.. أنا اللى حاعمله..

ـ ونتكلم وأحنا بنشربه.

بكلمات مختصرة قاطعة لا أثر فيها لغضب أو حفيظة، بل مخاطبة لعمر حافل جمع بيننا: عايز أتكلم معاك فى موضوع الطلاق، مش علشان أقول لك إنى غير مقتنع به.. بالعكس.. أنا أصبحت شديد الاقتناع إنه لازم يتم.. فعلا لاحل لأزمتنا غيره.. ولكن .. علشان أقدر أضعه موضع التنفيذ.. حاطلب منك طلب.

ـ اتفضل.

ـ تعفينى من المرواح للمأذون.. ومن كل الإجراءات الرسمية المطلوبة فى الموقف ده.. على الأقل مؤقتا.. لأنى حاليا.. ماعنديش أى استعداد نفسى له.. ومع ذلك حانفذ لك رغبتك اللى بقت هى كمان رغبتى، وحيتم الطلاق فعلا.. لكن بدون رسميات.. من غير إشهار ولا إعلان.

ـ إزاى؟

ـ حاكتب لك ورقة .. تبقى حجة علىّ وعليك، أثبت فيها طلاقنا وانفصالنا، وإذا احتجت تضمنيها أى طلبات أو شروط، أنا مستعد .. المهم يفصل الموضوع بيننا وبين بعضنا مؤقتا.. وأؤكد على كلمة مؤقتا.. لغاية ماأتهيأ للطلاق الرسمى والعلنى.. وتأكدى إن دى مش خطة لاحتمال التراجع.. بالعكس.. أنا أصبحت فى حاجة أكثر منك للانفصال.. إننا نبعد تماما عن بعض.. لفترة جايز.. وجايز للأبد.. ماحدش عارف.. فهل يمكن.. على الأقل عشان خاطر بنتنا اللى القدر جابها للحياة غصب عنا وعنها.. هل ممكن تكتفى بالورقة دى؟!

ـ ممكن.

قالتها برضا وسماحة نفس رفعت عني غُمة كبرى.. وكتبت الورقة.

●●●

من علامات تلك الفترة من حياتى الشخصية والفنية، قصة قصيرة كتبتها بعنوان «الميلاد»، ..أو «حامل نعشه» محورها، رجل اكتفى من الحياة، فصنع لنفسه نعشا على أجمل طراز، وارتدى أجمل ثيابه، وكأنه ذاهب إلى عرس، وبينما هو متجه بنعشه نحو القبور، إذا برجلين .. لصين.. يوقفانه، ويطلبان ما معه من نقود، وإذ لايجدان معه شيئا، يطمعان فى النعش ويأمرانه بإنزاله وإعطائه لهما.. وإذا بالغضب يستبد به، ويتحول النعش بين يديه إلى سلاح يصرعهما به.. وإذ ينتصر فى المعركة يعاوده حب الحياة، ويستدير ـ بالنعش معطيا ظهره للقبور!

فرحت بهذه القصة فرحا شديدا.. وأرسلتها إلى الصديق رجاء النقاش، رئيس تحرير مجلة الدوحة القطرية آنذاك، ونشرها على الفور.

كان الرمز الأساسي في القصة، أن الإنسان بلا معارك يموت.. وانتعشت معنوياتي، وتفتحت كل مسامي الفنية، وإذا بي أدخل على مشروع طالما تمنيته وخططت له: أن أكتب قصة حياتي.. سيرتي الذاتية كما يقولون، أتخذ من حادثة انفصالي عن فتحية محطة أتوقف عندها.. وأعود بعيني إلى الوراء.. أسترجع كل ماكان.. كيف كانت البذور.. والجذور.. أفسر الحاضر بالماضي.. كإنما هو كشف حساب أقدمه عن حياتي.. فإذا كنت قد منحت نعمة المجئ والتواجد في هذه الحياة، فما الذي فعلته بهذه النعمة.. ما الذي حققته بوجودي في هذا الوجود.. منذ أن خرجت من رحم أمي بعد ستة شهور من موت أبي ؟!

الغريب أن هذه الجملة بالذات هي التي افتتحت بها السيرة، وماكدت انقشها على الورق حتى وجدت القلم منطلقا كإنما بقطار الزمن عائداً على شريط الماضي.. ولم يتوقف إلا بانتهاء الجزء الأول، وهو الخاص بأيام الطفولة والصبا، وعهد الشباب الأول.. وبلغت الفرحة أوجها حين الهمت عنوانها: «عينان على الطريق».. وبدأت في نشرها مسلسلة في الجميلة الصبوحة: صباح الخير! وارتفعت معنوياتي إلى حد الطرب.. ها أنا بالفن علوت على أزمتي مع فتحية، وصرت مقتنعا بأن هذا الانفصال، وبالشكل الذي ارتضيناه وقررناه فيما بيننا كان دافعا وحافزاً لكلينا لتحقيق وتأكيد وجوده على أحسن وجه.. بعيداً عن الآخر

وفي ظل استقلاليته الكاملة!!.. فبينما أنا كنت مستغرقًا في كتابتي للرواية كانت هي مستغرقة في نضالها الحزبي والجماهيري، على المستويين المصري والعربي، في نضالها ضد معاهدة كامب ديفيد .. آخذة موقع القيادة والتصدي، غير مبالية بالخطر.. في نفس الوقت كانت منهمكة في إنهاء مسرحيتها الجديدة: «بلا أقنعة».. والتي ياما حدّثتني عنها أيام وليالي الصفا.. محورها كشف القناع عما أحدثه وما يزال يُحدثه قهر المرأة واستعبادها عبر عصور التاريخ من مأساة تشوه معنى الحياة.. ليست حياتها فقط، بل أيضا حياة الرجل!

وفرحتُ بيني وبين نفسي أن ارتباطها بعالمِ السياسة لم يجهز عليها كفنانة وكاتبة.. كما خطرت لي فكرة استملحتها: إنها استبدلت بحبي، حبها للمسرح.. فيما مضى كانت تعود لي من الخارج فياضة تائقة للبوح بما تختزنه من أخبار ومشاهد وخواطر وأفكار، فتفرح بوجودي وتنقل لي العالم الذي رأته.. الآن باتت كل بوحها للورق ولخشبة المسرح التي تتصورها.

ودخلت عليّ ذات يوم شقتي، وقالت وعيناها تلمعان بالفرح: مش أنا خلّصت المسرحية: وحاسلمها لهيئة المسرح؟!

ـ مبروك.

ـ الله يبارك فيك. ممكن أعطيك صورة منها تقراها وتقول لي رأيك؟! وخطر لي أن أقول لها: ومادمت قد قررت تسليمها قبل أن أقرأها، فما فائدة قراءتي لها؟!

لكنني أستهجنت هذا الرد.. لمحتَ فيه رغبه خفية في دوام الإحساس بالوصاية على كتابتها، بينما الواجب عليّ أن أفرح بما حققته.. أنها كتبت المسرحية بالكامل دون أن أقرأ منها صفحة واحدة.. إن هذا لإنجاز عظيم.. وفي الحقيقة هو خير حصاد لحياتنا الماضية معاً.. فلأهنئها.. وأهنئ ـ في السر ـ نفسي وتقبّلت منها بشغف صورة المسرحية!

في تلك اللحظة، وأنا أراها فرحانة بفرحي بها، برقت في ذهني فكرة أضاءت لي أبعاد أزمتنا: أن جوهر الخلاف بيننا، ليس أبداً الخلاف السياسي (حقيقة ثورة ٢٣ يوليو، وحقيقة كامب ديفيد..) كل ذلك وارد وطارئ ومتغير.. إنما الخلاف الحقيقي بات في الرؤية الحياتية للعلاقة الشخصية والإنسانية بيننا، بعد أن خرجتْ هي من طوْر التلَميذة التابعة والمريدة، إلى طوْر الكاتبة والمعلّمة للملايين من جماهير الشعب في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية.. أصبح السؤال الملحّ في أعماق الضمير أو العقل الباطن: ما مدى اتفاق علاقة الحب التاريخية بيننا، وبين حقها في أن تحيا حياتها وذاتيتها الخاصة والمستقلة!

وبدا لي أن مرحلة الصراع الأخيرة قد ألهمتنا الحل الصحيح والكامن في تلك الصيغة التي اتفقنا عليها: مطلّقان في السرّ، زوجان في العلن .. نكاد نكون سعيدين بهذه الصيغة القريبة من اللعبة.. والتي كان حصادنا الفني منها وافراً وسخيًا.. أنا أنجزت الجزء الأول من «عيدان على الطريق».. وهي أنجزت مسرحيتها «بلا أقنعة» التي

تحمست لها صديقتها الفنانة المسرحية سميحة أيوب مديرة المسرح القومى أنذاك، وادخلتها مسرح السلام لتمثل عليه بإخراج الفنان عادل هاشم!

كما أن ثمة أشياء طريفة كانت تحدث بيننا فى إطار تلك الصيغة. لم نعد زوجين .. هذا صحيح .. ولكن لامانع أن نصبح صديقين يكنان لبعضهما الاحترام، على الأقل وفاء لما كان.. وإذ رأتنى أشرع فى تأثيث مطبخ جديد لشقتى، عرضت علىّ أن تصحبنى وأنا أشتريه.. كذلك هى، وقد شرعت فى إحداث تعديلات كبرى فى شقتها، تتمثل فى هدم الحائط بين الصالة وإحدى الحجرات طلبا للتوسعة، وجدتنى تلقائيا أتدخل مشاركا فى التشكيل والتصميم.. أكثر من هذا، كانت إذا اشترت زرعاً جديداً لشرفة شقتها، اشتريت أيضا لشرفة شقتى.. أكثر من هذا، أعجبنى ذات مرة مكتب خشبى أنيق فى إحدى الفتارين فأشتريته وأهديته لها.. فى شقتها الجديدة. من صديق لصديقة.. وكنا نتبادل النظرات والابتسامات .. مامعنى هذا؟!

ولم يتسرع أحدنا بإعطاء الجواب! لكننا استلطفنا اللعبة، ورأينا إنه شيء جميل .. أن تستمر!!

إلا إننا كنا نعيش فى زمن الأحداث والتحولات.. فبينما أنا نائم فى سريرى فى إحدى الليالى الباردة متدثرا بغطائى، إذ بى أسمع دقات على الباب بدا إيقاعها غريباً ومريباً ملأنى بالتوجس.. قفزت مسرعاً نحو الباب كى أتاكد.. وإذ سألت: من بالباب.. عرفت أنه البوليس

ويخبرني السابقة أعتذرت عن الفتح لدقيقة أرتدى فيها ملابسى، وأنطلقت جريا لابنتى .. لم تكن فتحية قد عادت بعد من الخارج.. ألتقيت بصفاء قادمة وفى عينيها قلق وتساؤل.. أفهمتها الوضع.. وإن عليها أن تسرع إلى حجرة أمها ودولابها وتمزق أية أوراق حزبية أو سرية تكون فيها خطورة عليها من الناحية القانونية!!

كنت معتمداً أنهم لايعرفون حكاية الشقتين ولاحكاية الطلاق أرتديت روبى الصوف وفتحت لهم الباب معتذرا عن التأخير وسحبتهم بهدوء إلى شقتى. وطابت نفسى من أول لحظة وجدت فيها الضابط يمد يده لى بالسلام ويقول لى إنه من قرائى.. خصوصا رحلة النهر. وانه كذلك من مشاهدى مسلسلات المدام خصوصا: «هى والمستحيل».. تصورته عدواً فإذا به صديق يرفع لى منديل الأمان وهو يجرى تفتيشاً مظهرياً فى مكتبتى لم يسفر بالطبع عن أى شىء. ولم يمض وقت طويل حتى حضرت فتحية. لم يبد عليها أنها فوجئت.. كأنما كانت تتوقع شيئا كهذا، !! وقد حرصت - رفعاً لمعنوياتها - أن أخبرها أن «حضرة» الضابط الذى جاء ليقبض عليها هو من مشاهدى مسلسلاتها. وحينذاك انشرح وجهها وقالت بروح ودودة متحمسة: وإن شاء الله حتشوفوا اللى حاصل الليلة دى فى مسلسل جديد أو فى مسرحية جديدة.. بس ربنا يعطينا طولة العمر!! وابتسم الضابط ورجاله.. وهكذا أضفت على لحظة القبض الدرامية مزيجاً من روح الفكاهة والتحدى.. وقال لها الضابط وقد ازداد تعاطفه معها: ياريت تلبسى بالطو تقيل.. وتاخدى كمان معاك غيار شتوى.. احتياطى!

سألته: ممكن أعرف حيبقى إيه خط سيرها؟!

- حننزل من هنا على وزارة الداخلية.. ومن الداخلية حتاخدها عربية على سجن القناطر.. لغاية ما تطلبها النيابة للتحقيق!

وما أغرب شعوري الحاصل في تلك اللحظة.. لاذرة حزن أو غضب فهذا هو الحصاد الطبيعي لاختيارها: المواجهة.. وهو اسم المجلة التي بداوا بإصدارها في لجنة الدفاع من أول عقد اتفاقية كامب ديفيد.. لا.. للمفاوضات مع العدو الإسرائيلي.. لا.. لاشتراك إسرائيلي في معرض الكتاب الدولي الذي ينعقد كل عام بالقاهرة.. لا.. للاحتفال المراد إقامته بالمعبد اليهودي بشارع عدلي، إحياءً لذكرى تأسيس الدولة الإسرائيلية.. لا.. ولو كان السجن هو المصير.. وها قد تجسد المصير!

وجاءت اللحظة التي كنت أحمل همها.. لحظة توديعها لابنتها صفاء.. مازلت أذكر.. أمام باب الشقة والاثنتان تتحديان ضعف الحزن، ومشاعر الفراق.. في كلا الوجهين شموخ، وتبادل عهد على القوة والصمود في الأزمات.. وحولت بصري عنهما مخافة أن يحدث أبسط تحول في المشهد العظيم!! وإذ ركبت بجوارها في عربة البوليس أوصلهما حتى باب الداخلية، فوجئت بها تهمس لي: على فكرة.. أنا طلبت من صفاء تقطع ورقة الطلاق اللي أنت كاتبها.. وفعلا قطعتها.. مش كويس كده؟!

ونظرت في عيني لترى رد الفعل.. لم أنطق بحرف.. كانت سعادتي بما قالته تطل من عيني.. أستسمحت الضابط بابتسامة ود..

ضممتها إلى صدرى.. وفى عمق أعماقى: آه يا ابنتى الشجاعة الشقية المغامرة المتصدية المتمردة.. وإنى لأباركك مهما قلت، وصدر منك، ومهما اختلفت معك.. فنبع ينابيعك دائما هو الصدق العظيم.. فلتخوضى التجربة.. وكلى ثقة بك!

وسرعان ما خرجت من صدرى لتدخل من الباب الذى فُتح ثم أغلق خلفها.. وبقيت وحدى فى الظلام.. يغمرنى الفرح والشجن.. وأنا أرى الحب يعود .. فى عز لحظة الفراق!

والذى يخطر الآن على البال إنها النهاية السعيدة للعاصفة التى كادت تودى بحياتنا معا.. يؤكد ذلك أن مسرحيتها «بلا أقنعة» كانت قد دخلت مرحلة البروفات النهائية.. مرحلة ضبط حركة وإيقاع الممثلين (الميزانسين)، وكذلك الإضاءة والموسيقى.. كانت مسكونا بالقلق.. فالمألوف فى مثل هذه الحالة أن يلحق بالمسرحية ما لحق بصاحبتها ومؤلفتها، فترفع فى صمت من المسرح، ولا من شاف ولا من درى .. هرعت إلى مخرجها عادل هاشم، وجدته متحفز كالوحش، مستعدا القتال ضد أى إجراء يتخذ ضد المسرحية.. أكبرته فى نفسى.. ذهبت إلى مدير المسرح: محمود الحدينى وكان الحظ حليفه، وللحظ أيضا لعب من قبل دور البطولة فى أكثر مسلسلاتها نجاحا: «هى والمستحيل» سألته: ما الأخبار؟! طمأننى وطمأن نفسه.. فلاشىء جديد حتى الآن جاءه «من فوق» بصدد المسرحية.. وإذن فالعمل مستمر!

وقد ظللت اتوقع كل ليلة أن يأتينى خبر وقف المسرحية.. لكن ذلك لم يحدث.. وتضاعف حماس للممثلين والممثلات وكل عمال وموظفى

المسرح، حتى جاءت ليلة الافتتاح.. تلك الليلة وحدها تستحق فصلا خاصا بها: أضواء المسرح، والبهجة الحية الغامرة للعرض المسرحى، بينما كاتبته فى ظلام سجنها.. ونحن واقفون بعد إنزال ستار أول عرض.. المتفرجون، وكذلك الممثلون يصفقون لها.. هناك.. وصفاء ابنتى واقفة بجوارى تدمى كفيها بالتصفيق، ودموعها تنهمر خيوطا على وجنتيها.. وأحتويتها باكيا وأحتوتنى.. وأحسست أن فتحية هى التى تحتوينى، وأننى أحتويها.. ثم مضينا نجمع من باقات الورد التى ملأت جنبات المسرح بطاقات الحب والتهنئة.

وفى الصباح.. كنت أنا وصفاء وبطاقات الحب والتهنئة ننطلق إليها لنزورها.. فى سجن القناطر.

●●●

أهناك نهاية سعيدة أجمل من هذه؟! لكن ذلك لم يكن غير الظاهر فحسب.. أو ما تتمناه النفس أن يكون!! وما أغرب وأخطر تعقيدات وتلافيف النفس البشرية.. فما كاد التحقيق يتم معها، وتخرج إلى الحرية، وتعود إلى بيتها، وحياتنا معا.. وبدا لنا أن الغيوم كلها انقشعت، فالورقة التى كتبتها بالانفصال هى التى مزقتها بنفسها.. فلتعد ليالينا.

ونحن نشرب الشاى فى الصباح، كان يخيم علينا نوع من الوجوم، قالت بهدوء: عايزة أسالك سؤال.. تجاوبنى عليه بصراحتك المعهودة.

ـ طبعا.

ـ إمبارح.. واحنا مع بعض.. هل لقيتنى أنا؟!

ـ بمعنى؟!

ـ أنت عارفني.. ماأعرفش أخبي عليك حاجة.. إمبارح.. حاولت بكل إخلاص.. إني أبقى معاك بكلي.. فشلت.. ماعرفتش أكون معاك فتحية.

ضاغطا على أسناني:

ـ وده يبقى معناه إيه؟!

ـ معناه إن الحياة بيننا لسه عايزة وقفة!

في لحظة واحدة أحسست بكل الدماء التي في عروقي تتجمع في رأسي.. بركان سينفجر.. ولكن لا.. وستكون الضربة هذه المرة في مقتل: وعاودتني كلمات السهروردي.. اقتل أمك.. لا.. لم تعد تستحق حتى كلمة أمك.. إخلعها هذه المرة خلعا من أرض حياتك..

نهضت واقفا: من غير أي نقاش أو جدال.. المرة دي عالمأذون.. رسمي.. في وضح النهار.. وحاعلنها على الجميع.. على العالم كله!!

٢٣

الصيد من بحر الغضب

وفعلناها..

كنا، ونحن ذاهبان إلى المأذون كالسائرين نياما.. كانت المهمة فوق الطاقة، ومع هذا بشحنة الغضب واليأس والمرارة والكبرياء فعلناها!! وحين انتهى المأذون من كتابة العقد وأخذ توقيعينا، خرجنا من بيته القديم المتداعي هيكلين متداعيين.. الخطوات تائهة زاحفة.. اثنان يسيران في جنازة حبهما. إحساس من الأعماق أننا أقدمنا على انتحار ثنائي.. في نصف ساعة لا أكثر هدمنا حياة استغرق تشييدها أكثر من عشرين عاما.. من هذا المسئول الحقيقي؟! لم يعد ثمة معنى أو فائدة من هذا السؤال. ما الذي ينتظرنا بعد هذا؟! ربما هي مخططة لحياتها على نحو ما.. أو على الأقل ستصب نفسها في العمل الحزبي.. مواصلة الكفاح مع «لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية» ضد كامب ديفيد.. أما أنا.. فلا أدري إلى أين أتجه بخطواتي التالية..

انتهى الشارع. حلّت لحظة الفراق . توقفنا.. التقت نظراتنا..غاضت الدماء من وجنتيها وسرى في الوجه شحوب وصفرة.. وفوجئت بها

تسألنى بصوت قادم من أعماق بئر: حتروح على فين دلوقت؟! أجبت بلا وعى: حاروح المجلة.

ـ ممكن تيجى معايا البيت شوية.. نشرب فنجال قهوة؟! لو كنت قادراً على الصراخ لصرخت فيها : كفاك تناقضات.. لم أعد أحتمل.. تود لو تستبقينى فى حوزة عطفها وخوفها علىّ .. وعاودتنى كلمات السهر وردى الحاسمة «اقتل أمك».. أجل.. ها هى رغم ما حدث تريد أن تمارس معى عواطفها الأمومية!.. لا.. بل هى حبال الموت الحريرية الناعمة تبغى خنقى بها وتحتوى كل ما يمكن أن يكون لدى من مشاعر غضب اوعدوانية!

غمغمت وعيناى مغروستان فى عينيها: أفضل شىء نعمله دلوقت كل واحد يبتدى يشوف حياته وطريقه.. وحاجة أخيرة عايز أقولها لك.. لولا بنتنا صفاء، كنت قفلت الباب المفتوح بين الشقتين، أو رجعته حيطه زى ما كانت. مع السلامة.. وأستدرت عنها ومضيت.

فى الطريق إلى المجلة، وبشحنة الغضب التى مضت تتصاعد فى رأسى، قررت الإعلان.. إعلان انفصالنا حيثما تسنح اللحظة.. أجل أيها الناس.. ويا أيها الأصدقاء والصديقات.. بل ويا أيها الشامتون والشامتات أيضا.. فعلناها.. ما وجه الغرابة.. أليس لكل شىء عمر؟! كذلك الحب.. له عمر.. كان حبًا. نجما تألق شعاعاً.. فيضا.. نوراً غامراً.. ثم انفجر .. انتثر رماداً.. أخذ عمره ومضى.. ذلك هو قانون كونى!

وإذ تصورت الدهشة التي ستطل من العيون.. والتمتمات.. ومصمصات الشفقة والرثاء.. والهمسات بمختلف الاجتهادات في تفسير الأسباب، ضاق صدري، وأنتابتني رغبة في الابتعاد عن كل من أعرف.. استوحد.. لا.. بل أطير.. أسافر. آه.. هو ذاك: السفر إلى بعيد هو الآن راحتي وخلاصي الخروج من المحيط الذي توجد هي فيه.. لا.. بل من البلد كله، وإن أمكن من القارة بأكملها!!.. هناك أبدأ حياة جديدة.. ولتكن «باريس» حيث يعيش ابني البكري «إيهاب»، أو «هلسنكي» حيث يعيش ولداي صلاح.. وشريف.. وحيثما أكون سأكتب وأراسل بعض المجلات التي تصدر بالعربية في لندن وباريس ولي فيها أصدقاء، سأعيش من كتاباتي، ولن أقيم مع أحد من أولادي . بل سأستأجر مسكنا مستقلا أحيا فيه بكامل حريتي.. كثيرون من الكتاب والرسامين العالميين فعلوها، وفي باريس بالذات التي ضمتهم بين جوانحها وفجرت مواهبهم، وخلدت بعد ذلك سيرهم!

دخلت المجلة.. صعدت إلى مكتبي.. تفتح قلبي حين وجدت صديقي وزميلي الروائي صبري موسى.. جالسا إلى مكتبه يقرأ الجرائد.. ما إن أحس بي حتى رفع لي رأسه وعلى الفور تحرك راداره: مالك ؟! جاي منين؟!

ـ جاي من عند المأذون.. أنا وفتحية.. خلصنا الموضوع.

ـ موضوع إيه.. مش فاهم.

ـ اتطلقنا رسمي!

هب واقفا: تبقوا مجانين أنتو الاتنين. معقول؟! إزاي؟! احكيلي.

ـ بعدين حاحكيلك كل شيء.. بس اللى عايز اقولهولك دلوقت إنى قررت السفر.. خلال أيام.. أسيب لها جنب البلد بلاد.. أعيش بعيد.. أبتدى حياتى من جديد!

وإذا به يهجم عليّ غاضبا وأمسكنى من كتفى بقبضته، ومضى يهزنى.. محذراً: إياك.. أوع.. ده مش حيبقى سفر.. ده حيبقى هروب.. حيبقى هزيمة.. مش أنت يا عبدالله اللي تعمل كده.. أنت طول عمرك بتاع معارك ومواجهات.. تيجى النهارده بسبب تصرف طائش فى لحظة غضب منك ومنها.. ترمى كل تاريخك اللى حفرته بدمك.. ؟! معقول؟! لا.. مادمت عملتها.. تبقى تخليك على مستواها!!.. عايز تسافر سافر.. بس مش دلوقت على طول.. استنى شوية.(وخفف من قبضته على كتفى، ومضى يربت على ظهرى بحنان) : ماتبقاش عبيط.. خلّى قماشتك عريضة.. خصوصا مع عالم الستات.. أنت نسيت؟! ياما حطيت همى فيك.. و..

وفى هذا الاتجاه راح يتحدث مربتا على أعصابي. وإذا بهدوء النفس يغمرنى.. وبفكرة السفر الآخذة شكل الهجرة تتراجع تماما، بل رأيت انى كنت سأرتكب تحت وطأة الغضب غلطة العمر الكبرى!.. هنا نعمة تواجد الصديق لحظة شتات العقل واشتداد الازمة. لا أنسى أبدا هذا الموقف لصبرى.. فقد حفزنى لأن أواجه حياتى بعد الانفصال مواجهة موضوعية هادئة.. وساعدنى نبذ فكرة الهجرة أو الابتعاد بالسفر على استعادة توازنى النفسى والفكرى! ما أكثر ما حولت النقمة

إلى نعمة. هذه الساقية التى ظللت أدور فيها مساقا لأكثر من عشرين عاما.. ساقية الزواج.. ألم اشك منها.. سواء على سبيل الجد.. أو على سبيل الفكاهة.. هاقد انحل الرباط وأصبحت حرا.. فلأعش حياة العزوبية الحقة.. ولاح لى وجهان انثويان عزيزان على نفسى. وفكرت بأن علاقة الود التى نشأت بينى وبينهما منذ كانتا تقرأن حلقات الدهر، يمكن أن تنتقل من مرحلة المكالمات التليفونية أو الخطابات المتبادلة إلى مرحلة اللقاء المباشر.. أجل.. لم لا ألقاهما فى شقتى.. هما.. أو غيرهما.. وإذن فلابد من محو كل أثر لها فى الشقة، وأول هذه الآثار صورها المعلقة على الجدران.. أهمها وأخطرها، تلك المعلقة فى مواجهة الداخل مباشرة.. بإطارها العتيد المتميز.. صورة الزفاف.. زفافنا!!

ولأننى كنت بصدد تنفيذ أحد أخطر القرارات المصيرية فى حياتى، فلم أدع لذرة من التردد العاطفى أن تصيبنى، وأتجهت إلى الصورة.. وإذا بشىء فوق الخيال يحدث.. إذ ما كدت ألمسها، بل حتى قبل أن ألمسها، فوجئت بها تهوى من على الحائط فتلقفتها بيدى ودقات قلبى تتسارع وقد أمتلأت بالدهشة والروع.. أن يحدث الذى كنت أريده دون تدخل منى.. ونظرت فى الخيط الذى كان يحملها منذ أن علقتها، وإذا بى أجده، فى موضع التعليق، مكان المسمار، وقد بلى بفعل الزمن.. عشرين سنة، وهى معلقة بهذا الخيط.. سرى على الخيط ما يسرى على الأشياء، وعلى الحب ذاته.. ورأيت أن هذه الحادثة جاءتنى بكلمة القدر لتقول لى أن هذا الذى أفعله صحيحا.. عشرون عاما من الزواج تكفى.. ولابد لتعليقها من خيط جديد.. خيط قوى ومتين!

حملت الصورة بأطارها الكلاسيكى القديم، ووضعتها بهدوء شديد فى أحد الأركان.. ثم طفت على بقية الصور.. كل الصور.. تلك وحدها قصة.. فلكل لوحة ذكرى لأيام ولحظات ومواقف.. لا.. فلأنزل على الخيال والذاكرة ستارا.. وأنهى الموقف بسرعة حتى لا أضعف. وكومت الصور جميعا..

وخلت الجدران منها!!

وقفت ناظراً إلى الجدران بعد أن أصبحت عارية.. داهمنى شعور بأن حياتى نفسها أصبحت عارية.. رفضت بقوة هذا الشعور.. «أصمد يا عبدالله.. آن لك أن تخرج عن المألوف الذى استعبدك بقوة العادة عشرين عاما.. والعواطف لاتموت بين يوم وليلة.. وحالما ستجد صوراً أخرى بديلة فيها من الجمال ما يملأ قلبك ووجدانك.. ولن تكون بالطبع صوراً لحواء.. فلم تأت بعد تلك التى تخلفها فى الوجدان، وفى القلب.. كما أنى لست شغوفا على مجيئها.. لا أحب أن أتورط برد الفعل فى علاقة أخرى.. وهل لابد أن تكون فى حياة المرء امرأة؟! لسوف أضع مكان صورها لوحات.. سأبدأ من الآن فى اختيارها.. للفنانين العالميين ومن مختلف المذاهب الفنية!! المهم أنى قمت بالمهمة.. أزلت كل أثارها.. ولأبدأ حياتى متحرراً منها!

فى نفس ذلك اليوم، أو ربما فى اليوم التالى، أحسست بها تفتح باب الوسط بين الشقتين، والذى لم أسمكره من أجل ابنتى صفاء، وتتجول فى الشقة.. وبالطبع التقطت رفع صورها من على الجدران وإذا بها تدخل علىّ فى مكتبى.. وبنظرة تفيض بالحزن وبالأسى.

ـ شلت صوري؟!

لم أرد..

ـ على كل حال، إذا كنت قدرت تشيلها من على الحيطان، مش حتقدر تشيلها من جواك.. لأنه تاريخ وانطبع.. لا بأيدك ولابايدى نقدر نشيله! لكن أنت حرفى إحساسك.. تعبر عنه زى ما أنت عايز.. هى حاجة واحدة بس اللى أنا بأرجوها منك.. إن الكراهية ماتدخلش بيننا.. يفضل بيننا على الأقل الاحترام!!

وفى عمق نفسى. ساخراً .. مغتاظا (أى احترام يا هانم بعد ما حدث.. هل يبقى للاحترام أى معنى أو مغزى؟!.. بل إننى سأمعن فى محو أية آثا قد تكون لاتزال باقية لك غير الصور!!) .

غير إننى سرعان ما أكتشفت أن بصماتها عبر العشرين عاما باتت مطبوعة على كل شيء.. حتى أنفاسها، خيل لى أن الحيطان وقطع الأثاث تشربت وتشبعت بها.. بل إن الهواء نفسه.. لايزال به رائحتها الخاصة..

وإذ رأيت فى ذلك سطوة وهيمنة خفية لها لجأت إلى استرجاع الشعور بالغضب والكراهية أسلح نفسى بهما!!

فى تلك الأيام عرفت، أنا المشتغل بالمسرح، المعنى الحقيقى للدراما.. وأن الدراما الحقة الآخذة خط المأساة، ليست هى القائمة على ذلك الصراع التقليدى بين الأضداد والأعداء.. وإنما القائمة على

الصراع بين الأحباب.. حين تنقلب ملامح الأشياء ويصبح من كان فى عيوننا جميلا فى وداعة اليمام، فى شكل الصقور الجارحة!

ما أبشعها من فترة، وما أفظعها من أيام.

وكانت إحدى نوافذ شقتى العالية تطل على سطح الجيران.. وقد لاحظت عبر دورة السنين زوجين من اليمام يأتيان إلى ذلك السطح مرة كل عام.. ينبهنى لوجودهما فى بادىء الأمر هديلهما الرقيق الجميل.. فأسرع إلى النافذة وأسعد بمشهد لعبة الحب الموسمية بينهما!! فى ذلك العام فوجئت بصقرين يحطان على نفس السطح، ويحاولان إقامة علاقة ود مع اليمامتين.. وإذا بى، عبر عملية قام بها خيالى، أتصور أن اليمامة قد وقعت فى غواية الصقور.. تمردت على وليفها وتركته وحيدا.. وفى الحال أخذت ملامحها فى عينى شكل صقرة بمخالب ومنقار معقوف!

هكذا كنت - بالوعى وباللاوعى - أشبع إحساسى بالغضب، كى اتخلص نفسيا منها، ومن ثقل إحساسى بوجودها الذى دأب على ملاحقتى.. لايتركنى فى الصحو ولا فى المنام!!

وحدث فى تلك الفترة أن أرسل لى ابنى صلاح - وكان قد علم بما حدث خطاب عاطفىّ يستحلفنى فيه أن أسافر إليه.. وقال لى مشجعا - بطبيعته السندبادية - أنه يجهز لى رحلة إلى «لابلاند».. أقصى شمال فنلندة.. حيث يعيش اقوام الاسكيمو، والأهم، حيث أرى الشمس وهى طالعة فى منتصف الليل.

هذه الجملة الأخيرة ألهبتني، وتصورتها موضوعا للمجلة، وعرضت الفكرة على رئيس التحرير. وكان أنذاك الصديق العزيز «لويس جريس» وأخبرته بالضرورة النفسية الملحة لي في هذه الانطلاقة.. آه .. كم لهذا الصديق الإنسان من أفضال عليّ في هذا المضمار.. حين أريته ذات مرة تلغرافا جاءني من ابني إيهاب العائش في باريس يخبرني بأن عقد قرانه السبت القادم.. وإذا به يسألني: ألن تحضر عقد قرانه؟! وحين رأى ترددي.. صاح في مستنكراً: كيف؟ ابنك البكري يتزوج ولاتكون معه في عقد قرانه؟! اكتب ورقة بالسفر إلى باريس لتغطية آخر الأحداث الثقافية والفنية فيها.. وسأزكيها عند رئيس مجلس الإدارة!! وطرت بالفعل إلى باريس وكانت أروع مفاجأة لإيهاب وقد رآني أدخل عليه لحظة عقد القران!

في هذه المرة أيضاً.. كتب لي لويس موافقته وتزكيته.. وطرت إلى فنلندة .. إلى الشمس في منتصف الليل!!

الآن لايعنيني من هذه الرحلة إلى بلاد «لايلاند» حيث يعيش أهلها ما يقرب من عشرة أشهر من العام في أكواخ خشبية عالية محاط معظمها بمياه البحيرات.. أقول لايعنيني الآن سوى منظر واحد في غاية الغرابة والإثارة.. كوخ خشبي قائم ومستقر على عمود واحد لاغير.. بينما الأكواخ الباقية كلها قائمة على عمدان أربعة، أو على الأقل عمودين متقابلين!

وإذا بالفكرة التي تثور تلقائياً في ذهني: ليس قانوناً حتمياً إذن ـ كما يقول جبران ـ أن يقوم البيت ـ وبالتالي حياة الإنسان، على وجود اثنين

ـ وأن المرء يمكن أن يحيا بذاته.. ويكتفى ويعيش! وهكذا.. كل شيء كنت أراه أسقطه تلقائيًا على أزمتى مع فتحية، وأحاول أن أستخلص منه فكرة أو مغزى يعيننى على استيعاب الموقف واجتيازه بكبرياء وشجاعة!!.. وحدث بعد أن عدت من «لابلاند» أن جمعنى لقاء بإحدى السيدات فى أحد النوادى الرياضية وأثار فضولى فى البدء أن هوايتها المفضلة ـ وهى الأم لبنتين وولد ـ هى لعبة «الچودو» ثم إذا بى أفاجأ أن الهواية تحولت مع الأيام إلى احتراف، واليوم بالذات ستدخل إحدى المباريات!!

وحين قلت لها، كاتماً دهشتى: ألم يكن من الأفضل أن تكتفى من حبك لهذه اللعبة بحدود الهواية، وتبقين خارج منطقة الاحتراف بمخاطرة وعنفه؟!

قالت بهدوئها الفنلندى: حين تعطى الوحش إصبعك.. فهو لن يكتفى بالإصبع، بل سرعان ما يلتهم اليد كلها.. والذراع أيضًا إن أمكنه!!

وتذكرت فتحية..

ولوحشية الصورة، لم أشا أن أسقطها بالكامل على قصتنا!! إلا اننى وعيت الحكمة جيداً.. مفكراً إنى سأستخدمها ذات يوم فى قصة أو مسرحية!!

ثم حدثت ـ فى نفس الرحلة ـ واقعة حركت كل اشجانى.. كان ذلك قبل عودتى إلى القاهرة بيوم أو يومين، حين لبيت دعوة على العشاء

من الجار المباشر لصلاح، وهو رجل عجوز تجاوز الثمانين، يعيش وحيداً بعد أن ماتت زوجته، وانطلق أولاده الكبار كالطيور، وبنى كل منهم لنفسه عشا.. ومع هذا فيالفيض الحيوية ووضاءة الوجه والروح.. وهو يتجول بى فى شقته القريبة فى جمالها وروعتها من أن تكون متحفاً!!

وبينما أنا أتامل قطع الأثاث.. واللوحات.. والنياشين والميداليات.. مستمعاً له وهو يحكى بحماس قصة كل واحدة منها باختصار، إذا بى أجدنى واقفاً متسمراً أمام لوحة كبيرة ذات إطار قطيفى متميز يطل منها وجه مريمى الملامح تشع ابتساماً وصفاء ورضا..

وإذ رآنى مستغرقاً ممتصاً ببهاء اللوحة، قال بفرح: زوجتى.. وأم الأولاد (وابتسم) وأمى أيضاً.. رغم أنى كنت أكبرها بعشر سنوات!

انفجر الجرح الذى بداخلى.. أصابنى دوار.. أحسست بلذعة الحزن العميق: ها هى السيدة رغم الموت لاتزال تعيش معه وتؤنس وحدته.. تحييه ويحييها.. تناجيه ويناجيها.. كل صباح ومساء!!.. (أما أنا (وتذكرت جدران شقتى العارية الجرداء.. فى القاهرة). فقد خلعت صورتها وأخفيتها فى أحد الأركان المعتمة!! ألا ليتها ماتت قبل أن تحل اللعنة، كانت صورتها الآن على الجدران وفى القلب! نعم .. لو أن القدر اختطفها منى ونحن فى عز المحبة أيام الذوبان البهيجة.. لظلت صورها معى حتى أرحل وألحق بها.. وبكى قلبى شجناً فى صمت!!

فى اليوم الأخير من الرحلة.. وبينما أنا أجهز حقيبتى استعداداً للطيران والعودة إلى القاهرة، متحمساً ومشحوناً بأفكار وصور عديدةتصلح لأن تكون أكثر من موضوع للمجلة، وأكون بذلك عند حسن ظن صديقى الكريم رئيس التحرير لويس جريس.. إذا بصلاح ينادى علىّ من الصالة بأعلى صوته: بابا.. بابا.. تعال بسرعة.. ماما على التليفون!!

اكتسحتنى للحظة فرحة دافقة حتى خيل لى أن ما حدث ليس إلا كابوساً خرجت منه على صوتها.. نفس الرنين.. نفس الإيقاع البهيج والمضىء والفياض محبة للحياة وللأشياء.. كم أوحشنى ذلك الرنين، وذلك الإيقاع كأنما قد مضى على غيابه عنى سنين وسنين.. وهى تسألنى بحميميتها المعتادة عن موعد وصولى إلى مطار القاهرة لتكون فى انتظارى.. ورأيت صلاح ينظر له بأسماً ابتسامة ليس لها غير معنى واحد بالتحديد.. أن انفصالنا هذا ليس أكثر من لعبة للتسلى. أو سحابة شتاء سرعان ما تفرغ ما في جوفها من مطر.. وإذ انتهت المكالمة سريعاً قال لى صلاح وابتسامته لاتزال على شفتيه: افتكرت دلوقت مثلا كنت أسمعه دايما من ماما: ابعد حبة.. تزداد محبة.

ولم يزد.

فهل بعد سفرى هذا وغيابى.. تجددت المحبة؟!

وبدا لى أن هذا المثل الطريف البسيط، هو درس بليغ فى العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة.. فما كدت أهبط من الطائرة حتى وجدت

الحضن الذى عانقتنى به هو نفس حضن فتحية الذى عرفته على مدى العشرين عاماً.. حضن العمر كله ينتعش ويتجدد من جديد!!.. وكنا بعد منتصف الليل، وتذكرت شمس منتصف الليل.. وخليل لى إنى أراها طالعة فى القاهرة.. تتبدى لى فى الجالسة عن يمينى.. فتحية.. والجالسة عن يسارى.. ابنتى صفاء.. لا أريد أى كلام.. ربما كلمة منى أو منها تهز اللحظة بلاقصد.. كل ما أريده الآن أن تبقى المشاعر كما هى حتى نصل إلى البيت.. فلأستعن بصفاء لتملأ هى الصمت وتبقى على الإحساس الحلو المرفرف فوقنا: أخبار الجامعة إيه ياصفاء.. أخبار الفلسفة وعلم النفس والدكتور عبدالغفار مكاوى؟!

أبهجها أسم «عبدالغفار مكاوى»: يا سلام يا بابا على الدكتور عبدالغفار ده.. إنسانية إيه.. وطيبة إيه.. وعلم إيه؟!.. وإلا لما عرف أخيراً إنى بنتك.. فرح جداً.. وقعد يحكى لى عن تاريخ صداقتكما.. وعن أكلات البط والسمك اللى أكلها من إيدين ماما.

داخل الطرب فتحية: والله لانا عازماه على أكلة بط قريب جداً. وهكذا بفضل سيرة هذا الرجل الطيب وصلنا إلى البيت فى حالة يغلب عليها المرح!! وإذ أدخلتنى فتحية شقتها، فوجئت بأن الشقة أخذت منظراً غير الذى تركتها به: هدمت الحائط الذى كان يفصل الصالة عن الحجرة التى تليها.. وأصبح المدخل فسيحاً مديداً ينتهى بالشرفة.. راقنى المنظر جداً.. وتذكرت أنها ياما طلبت منى أن ننفذ هذه الفكرة، لكنى كنت أستخسر الحجرة وأؤجل التنفيذ!

هاهى بعد انفصالنا الرسمى واستقلالها بالقرار نفذتها وعلى أحسن وجه!!.. أحسست بينى وبين نفسى بشىء من الخجل..

وقفت أنظر إلى الشقة بشكلها الجديد، وإذا بخيالى يضيف ويرسم: آه.. هنا.. فى هذا الركن ستكون شجرة.. وهنا.. ستكون أباچورة.. ركن إضاءة.. وحين أخذتنى لتريني حجرة نومها.. رأيت أن هناك ثمة مساحة فارغة بجوار السرير.. أعلى الكوميدينو.. وقلت فى نفسى: لسوف أقدم لك مفاجأة تفرحك: رف صغير مستدير من الرخام المصنع الإيطالى.. وفوقه مرآة بيضاوية بإطار مفضض مشغول باليد!!!

وفكرت بحماس: وليكن هذا رداً على ما فعلته هى معى حين صحبتنى بعد اتفاقنا على الانفصال بورقة، وساعدتنى على تجهيز مطبخ جديد لشقتى!! أجل.. لم لايكون هذا صياغة جديدة وغير تقليدية لعلاقتنا:

صديقان.. بدلاً من زوجين.

لا عداوة ولاحتى غضب..

كلانا حر ويفرح بحرية الآخر.. الحرية التى تعلمناها معًا فى ظل الالتزام والمسئولية.

أجل .. لم لانعيش هذه التجربة؟!

إن لم نفعلها نحن الاثنين، فمن غيرنا سيفعلها؟!

وقررت بكل جوانحى خوض التجربة.

غير أن حدثاً جسيماً وبشعًا فوجئنا به يدق على الأبواب. ويعمل على إشعال النار وتجديد المواجهة المريرة بيننا!!

24

الحب يبعث فى الجحيم

استيقظنا واستيقظ العالم كله ذات صباح. على خبر بالغ الغرابة والتحدى والاستهانة: إسرائيل وقد فرضت حصاراً بريا وبحرياً وجويا على مدينة بيروت.. وتحديداً قسمها الغربى، وهو الذى اتخذه المقاتلون الفلسطينيون المنفيون من المنفى قاعدة ووطناً مؤقتاً بديلا عن الوطن المغتصب، يديرون منه عمليات الكفاح على المستوى العربى، كما يغذون عمليات الهجوم على الشمال الإسرائيلى. هؤلاء بالذات هم الهدف الذى أعلنت عنه إسرائيل صراحة من الحصار: إما أن يخرجوا من لبنان وبلا سلاح.. وإما الإبادة ستكون مصيرهم.. وها قد أصبحوا هم وكل من يشايعونهم أو يتعاطفون معهم كالفئران فى مصيدة!

وإذ مضت وسائل الإعلام، المسموعة والمرئية تنقل وتنشر أخبار وصور الحصار الذى ما كادت تمضى عليه بضعة أيام حتى صارت المدينة بعد أن أغلقوا كل منافذها وأوقفوا كل محطات المياه والكهرباء، مسرحاً للجوع والعطش والظلام وانتشار الأوبئة..

وانفجر بركان الغضب على المستوى العربى كله.. خرجت المظاهرات واحتشدت التجمعات فى مقار النقابات والاتحادات وأحزاب

المعارضة بنوع خاص.. وعاد الجو ليدلهم بيني وبين فتحية، كما عدت أحس من حولي بنظرات الغضب والاتهام.. أو على الأقل العتاب تتجه نحوى: هذه هي إسرائيل يا سيد.. يا فنان.. يا طيب.. التي تروج في روايتك للتفاوض معها! وهذا هو المغزى الحقيقي والخطير من جريمة كامب ديڤيد.. عزل مصر.. وشل فاعليتها، وانفراد إسرائيل بالساحة!

وكان عبثا بالطبع أن أرد قائلا بأن نظرتي للسلام في الرواية نظرة استراتيجية تتجاوز الصراع العربي الإسرائيلي إلى قضية الصراع الإنساني بين الخير والشر حيثما يكون.. بدليل أن مصرع الجندي اليهودي في ختام الرواية عندي جاء على أيدي يهود من أبناء نفس دينه!! حين فوجيء جنرالات الحرب بابنهم وقد تخلى عن تعصبه التوراني وبات يدعو إلى دولة ديموقراطية علمانية تجمع بين أبناء الديانتين اللتين هما في الحقيقة من نبع واحد.. أو ليس إبراهيم الخليل هو الجد الأكبر للجميع؟! قتلوه، وقتلوا الجندي المصري المسلم أيضاً !! قتل الاثنان حين وصلا معاً بالحوار إلى الصيغة المثلى للسلام.. قتلهما شيطان التعصب والجشع والاتجار بمقدرات الشعوب!

عبثًا أن أمضي في المظاهرات والتجمعات أشرح وجهة نظري! تعلمت من تجربتي في السياسة كيف افتل من الصبر حبالا وأمدها بقدر ما أستطيع، شفيعي حسن نيتي وصدقي وإيماني بأن التاريخ سيقول يوماً كلمته.. لي.. أو عليّ.. ولسوف أتقبل حكمه!

أما فتحية، فبعد أن صار كلانا يطاوع خطواته في الدخول إلى شقة الآخر، عادت الملامح فاربدت وتجهمت.. ولم أعد أراها أو أسمع

صوتها إلا صائحة أو صارخة فى تجمع أو فى مظاهرة، وزايلتها تلك الروح الأمومية التى كانت تدفعها رغم انفصالنا لأن تطمئن على مأكلى ومشربى وملبسى، وخيل لى أنها ندمت على أنها ضعفت وتركت نفسها أحياناً، بعد عودتى من السفر لعاطفتها الأصيلة نحوى!.. صار وجهها كلما التقينا جاداً متصلبا ينم عن المها العميق لاستمرار مأساة الحصار دون أن نفعل شيئاً جادا لإنقاذهم أو على الأقل التضامن معهم.. إلا بالصراخ وبالخطب!

فى تلك الفترة، جاءنى خطاب من صديق عزيز يعيش فى بيروت، يعمل «رسام كاريكاتير» فى إحدى المجلات التى تصدرها منظمة فتح هو «مختار عبدالرحمن». ولم يأتنى الخطاب بالطبع بالبريد، بل بواسطة شخص كان يعيش معه هناك.. فى الحصار.. ثم استطاع الخروج من الجحيم، وحين وصل القاهرة أرسله لى بالبريد!

الأخ الصديق عبدالله.. تحياتى المخلصة لك وللأخت الصديقة فتحية وصفاء ولجميع الأصدقاء..

أكتب هذا الخطاب فى ١٩٨٢/٦/٢ وقد امتد وقف إطلاق النار لمدة ٤٨ ساعة بعد أن انتهت المهلة الأولى اليوم الساعة ١٢ ظهراً.. وهكذا نعيش ونحسبها بالساعات.. لكنها أيام لها قيمتها الوطنية والشخصية.. وسأرسل هذا الخطاب مع الأخ الممتاز «أحمد صادق سعد» الذى سيسافر فى الأغلب غداً من ميناء جونيه الكتائبى، بعد أن أرسلت مصر باخرة لتعود بمن يرغب فى العودة. وبالنسبة لى، وللصديق شوقى عبدالحكيم

الذى يسكن معى فى نفس العمارة بحى الحمراء، لن ننتهز هذه الفرصة، لقد أصبحنا مرضى بالتاريخ القومى الذى يتحدد مصيره الآن، وليس لأنه ليس هناك مكان آخر.. و..

ولا أسترسل فى نقل الخطاب، ذلك أن المهم فى الموضوع هو ما أحدثه فى نفسى من أثر، فما كدت أنتهى من قراءته، حتى كنت قد أتخذت قرارى بالسفر إليه هو وشوقى.. وصار ذلك حلمى.. أن أدخل بيروت.. وأنضم إلى المقاتلين.. وأعيش الملحمة!.. وبلا أية كلمة انطقها : هذا هو سلامى الذى أدعو إليه فى «فجر الزمن القادم».. ليس أبدا استسلامًا كما يتصورون بل نضالا يأخذنى حتى حافة الموت والاستشهاد!

وتأجج صدرى حماسًا ومرحًا.. ذلك الحماس والفرح اللذان لايعرفهما قلبى إلا فى لحظات اليقين الكامل بصحة ما أفعل.. واهتز كيانى كله بالطرب الممتزج بالإشفاق وبالأسى الجليل النبيل: أجل.. ولتكن مغامرة تكسح الرماد من فوق الجذوة النائمة.. أو..

وتذكرت قصتى القصيرة: «الميلاد».. أو «حامل نعشه».. هو ذاك.. سأحمل نعشى وأمضى.. ثم أحول النعش هناك إلى سلاح انتصر به فى معركتى..

وقد حدث

كيف حدث؟!

يا عزيزى لويس جريس.. يا من لك ـ كإنسان.. وكرئيس تحرير ـ فضل تحويل الحلم العظيم إلى حقيقة.. هل تذكر..؟ حين عرضت عليك الفكرة، فلاقت في نفسك هوى وتقديراً، ورحبت بها على الفور، بل وفرضتها على ذلك الرجل المعوّق المعوِّق إياه!! وإذا بى بعد أيام قليلة، أنطلق بالطائرة إلى دمشق.. ثم من دمشق، وبنصيحة من الصديق العزيز «فهى حسين» إلى عمان، حيث أستطعت الحصول من السفارة اللبنانية على تأشيرة دخول إلى بيروت لم أستعملها على الإطلاق، ذلك أنى وأنا عائد بالعربة من عمان إلى دمشق فوجئت ببيان تذيعه سرائيل بوقف مؤقت لإطلاق النار لمدة أربع وعشرين ساعة لاغير، كى تتيح الفرصة لمن يريدون الخروج من الجحيم أن يخرجوا، ويبقى المقاتلون وحدهم!

آه .. يالها من فرصة سانحة لاتعوض! وما وصلت إلى كاراج دمشق حتى اتفقت مع سائق لبنانى الجنسية،اهتديت إليه بالغريزة ليدخل بى بيروت قبل انتهاء المهلة!! وإذا بالمغامرة تتم، والحلم يتحقق بفضل شجاعة وخبرة وجرأة قلب ذلك السائق الذى انطلق بى على مدى أربع أو خمس ساعات عبر طرق وممرات وتفريعات خفية سرية.. إلى أن أفقت عليه يصيح فجأة معلنا بفرح: هيه.. بيروت.. بيروت!

أبداً.. أبدا.. لن أنسى فرحة تلك اللحظة.. وأنا أدخل بيروت الغربية.. كأنى جيش بأكملة وفتح مدينة محاصرة!.. جوهر فرحتى

وفخرى أنى لم أعرض جواز سفرى على جندى إسرائيلى.. بل دخلتها سرا.. بفضل ذلك السائق اللبنانى المحبوب المرح الروح، والذى حكى لى خلال اندفاعته المغامرة عن قصة حب وزواج كانت له مع سيدة مصرية: آه.. بالأيام الهناء التى قضاها معها.. فى الإسكندرية..!! أيتها الحياة.. بكل مافيك.. بكل تناقضاتك.. ما أعظمك وما أروعك!

وقد كتبت عن ملحمة ومجزرة حصار بيروت الغربية كما عشتها فى تلك التجربة المروعة الحية.. وكان ذروة ما كتبته ونشرته فى مجلة «صباح الخير» مقالا بعنوان: «الموت الحياة». قاصداً الحياة المنبعثة من تحدى رعب الموت.. حين يتحول الموت بفضل شجاعة المواجهة إلى أنشودة للحياة! وقد كان ذلك هو مدار ومحور تجربتى من أول لحظة دخلت فيها مدينة لم يستقبلنى فيها غير أنقاض على أنقاض.. وبشر يهرولون سراعا فى كل اتجاه، كل يريد أن يلحق أو ينجز شيئا قبل أن تنتهى المهلة ويعود الجحيم إلى الاشتعال!

هى دقائق مرت على وصولى إلى شقة صديقى شوقى عبدالحكيم الذى ما أن رآنى واقفا ببابه حتى بدا عليه الفرح المختلط بالذهول وعدم التصديق، وإذا به، بعد أن انتهينا من العناق يقول لى بهدوء شديد: انت مجنون؟! الناس بتهرب وأنت جاى؟! (ثم بعد لحظات وهو يتفرس وجهى) على فكرة.. أنت ٩٠٪ حتموت المرة دى!!

ووجدتنى أنفجر ضاحكا رغم بشاعة النبوءة متذكراً مسرحه الفولكلورى القائم على البكائيات والندب، وقلت متحديا قاصدا قتل فوبيا

الخوف السائدة فى المدينة: أنا لو كان عندى ذرة إحساس واحدة إنى حاموت ماكنتش جيت. أنا واثق أنى مش حاموت.. وحارجع مصر وأكتب كل شيء عشته وشفته!

اقول هى دقائق مرت على ذلك الموقف التراچيكوميدى، وانتهت فجأة مرحلة وقف إطلاق النار وانفتحت كل أبواب ونوافذ الجحيم.. من الجو والبر والبحر.. وأصبحنا أنا وشوقى ومختار الذى انضم إلينا كالفئران فى مصيدة.. وسرعان ماعرفت معنى أن يصيب الإنسان الخبال من توقع أن تنهار عليه الطوابق التى تعلوه فى كل لحظة، ولامفر ولامهرب.. والغارة ليست لساعة أو اثنتين أو ثلاث بل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة، ودائما يختارون بدء الغارة مع المساء حتى يتضاعف الرعب من حلول الليل وتكاثف الظلام مع ولولة صفير القذائف والصواريخ القادمة من البحر والأرض والجو!! أعقل العقلاء وأكثرهم تحكما فى الأعصاب لابد أن تفلت منه خيوط الوعى لحظات ويصير مثل حشرة فى الظلام مهددة بالدوس والسحق بالأقدام.. فيبحث عن ثمة مخبأ فى أى ركن دون جدوى! وأحيانا ما كنا ننجح فى التماسك ونمضى نؤنس بعضنا بالكلام.. أى كلام.. وأسمع شوقى عبدالحكيم يقول لنفسه، رائحا غاديا فى الظلام.. مردداً الشطرة الثانية من بيت الشعر القائل:

«يالك من قُبَّرةٍ بمعمر. خلا لك الجوّ فبيضى واصفرى.. ونقّرى ماشئت أن تنقّرى» يرددها بنبرة ممثل مأساوى على مسرح عبثى: خلا لك الجو فبيضى واصفرى.. خلا لك الجو فبيضى واصفرى!!

وكان بالطبع يقصد إسرائيل التى تبيض شراً وتصفُر صواريخها حقداً وتدميرا وعدوانية لاتعرف أى نوع من الرحمة!. وكنت ونحن فى قلب شبكة الرعب العنكبوتي ذاك أعجب لذلك الإفراط في التوحش منها، إذ يكفى منه ساعة أو ساعتان أو ثلاث.. أما ست عشرة ساعة وبلا توقف.. فهو لاشك نابع من ذلك الخلل الهستيرى الشيطانى فى تركيبتها القائمة فى الأصل على الخوف.. وأنها فى حقيقتها كيان هش بضربة واحدة محكمة تطير، مثلما حدث لخط بارليف الذى نسجوا حوله الأساطير لولا احتمائها بأمريكا.. تغرف الأسلحة بكافة أنواعها من ترساناتها.. ليس فقط لتضرب بها، وإنما أيضا، وهو الأبشع، كى تجرب لها الحديث منها.. حقل تجارب نحن لك يا أمريكا.. جربى.. وبيضى واصفرى.. ونقرى ماشئت، انت وربيبتك، أن تنقرى.. ألست حقا شيطان العالم الأكبر عن جدارة!

أخيراً تمت المهزلة الفاجعة، وأعلن عن قبول المقاتلين الفلسطينيين الخروج من بيروت، طريدين.. عزلا بلا سلاح ولاخيار، ليس فقط إنقاذا للمدينة من ذلك التوحش الهستيرى الرهيب، بل وامتثالا أيضا لطلب كافة القوى السياسية اللبنانية.. المتعاطفة منها مع الثورة الفلسطينية والمعادية لها!

وذات ليلة، وثمة هدوء نسبى يسود المدينة.. تتخلله بين الحين والحين طلقات رصاص وازيز طائرات بسرعة الصوت ترج طبقات الفضاء.. والجوع والعطش والظلام والرائحة الكريهة المنبعثة من

دورات المياه كل ذلك لايزال.. فوجدت بصديقى الفلسطينى «زياد عبدالفتاح» الكاتب الروائى ورئيس تحرير وكالة أنباء «وفا» .. والذى كنت قد طلبت منه أول يوم وصلت فيه، أن يرتب لى لقاءا مع «أبو عمار» ياسر عرفات!.. فوجدت به يخبرنى بأنه استطاع أخيراً تحديد موعد لى.. وأن الموعد الآن.. فهيا بسرعة! (ثم أكمل): ستقابله بعد أن ينتهى من لقائه مع وفد الفنانين والكتاب المصريين (وابتسم) معهم فتحية العسال.. سألتنى عنك فطمأنتها عليك واخبرتها بأنك تعيش مع شوقى ومختار فى الحمراء!

سألته بفرح: فى أى فندق سينزلون يا ترى؟!

- فى الكومودور.. الخاص بالصحفيين والمراسلين الأجانب..

- آه.. ليتنا بعد لقاء أبو عمار، نمر على الفندق.. أشوفها.. وأسلم على الناس.

من مخبأ «أبو عمار» الواقع تحت الأرض، والذى لم تكن تضىء ظلماته غير شمعة واحدة صغيرة، خرجت صاعداً إلى سطح الأرض.. كنت مستثاراً متأججاً بالفرح سعيداً أولا بنجاح المغامرة وأننى الكاتب والصحفى المصرى الوحيد الذى فعلها داخل كل هذا الهول، وثانيا لخطورة بعض ما قاله لى «أبو عمار» بعد أن فجرت معه القضية التى صارت نزنازاً مفسداً لحياتى مع فتحية لاختلافنا الجذرى فى الرؤية: ما هى رؤية الرجل الأول فى الثورة للخلاص من تلك المأساة المستمرة.. وإلى متى سيظلون من خروج إلى خروج.. ومن منفى إلى

منفى؟! هل سيظلون رغم هذا رافضين مبدأ الجلوس للتفاوض؟! مصرين على إدانته؟!

وإذ لم تكن اللحظة بالطبع تسمح بهذا السؤال الفاقع والضاغط على الجرح النازف.. عبرت عنه بشكل آخر.. (وأنا أكتب الآن من أصل المخطوط الذى كتبته وأنا أناقش «أبو عمار» فى مخبئه وتحت الأرض).

ـ أعتقد أنكم تؤمنون معى بأن القتال وسيلة لاغاية.. وسيلة من أجل قطعة أرض فلسطينية تضعون فيها أقدامكم، وترمون ببذوركم وجذوركم، وتضعون كل إمكانياتكم وطاقاتكم فى البناء.. أليس هناك مجال لهذا.. إننى لاأتصور وطنا كبيراً كاملا يخلق فى يوم وليلة.. معذرة.. لست سياسيا.. أنا أنظر إلى الأمر بعين إنسانية وفنية..!

ببسمة كبيرة أطلت من عينيه اللامعتين البراقتين قال: ومن قال أننا متمسكون بوطن كبير؟! قلها على لسانى.. إننى أطلب من الحكومة المصرية أن تعطينا «رفح» فقط. لنقيم عليها دولتنا. إننى أوافق على قيام الدولة الفلسطينية على أى جزء من التراب الفلسطينى يتم تحريره أو الانسحاب منه. هذا هو قرار المجلس الوطنى. واليوم أضيف: إننا مستعدون لقيام دولتنا على أى أرض فلسطينية مهما كان حجمها.. ولو انسحبوا غداً من «رفح» أو من «أريحا» فستقيم عليها دولتنا المأمولة!

ما أخطرها من تصريحات وتلميحات تعطى أبعاداً جديدة وواقعية فى النظر إلى القضية.. لسوف تحدث ضجة حين أنشرها فى صباح الخير.. وسوف تقرؤها فتحية.. بل وربما لو ألتقيت بها الليلة فى فندق الكومودور وجلسنا بعض الوقت معا، ربما أحكى لها عن هذا اللقاء وما

دار فيه من أحاديث خطيرة!! لا.. لا.. فلأقذف بكل ماله صلة بالسياسة بعيداً.. إنه ليكفى أن نلتقى، وتكون لنا ـ رغم الطلاق ـ جلسة معا.. على أرض الملحمة والمجزرة.. جلسة إنسانية فحسب.. فمهما كانت اختلافاتنا وصراعاتنا، فها هى لحظة تاريخية مثيرة تجمعنا.. وجميل أن يصبح لنا فيها نحن الاثنان ـ رغم كل شيء ـ ذكرى!

ودخلت «الكومودور» ـ من اللحظة الأولى، ورغم خفوت الأضواء المقتصرة على الأركان، رأيتها.. معقودة الشعر إلى أعلى.. جالسة وسط مجموعة من الرجال لم أميز جيداً ملامحهم.. إندفعت إليها بفرح.. أحست بى واقفا بجوارها.. صعدت بنظراتها إلىّ.. وإذ رأتنى، والتقت عيناها بعينى، تراجعت برأسها قليلا إلى الخلف وغمغمت بلهجة جامدة: عبدالله؟! حمدا لله على السلامة!

(مصدوماً بلهجتها): الله يسلمك.. ممكن تيجى معايا شوية.. عايزك.

وبدا فى عينيها الروع: أجى معاك فين؟! أنت ناسى إننا..!! ولم تكمل الجملة.. لكنها قالتها بكل تعبيرات وجهها: أننا مطلقان.. وأن لاكلمة ولاسلطان لك علىّ!

طاش رأسي بالغضب.. صحت فيها مبرزاً أنيابى ومخالبى: لما أقول لك قومى، يبقى لازم تقومى فوراً.. فاهمة؟!

نهضت واقفة وهى تجز على أسنانها غضبا وغيظا، وسارت بى مبتعدة عن المجموعة حتى وصلت إلى جوار الدرج الصاعد إلى بقية الأدوار:

ـ بأى حق دلوقت تصرخ فى .. عايزنى آجى معاك فين؟! وليه؟!
أنت ناسى إننا منفصلين؟!

– لامش ناسي ياست ياثورية.. رافضة تقومى معايا علشان تفهمى اللى معاك إنك متطلقة.. وأنى خلاص خرجت من حياتك.. وإنك بقيت حرة مستقلة؟! وأن...

وإذا بها.. بنفس الهمس البائس الغضب: كفاية كده أرجوك .. تعال نطلع أوضتى!

وفى لحظات كنا قد صعدنا إلى حجرتها، واغلقت الباب علينا .. وبأنفاس غاضبة كالفحيح: تقدر تقوللى إيه اللى أنت عايزه منى ؟!

ياراجل حرام عليك.. حتى بعد الطلاق.. وفى لحظة نفسى أحس فيها إنى حرة.. وإنى بأعمل عمل كبير.. لوحدى.. بعيد عنك.. مش هاين عليك.. لازم تفضل كاتم على نفسى.. وإنك أنت الموجه.. والمسيطر.. وأنى طفلة.. وأنت الكبير.. وخايف علىّ.. ولازم توجهنى.. خلاص (وعلت صرخاتها) كفاية أستاذية كفاية تسلط ودكتاتورية.. ارحمنى.. حرام عليك.. سيبنى أعيش حياتى.. مرة!

●●●

ولا أذكر الآن كيف عدت ليلتها عبر الظلام والخراب إلى شقة شوقى.. لم أنتظر «زياد» ليعود بى بالعربة.. كنت جريحا .. تعيساً غاية التعاسة .. هاهى قد جاءت إلى بيروت لتقلب انتصارى وزهوى إلى

إحباط وإحساس بالهزيمة.. مضيت وسط الخرائب والعمائر المنهارة: تتردد في رأسي كلماتها.. وأتهاماتها.. وماجرحت إحساسي طوال حياتنا معا مثلما جرحتني وأدمتني هذه الليلة. وإذا بها تأخذ في نفسي وعيني شكل عمارة كانت عالية شامخة وانهارت مثلما انهارت عمارات بيروت وأبراجها العالية!.. أجل.. ولن يعيدها أي شيء بعد ذلك لحياتي .. ظللت سائراً اتخبط في الأنقاض، وفي الركام.. حتى وصلت!.. أرتميت على السرير متمنيا لو يأخذني ويهبط بي ويهبط حتى نقطة اللاعودة!! انتبهت فجأة على دقات باب الشقة. نهضت وفتحت .. وإذا بها: فتحية!

رأيتها في ضوء الشمعة التي أحملها. كيف جاءت عبر الظلام والخراب.. لابد أن أحداً أوصلها.. كانت شاحبة ومجهدة.. وبصوت يفيض تعباً وحزنا : مساء الخير.

اهتز قلبي..

سحقت قلبي..

أشرت لها بالدخول.

دخلنا الحجرة.. أغلقتها.. لم نتبادل ولاكلمة. أندفعت من أول لحظة إلى صدري.. وكان الحب ـ رغما عنا ـ في مدينة الخراب والظلام!

●●●

الآن أعترف.. ومن الأعماق..

أن تلك اللحظة الحميمة البالغة الدرامية، والمختلط فيها طعم المأساة بالنصر، هي التي بعثت الشعور بعمق ما بيننا، وبقوة وامتداد جذورنا، وعلت بي فوق ما في هذا العالم من توحش وجنون وأحزان، حين فوجئت بها - بعد ذروة صدامنا التعيس في الكومودور - هي التي تسرع إليّ وتقوم بمهمة الإنقاذ.. تخوض الخرائب والظلمات وأخطار مدينة محاصرة وتأتيني. وتكلبش فيّ.. رافضة أن يلقى حبنا مصرعه على أرض الهزيمة والمأساة!

تلك اللحظة بالذات، سطعت أمامي نجمة الخلاص التي أصبحت هي دليلي: أن المسئولية بعد ذلك هي مسئوليتي.. أن أكون معًا - في هذه المرحلة بالذات على مستوى المثاليات التي ياما تغنينا وعشنا وحلقنا بها، وسجلتها على نفسي - مزهوا - وأنا أهديها نسخة من مسرحيتي «طيور الحب»: إليك يا فتحية.. يا طائر حبي الطليق.. من أجل أجنحة أقوى، وفضاء أوسع وأرحب، لتصبح حياتنا معا، أنشودة تتغنى بها الأجيال من بعدنا.

وها هي قد اشتد جناحاها، واتسع افق ومجال طيرانها، وصارت تمارس حريتها وتتعامل مع المواقف والقضايا بالصورة التي تراها وتحدثها بها نفسها.. أجل .. ففي نفس الوقت الذي كنت قد ركبت العربة لتعود بي إلى دمشق، ثم منها بالطائرة إلى القاهرة كي أسرع بالكتابة والنشر والمأساة ما تزال ماثلة ساخنة، إذا بها تقرر البقاء مع

بقية الوفد المصرى، وكانت قد انضمت إليهم الفنانة والصديقة العزيزة نادية لطفى، لكى يشاركوا فى ساعات الوداع الأليمة للمقاتلين وهم يغادرون لبنان من ميناء «جونيه».. بلاسلاح.. إلى حيث لايعلمون!

تلك اللحظة بالذات، سطع أمامى جوهر القضية بينى وبينها.. وأنها - دون لف أو دوران - هى قضية الحرية.. وبشكل أكثر تحديداً، حريتها فى مواجهة حريتى.. وأن ذلك حقا هو أمتحانى.. ليس أمتحانى أنا وحدى، بل وامتحان كل الذين يعتبرون أنفسهم: فرسان الحرية!

(وساعد على ذلك انطلاق العربة العائدة إلى دمشق ثم فترة تحليق الطائرة إلى القاهرة) كل هذا أعطى الفكرة حقها لتعرض نفسها .. تاريخها وتطورها: لقد كانت ومازالت حريتى الشخصية هى قضية ووجودى الأولى .. ثم حين أحببت وتزوجت، ألهمنى الحب أن أجمل هدية يمكن أن يهديها المحب لمحبوبه هى حريته. وإذا بى - وياويلى - أفاجأ بأنى دخلت أرضا مليئة بالألغام التى لم تكن تخطر لى على بال: ركام هائل من التراث والتقاليد والتابوهات والمحرمات.. والأخطر ليس لأنها كالدم الجارى فى شرايين وخلايا المجتمع ، بل لأنها أيضا داخلة، ومتوغلة فى عمقى أنا أيضا، باعتبارى صنيعة ونتاج هذا المجتمع.. وتلك كانت جوهر الدراما.. أو نقطة الانفجار.. فقد ظللت أتعامل مع حريتها فى البدء من منطلق الشعور بأنى أنا المانح لها.. ومن ثم فأنا المسئول عنها وعن حريتها والراعى لها.. وذلك كان هو اللغم الأكبر الكامن فى انتظار الانفجار المدوى.. ذلك أن من ينال الحرية ويكتمل

بالممارسة إحساسه بها، يعز عليه بعد ذلك أى مساس بها، أو فرض أية وصاية عليها، مهما كان هذا الوصى، ومهما كانت حجته!

وسطعت أمامى جملة «خروتشوف» العميقة المغزى «إن الناس لايساقون إلى الجنة بالعصا»، وكذلك جملة هيجل العظيمة: «إن تاريخ الإنسان الحقيقى هو تاريخ وعيه بحريته»، وأضفت أنا بحماس «وكذلك بتاريخ وعيه بحرية الآخر إزاء حريته»!!

وهكذا كنت شديد الوعى - نظريا - بهذا.. ولكن إلى أى مدى تستطيع النظرية عبر الصراع تغيير المشاعر المختلطة بالدم السارى فى الشرايين وفى العروق وفى الچينات الأولية نفسها؟!

●●●

كان الوضع بيننا، بعد أن آبت من بيروت وعادت تعيش فى القاهرة حياتها العادية، أصبح جد غريب ومثير: منفصلان على الورق، ومع هذا صديقان حميمان على أرض الواقع.. لكل منا شقته، وبين الشقتين باب يمكن إغلاقه، ومع هذا فهو دوما مفتوح.. والزيارات متبادلة..ووجبات الطعام الثلاث اليومية تأتينى من شقتها، وهى بنفسها المشرفة على إعدادها.. فأرد على ذلك بدعوة لها على الغداء أو فنجال قهوة على النيل.. أو لتقرأ لى مقالا لم أنشره بعد.. وإذا بى يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، ثم شهراً بعد شه، أتعود وأتقبل التخفف من ثقل عادة الارتباط.. صرت أنام دون أن اعرف هل عادت إلى شقتها

م لم تعد.. أنام بعمق ودون أن تعمل فى رأسى الهواجس.. أليست
تعيش حياتها، والحاملة لمسئوليتها عن نفسها؟!

وفى البدء كنت أتوقع أن أسمع عن كارثة تحدث لها، أو خبرا يسىء إليها.. لكن العكس هو الذى كان يحدث.. لم أكن أسمع عنها إلا كل ما هو طيب ومطمئن.. وما أجمل تلك الكلمة التى وجدتها تخرج من شفاه الكثيرين الذين لايعرف بعضهم البعض: فتحية.. يا سلام.. دى ست جدعة! كم كانت تسعدنى هذه الكلمة وتملؤنى، وهى بعيدة عنى، بروح الأمان والطمأنينة والسلام.. أجل .. ما أجمل وأعظم أن يكون الراعى الأول لها.. هو ضميرها!!

وبالتدريج، ومازلنا منفصلين على الورق، صرت أرى الحياة بيننا وقد شكلت نفسها بنفسها وأخذت صورة رائعة داعية للبهجة والرضا: أنا وهى.. طائران طليقان.. يربط بينهما حبل سرى عميق يجذبهما بالحنين - بين الحين والحين - إلى عش يضمهما ويتحولان فيه إلى طائر واحد.. ثم لايلبث أن يعاودا الطيران والتحليق فى أرجاء الكون

وحين ارتسمت أمامى الصورة بكل روعتها، وتفجراتها الحية، وجدت أنا - بالحب - قد خلقنا خلقاً جديداً!!.. وحينذاك أحببت الصورة وأستمسكت بها.. ما أجمل أن تتحول إلى نبض وحياة .. ما أجمل أن نبدأ بها حياتنا من جديد..

أجل - أنا طليق.. وهى طليقة..

أنا أكتب.. وهى تكتب.

أنا أنشر وأعرض مسرحيات، وهي أيضا تعرض لها مسلسلات.. وفي كل هذا، لاتكتمل سعادة الواحد منا إلا إذا كان الثاني معه في الصورة.. سواء في الواقع أم بالخيال..

وتأخذني الأحداث، ونحن مازلنا على الورق منفصلين، وتلوح لي إحدى قصص الغرام مع أخرى فيها من مثيرات الجمال والشخصية مايغرى ولو بمغامرة سريعة عابرة.. وإذا بي أحس أني لو فعلت هذا، ستكون خيانة لفتحية.. وللصورة المرتجاة.. رغم مازلنا رسميا منفصلين.. وأسعد جدا بهذا الشعور!

وبدون اتفاق صريح، طرحنا بعيداً أي كلام في السياسة، وتحديداً موضوع «كامب ديفيد» والتطبيع مع إسرائيل، تاركين المصير في تلك القضية للأيام.. وما أكثر وأغرب ما للزمن من أفاعيل!

وعادت الأكف تتلامس مرة أخرى، بأطراف الحواف، وإذا بخفقة النداء الازلي تسري وتتحرك بيننا.

وتأتيني صفاء العزيزة التي احتملت ببسالة فترة العاصفة.. وكنا في الصيف: بابا.. أنا وحشني جدا بحر المندرة.. ماتيجي نقضي كام يوم هناك..

– وحتسيبي مامتك؟!

– ونسيبها ليه؟! تيجي معانا.. أنتم مش عايشين هنا في بيت واحد.. وكل واحد في شقته (ونظرت في عمق عيني باسمه) وبقيتم

أصدقاء؟! هناك برضه.. في المندرة.. كل واحد له أوضته.. لكن على البحر مع بعض كلنا!

وحين عرضت صفاء الفكرة عليها تقبلتها بحماس وفرح.. ويومان كنا هناك.

وبالبهجة ذكرى ذلك الصيف.. وتلك الجلسة، على شرفة مطعم «اندريه».. أنا وفتحية جالسان.. البحر أمامنا.. وغابة قصر المنتزة عن يميننا.. والقلب فياض بالفرح.. فرح دونه أى تعبير بالكلام.. هاقد وصلنا إلى الصيغة المثلى للحب بيننا: طائران.. وعش.. وحبل سرى خفى عميق يربط بيننا.. بمنتهى محض الاختيار!

وتخرج منى الكلمة التى تبلورت مع الأيام، صادقة وبسيطة ومن الأعماق: على فكرة يا فتحية. أنا حاسس إنك .. حررتينى منك!

وكأنما ألف شمس سطعت فى عينيها، وأمسكت كفى بفرح ولهفة: ياسلام.. أجمل كلمة سمعتها فى حياتى.. ياه ياعبد الله.. قد إيه دلوقت أنا سعيدة وراضية.. (وارتعشت شفتاها واغرورقت عيناها بدمعتين.. لولؤتين) دلوقت اقدر أقولها لك من قلبى (وبابتسامة فياضة حييه) إيه رأيك.. تتجوزنى؟!

اهتز قلبى.. عادت فى عينى تلك الصبية الصغيرة المضيئة الوضيئة التى ساقها إلى القدر ذات صباح شتوى مشمس فى ميدان السيدة زينب.. وبعدها لم نفترق أبدا، حتى حين تعرض الحب لأزمة اختناق رهيبة، استطاع بقوته الذاتية.. بقوة الجذور التى امتدت،

ويفضل تجربة الانصهار بالألم، أن يواجه الطوفان ونعيق الغربان ويطفو بالسفينة وينجو بنا!!

أحتويت كفيها بين كفى.. وإذا بالجواب ـ وياللسعادة ـ يخرج عفويا وصادراً من القلب: أنت عارفة إني ، قبل مانسافر المرة دى مباشرة، علقت كل صورك من تاني.. رجعتها فى مكانها زى ما كانت.. خصوصاً صورة زفافنا؟!

وإذا بها وقد تضرج وجهها بالفرح، تضم كفى الاثنتين إلى صدرها بانفعال ثم ترفعهما إلى فمها وتقبلهما.. أسرعت مهتزا ورفعت كفيها إلى شفتى وقبلتهما.. ظهراً لبطن، ثم قلت ناظراً فى عينيها المضيئتين: كده نبقى وقعنا على عقد جوازنا.. والبحر والسما.. والشجر.. والبشر.. هم الشهود.



الآن، وبعد خمسة عشر عاما من تلك اللحظة، أجلس أنا وفتحية، فى الشرفة العليا.. شرفة العمر الجميل الحافل.. اقترب من قمة السبعين، بتاجى الأبيض الغامر.. وهى، بخصلة شعرها البيضاء الملقاة على جبينها الوضاء، وقد تجاوزت الستين بقليل، شابين ما نزال.. متأججين بحب الفن وعشق الحياة، أمامنا شريان الحياة نهر النيل، وعلى بعد قليل هضبة الصحراء برمالها الذهبية تنهض فوقها معجزة مصر المتفردة على جبين الزمان: الأهرامات الثلاثة!

نمارس متعتنا التي تعودناها كل صباح: كوبان من الشاي باللبن الحليب، أصنعهما أنا بيدي، ونشربهما معا.. ويحبها للحكي، تحكي لي ما تكون قد نسيت أن تحكيه لي بالأمس. شهر زادي الحبيبة تعود.. يخبر كل منا الآخر ببرنامج يومه.. وأحيانا يرن جرس التليفون رنينا طويلا طويلا، فتقفز فتحية من مقعدها فرحة: ده لازم حد من الأولاد.

وبالفعل تأتينا الأصوات الحبيبة: مرة صوت إيهاب من باريس، ومرة صوت شريف من هلسنكي، وأخرى صوت صلاح من الغردقة:

كبرت الطيور التي ربيناها.. بالحب وبالحرية، وانطلقت بوعي وثقة وشجاعة في أرجاء العالم واستطاعت أن تبني لنفسها أعشاشا دافئة جميلة: إيهاب وصلاح وشريف وصفاء الصافية الحبيبة، ومعهم جميعا عشرة أحفاد.. صبيان وبنات.. أزهار شجرة الحب الوارفة الظليلة!

يرتوي القلب ويفيض بالارتياح وبالطمأنينة.

ننهض بعد الشاي.. نرتدي ملابسنا.. نخرج.. يمضي كل منا في اتجاه..

طائران طليقان.. في ارجاء كوننا العظيم الساحر.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦١٠ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5245 - 5

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى جنيهان
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ عبد الله الطوخى

- فى إحدى قرى الدلتا المطلة على نهر النيل، ولد الأديب الروائى عبد الله الطوخى عام ١٩٢٦.
- أشتغل بالمحاماة فترة ثم هجرها إلى الكتابة الأدبية.
- اشرف على القسم الأدبى والمسرحى فى مجلتى روز اليوسف وصباح الخير.
- نشرت له الهيئة المصرية العامة للكتاب أعماله الكاملة وتقع فى سبع مجلدات.
- من أشهر أعماله الروائية «رباعية النهر»، وهى أربع رحلات فى نهر النيل بدءاً من القاهرة حتى منطقة المنابع، «عينان على الطريق»، وهى سيرة ذاتية قصة حياة وقصة عصر، ومن أشهر [illegible] ساتية»، «طيور الحب»، «المر[illegible] كثيراً»، ومن أهم أعماله ا[illegible] «مهلاً أيها العمران»، «مكا[illegible]
- نال جائزة القصـ[illegible] فيلم «جـفت الأمطار»، [illegible] للعلوم والفنون فى عيد الإ[illegible]